العدد التاسع والعاشر – السنة الحادية عشرة – جمادى الاولى 1388 غشت 1968

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

في هذا العدد :

تصدرها
وزارة عموم الأوقاف
والشؤون الإسلامية

العدد التاسع والعاشر
السنة الحادية عشرة
جمادى الأولى 1388
غشت 1968
ثمن العدد
درهمان

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما
فاكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :

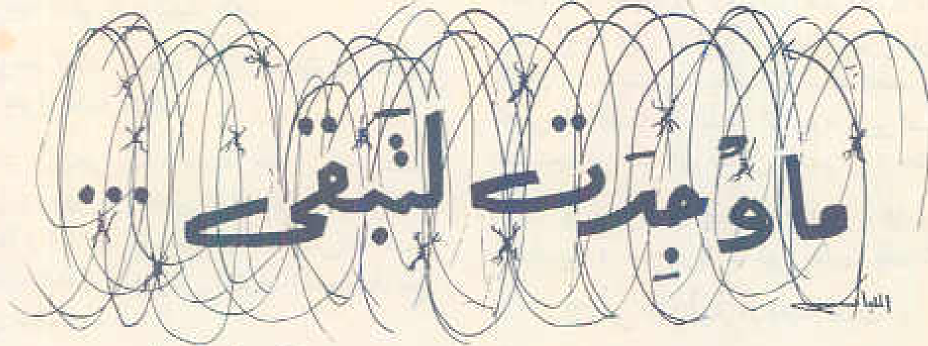
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية
والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط



لسماحة الشيخ نديم الجسر

نص المحاضرة العلمية الفلسفية التي القاها في حفلة افتتاح الموسم الثقافي للمعاهد الثانوية العليا في طرابلس العلامة الجليل والاديب الكبير صاحب السماحة مفتي طرابلس ولبنان الشمالي الاستاذ الشيخ نديم الجسر عضو مجمع البحوث الاسلامية في الازهر .

ان الكلام مع النخبة من العلماء والفهماء هو من اصعب الصعاب ، واهون الهينات .

اما السهولة فهي من جهة ان المتحدث الى النخبة يجد نفسه غير محتاج الى مزيد من الاسهاب ، والتبسط ، والتهبط عن مستواه ، ثم يجد نفسه ، في الموضوعات الدقيقة الشائكة ، التي تفتقر الى كثير من اللطف والحذر في التعبير ، مستغنيا عن التصريح بالتلميح ؛ وعن العبارة بالاشارة ...

اما الصعوبة ، فهي من جهة ان العلماء والفهماء لا يؤخذون بسحر الخطابة ، والسفسطات ، والاغاليط ، والمبالغات ، ولا يمشي الحال معهم بالبهلوانية ، والتطبيط ، والقفز من المعقول الى اللامعقول على قنطرة هوائية من المستحيل ، بل لابد للكلام ، معهم ، ان يعتمد على المنطق الصارم .

وبهذا المنطق الصارم سأحدثكم عن بعض جوانب النكبة ، وعن اسرائيل ، بلا غرور ، ولا غلو ، ولا خرط ، ولا اوهام ، ولا احلام .

من جوامع الكلم المروية ، عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

(ما هلك امرء عرف قدره) .

ومما اشتهر على السنة الناس من كلام الحكماء ، من عهد الاغريق ، قولهم (اعرف نفسك) .

ولكن اكثر الناس يحملون ، هاتين الكلمتين الذهبيتين الجامعتين ، على وجه واحد من النصيحة ، وهو ان يعرف الانسان جوانب ضعفه ونواحي عجزه . وقل ان يتبادر منهما الى الذهن ذلك المعنى الاعم الاوسع ، الذي نحن احوج اليه اليوم .

ان غفلة الانسان عن معرفة نفسه ، في حقيقة ضعفها وعجزها ، ليست اكثر ضررا من غفلته عن عرفان نفسه في حقيقة قوتها ، وقدرتها .

ويزداد هذا الضرر ضراوة واستشراء اذا كانت هذه الغفلة في حادث يتعلق بالجماعة او الامة :

لان للخور والتهلك واليأس ، عند صعقة البلية ، وبغتة النازلة ، عدوى سارية طاغية ، تنتقل من الضعفاء الى الاقوياء ، بل من السخفاء الى الحكماء ... ولولا ذلك لما تهلكنا ، كلنا ، امام المعركة المفاجئة حيارى ، مولولين ، يائسين ، قانطين ...

نكبة (احد) ، التي جرح بها النبي القائد الاعلى، فى قلب معقله ، هي معركة خاسرة ، ولم تكن نكبة الابد

وهزيمة (حنين) التي بقي ، فيها ، القائد الاعلى، وحده ، على سرجه ، لم تكن نكبة الابد .

وفتح الافرنج لبلاد الشام ، واستيلاؤهم عليها مدة قرنين ، لم يكونا نكبة الابد .

وفتح بغداد ، وتخريبها ، بعد قتل الخليفة المستسلم الذليل ، ووزيره الخائن ، لم يكونا نكبة الابد على شعب استطاع ان يصنع معركة (حطين) ، ثم استطاع ان يبيد ، ابادة ، جيوش المغول المتحالفة مع الافرنج فى (عين جالوت) .

وهزيمة (دمياط) و (المنصورة) ، التي كانت تحمل كل عناصر النكبة : بخيانة القائد ، وموت (الملك الصالح) ووضع الخلافة الاسلامية ، لاول مرة فى التاريخ ، فى حضن الجارية (الصالحية) ، وتقهقر الجيش ، وتضعضع الشعب ، لم تكن نكبة الابد ... وانحلت الازمة باسر (الملك العظيم) ، ووضعه فى دار القاضي لقمان ، غير (الحكيم) ...

واسر (الملك القديس) هذا ، فى المنصورة لم يكن ، نكبة الابد ، كما ان اسر فرانسوا الاول فى معركة (باقيه) ، التي خسر فيها ، على قوله ، (كل شيء الا الشرف) ، لم تكن نكبة الابد على شعب استطاع ، بعد ذلك ، بامد غير طويل ، ان يخلق (الملك الشمس) ، الذي تحكم بمقدرات اوربا والعالم .

واحتلال الالمان لباريس وفرنسا ، فى الحرب على شعب استطاع ، بعد ذلك بامد قصير ، ان يخلق بسمارك ، ويصنع معركة (سدان) ، ويأسر نابوليون الثالث ...

واحتلال الالمان لباريس وفرنسا ، في الحرب العظمى الثانية ، لم يكن نكبة الابد ، على شعب استطاع ان يخلق (ديغول) ، الذي بدأ طريدا شريدا ، وانتهى، اليوم ، لان يتحكم بمقدرات اوربا ، بل بمقدرات العالم .

واحتلال الاستعمار الاوربي ، فى القرن الماضي ، للهند ، واندونيسيا ، ومصر ، وسوريا ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، والسودان ، والجزائر ، وتونس، والمغرب الاقصى ، وليبيا ، اي للعالم العربي والاسلامي كله ، تقريبا ، لم يكن نكبة الابد ؛ بدليل أن هذه الاقطار كلها ، تتمتع اليوم بالاستقلال ، وتقعد مع تلك الدول المستعمرة ، على مائدة واحدة ، فى الامم المتحدة .

واحتلال الحلفاء فى سنة 1918 لاستنبول عاصمة الخلافة العثمانية ، ثم اذلال الشعب التركي ، الى الحد الذي سمح به الحلفاء ، المنتصرون على الرجل المريض، لليونان ، باحتلال ازمير واختراق الاناضول ، لم يكن نكبة الابد على شعب استطاع ان يخلق (مصطفى كمال) ، وينتهي ، بعد 27 سنة فقط ، الى ان يرى نفس الحلفاء ، الذين اذلوه ، يركعون امامه ، مستجدين منه ان يدخل معهم فى (حلف الاطلسي) .

فى معركة (المصير الابدي) للامم عناصر ثلاثة ، اساسية ، ضرورية ، يقوم عليها بقاء الامة :

الارض الكافية الوافية للبقاء .

العدد الكافي للبقاء .

الوحدة الفكرية الكافية لجمع القلوب .

وكل نقص ، فى غير هذه الثلاثة ، من علم ، وتصنيع ، وتسلح ، يمكن تلافيه مع الزمن .

فان قيل لكم ان امة على وجه الارض ، بل في تاريخ الارض ، قد اجتمعت لها هذه العناصر الاساسية الثلاثة ، اكثر مما اجتمع للامة العربية والاسلامية فلا تصدقوا ...

ومهما قيل لكم عن ضعف العرب والمسلمين ، وعجزهم ، وخورهم ، وتنازعهم ، وفشلهم ، وذهاب ريحهم الى الابد ، فلا تصدقوا ...

ان امة تبلغ ثلث سكان الارض ، وتملك ، فى سرة الدنيا ، اكبر واوسع واغنى واشرف رقعة ، متواصلة، غير متفاصلة ، تمتد من اقصى المغرب الى اقصى المشرق ، وتمتلك ثلاثة من اعظم انهار العالم الستة ، وتمتلك اطول سواحل البحر المتوسط ، وتتسلط على معابره الثلاثة ، وتمتلك البحر الاحمر بكامله ، وتنام على بحر من البترول ، لا تنتهي اغواره ، ولا تنضب آباره ، ويشد قلوب ابنائها كتاب واحد ، نحو ايمان واحد ، باله واحد ، واخوة واحدة ... (انما المؤمنون اخوة) — (اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار) — (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الاعضاء بالحمى والسهر) ليست هي بالامة التي تغلب وتقهر الى الابد ...

اما اسرائيل فلن يكتب لها البقاء ... لانه لم يكتب لها البقاء ...

يقول بعض الذين خلقوها انها وجدت لتبقى ...
وانا اقول : انها وجدت لتزول ...

لا أقولها مغرورا ولا موتورا ، ولا مدجلا ولا مهولا ، ولكني اقولها عالما بنواميس الاجتماع ، التي يبنى عليها وجود الامم ، وبقاؤها ، وزوالها ، بأمر الله، وحتمية التاريخ ...

دولة اسرائيل هذه لن تبقى فى فلسطين ، ولو اجتمع يهود العالم ، بملايينهم العشرة ، المتفرقين في اطراف الارض ، وجاؤوا كلهم الى فلسطين ، وحمل، كل واحد منهم ، مدفعا فى سيارة ، وصاروخا فى طيارة ...

وقبل ان اقول لكم لماذا لن تبقى دولة اسرائيل فى فلسطين ، امهد لكم بكلمة عن دولة اسرائيل فى التاريخ ، ودورها ، ونصيبها من البقاء، فى صراع ناموس تنازع البقاء .

ما هي دولة شاوول وداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ، اللذين نقرا عن امجادهما ، فى تاريخ الدين وتاريخ الدنيا ، صفحات ذهبية مشرقة ، تكاد قراتهما الخاطفة ، توهمنا انها دولة عظيمة ؟

انها دويلة ، بل اصغر من دويلة ، لا تتعدى حدود رقعة صغيرة ، من قطر فلسطين الصغير ، القاحل ، الضيق ، محصورة بين الامبراطوريات الفرعونية ، والكلدانية ، والاشورية ، والفارسية ، واخيرا الرومانية ، المتطاحنات فى حروب ، لا نهاية لها ، للسيطرة على العالم القديم ، الذي تقع دولة يهوذا في وسطه وقلبه وسرته ... فهي ، كدولة ذات كيان سياسي (وبقطع النظر عن الرسالة السماوية التي كانت ملقاة على عاتقها) لا تكفى ، بارضها ، وسكانها ، وهيكلها الذهبي ، ان تكون لقمة ، فى اشداق تلك الامبراطوريات ، التي تقوم على جوانبها من الشروق والغروب .

هذا من بديهيات الناموس الالهي الاجتماعي الذي يسمى ناموس (تنازع البقاء وبقاء الانسب) وهو الاقوى .

ولكن دولة شاوول وداود وسليمان قد وجدت، بتدبير الله ، كما يقول المؤمنون ، او بتفاعل النواميس الاجتماعية ، كما يقول الملحدون ، لغاية عظيمة استنفدت اغراضها ...

انها وجدت لحمل رسالة ، فى سبيل غاية سامية، يريدها الله ، ويريدها الناموس الاخلاقي ، الذي سيبقى مسيطرا على البشر ، مهما فسدت الاخلاق . وهذه الغاية هي : حماية الشعب الوحيد الباقي ، (بعد ابراهيم ونسله) ، على عبادة الله الحق ، من مظالم الوثنية الفرعونية ، والكلدانية ، والاشورية ، والفنيقية . وقامت هذه الدولة الصغيرة ، وازدهرت، فى عهد داود وسليمان ، على اساس مبادىء الحق والخير .

ثم فسد الشعب ، فخرج عن مبادىء الحق والخير ، بظلمه ، وترفه ، وقتلة الانبياء ، فخسرت الدولة سبب بقاءها الوحيد ، وخسرت الديانة مقومات صلاحها ، فارسل الله السيد المسيح ، صلوات الله عليه ، بالانجيل ، والدين الحق ، ليحل محل الديانة التي افسدها أهلها .

وسلط الله ، على الدولة الفاسدة ، من زلزلها ، وعلى الشعب الظالم الفاسق ، من مزقه ، وفرقه ، وشرده تشريدا لم يعرف التاريخ نظيره ، فى اي شعب من شعوب العالم : فكان الاجلاء الاول ، الى بابل ، على يد بختنصر ، وكان بعد ذلك هدم الهيكل والتشتيت الابدي ، على يد تيطوس الروماني ، الذي لا نزال نقرأ اسمه ، وذكرى نصره على اليهود ، منقوشين على قوس النصر المنصوب له فى روما .

وهكذا انتهت الديانة اليهودية ، المنسوخة بالمسيحية ، التي تبنت خيارها ، وابطلت شرارها ، لانه لم يبق مبرر لوجودها الهيا .. وانتهت الدولة الاسرائيلية ، لانه لم يبق لوجودها مبرر وهو : حماية الدين الحق ، والاخلاقية الكريمة .

وانتهى الشعب اليهودي ، كوحدة اجتماعية ، لانه لم يبق لوجوده اى مبرر الهي ، ولم يبق لبقائه ، كوحدة ، اى مبرر اجتماعي ، بحكم قلته وضعفه ، وبحكم (ناموس تنازع البقاء وبقاء الانسب) ، فتمزق الشعب فى الارض ، ابابيد ، وضربت عليه الذلة والمسكنة ، وعانى ، من ضروب الاضطهاد ، والقتل ، والحرق ، والتعذيب، على ايدي الكلدانيين ، والرومان، والاوروبيين ، ما لا يمكن ، عقلا ان يكون بلا مبرر رباني، او اجتماعي ...

بعد هذا التمهيد ، التاريخي والفلسفي ، عن دولة اسرائيل القديمة ، ارجع لاكرر لكم القول : ان اسرائيل الدولة الحالية فى فلسطين ، ما خلقت لتبقى.

اولا – لان كيان الدولة الاسرائيلية قد فقد مبررات وجوده ، الدينية ، والاجتماعية ، فاعطاها لغيره .

ثانيا – لان دولة اسرائيل ، الجديدة الاصطناعية غير الطبيعية ، التي فقدت مبررات وجودها التاريخية والاساسية ، هي بذاتها ، وبقطع النظر عن النظرة الدينية ، غير صالحة للبقاء ، بحكم ناموس القوة في تنازع البقاء ، لانها تفتقر الى العنصرين الاساسين من عناصر البقاء : وهما (الارض الكافية) ، (والعدد العديد الكافي) كما سبق البيان فى صدر الكلام .

ثالثا – لان هذه الدولة الاصطناعية غير الطبيعية ، قد وقع الفلاسفة ، الذين وضعوا نواتها ، فى سوء اختيار البقعة الصالحة لتكوين دولة يمكن ان يكتب لها البقاء ، بل وقعوا فى الفخ الذي نصبه لهم الاستعمار حين وافقهم على اختيار بقعة فلسطين ، بالذات ، لتاسيس الدولة الاسرائيلية الجديدة : فالاستعمار اراد ان يجعل اسرائيل شوكة فى حلق الامة العربية ، من غير ان يبالي بالمصيبة على من تقع من الطرفين (فبايهما جاءت فبالعدو ...)

ولو قدر ، للفلاسفة اليهود ، الذين وضعوا نواة الفكر لاعادة دولة اسرائيل ، ان يختاروا بقعة اخرى ، فى احدى بلاد الوثنية الافريقية ، مثلا لكان من الممكن ان تتكون لهم دولة اسرائيلية قابلة للحياة والبقاء ، حتى ولو كانت البقعة المختارة صغيرة وقاحلة مثل فلسطين ، لانهم ، فى جوار الوثنية ، سيوفقون ، من غير ريب ، الى نشر ديانتهم ، التي تظل ، مهما افسدها اهلها ، ديانة ذات اصل سماوي ، صالح للتغلب على شرك الوثنية . وبهذا يتمكنون من توسيع رقعة الدولة الى المدى الكافي ، ومن تكثير عدد اليهود الى المقدار الكافي ، فيكتمل لهم ، بذلك ، الشرطان الاساسيان ، اللذان بينا انه يقوم عليهما بقاء الامم الى الابد .

ولكن فلاسفة اليهود خدعوا انفسهم ، حين ركزوا انظارهم على جاذبية الدعاية الدينية ، التي يتاثر بها كل يهودي ساذج يقال له : انك سوف تحيي دولة داوود وسليمان فى نفس هيكل داوود وسليمان . فما لغباء الفلاسفة ما اغربه ...

هنالك قول مشهور لا ادري اهو من كلام الانبياء ، ام من كلام الحكماء يقول :

(اذا اراد الله انفاذ امر سلب من ذوي العقول عقولهم) .

وهذا ما يصدق على فلاسفة اليهود . انهم فكروا فى جاذبية الدعاية الدينية ، وغفلوا عن رد الفعل العنيف للدعاية الدينية ، نفسها ، عند المسلمين ، الذين يدخل فى صميم عقيدتهم ، تقديس المسجد الاقصى وما حوله ، والذين بذلوا فى الحروب الصليبية ، دماء غزيرة ، حتى استردوها ، والذين مضى على وجودهم التاريخي فيها اربعة عشر قرنا ، حتى رات الدول المسيحية العظمى ، التي هي اقدر على انتزاعها من ايدي المسلمين ، ان تحترم ذلك الاستقرار التاريخي المزمن ، فتركتها لهم ، بل تركت سدانة معابدها فى ايديهم ، حتى فى عهد الانتداب الانكليزي .

من كل هذا يظهر بوضوح ، ليس بعده وضوح ، ان خلق دولة اسرائيل ، فى ارض فلسطين الضيقة القاحلة ، التي لا تكفي ، بمساحتها وثروتها الطبيعية ، لتكوين دولة ، ومن شعب لا يكفي ، بعدده ، ولو اجتمع كله ، للصمود ، وفى وسط بحر من الامتداد العربي الاسلامي الهائل ، الذي وصفناه ، وفى اتون من نار الغيرة الدينية الاسلامية والمسيحية ، ومع التجاهل لاثر الحق الناتج من الاستقرار التاريخي ، كان خلقا اصطناعيا ، يحمل ، فى صدره عناصر زواله ، لانه لا يعتمد للوجود والبقاء على اي مبرر ، من المبررات الدينية ، والاجتماعية ، والتاريخية والارضية ، او العددية او الاقتصادية .

وان قيل لكم ان هذا الكيان الاصطناعي تحميه الدول الغربية الى الابد ، فلا تصدقوا لانه لا مبرر طبيعي واساسي لحماية هذا الكيان الى الابد .

فالحماية اما ان تكون للعاطفة ، واما ان تكون للمصلحة .

اما العاطفة فلا عاطفة ... وتاريخ الاوروبيين مع اليهود هو سلسلة من القتل ، والذبح ، والخنق ، والحرق ، ومن هذه المآسي ، التي وقعت فى اوربا على اليهود ، ابتلي الشمال الافريقي المسلم بهذا العدد الكبير من اليهود ، الذين فروا اليه ، ليامنوا على ارواحهم واموالهم ، وما زالوا آمنين ، حتى بعد المذابح التي وقعت على المسلمين فى (دير ياسين) ... وبعد العدوان الاسرائيلي الاخير ... وهذا من مفاخر دين الاسلام ، الذي يمنع الاعتداء على اي انسان ما دام غير محارب .

وتبقى المساعدة للمصلحة . وهذا هو الواقع . فالدول الاستعمارية ، التي خلقت دولة اسرائيل ،

لتكون شوكة في صدر الامة العربية،انما خلقتها لمصلحة سياستها الاستعمارية والبترولية ، ولم تخلقها للعاطفة . وستظل تحميها ما دامت لها مصلحة في حمايتها ... فاذا قيل لكم انها سوف تحميها الى الابد فلا تصدقوا ، عما في سياسة المصلحة شيء ثابت الى الابد ...

هذه حقيقة يؤيدها المنطق ، ويؤيدها التاريخ .

فمن بعد الحروب الصليبية الى اليوم ، لم تحصل ابدا ، من دول اوربا حروب على المسلمين لمجرد فكرة نشر الدين المسيحي ، بل كانت الحروب كلها ، للاستعمار والمصلحة . واذا كانت هذه الدول المستعمرة تسمح للتبشير ان يلعب دوره ، فانما تسمح له ليساهم في معركة الاستعمار ، سماحا سياسيا ، يقصد به ارضاء الجهات المسيحية التي يهمها امر التبشير ، ويقصد به من جهة ثانية اضعاف الحبل ، الذي يشد وحدة المسلمين ، ويقوي فيهم روح المقاومة للاستعمار .

فالمصلحة السياسية والاقتصادية تكاد تكون ، وحدها ، المنطق الاساسي الرئيسي لاستعمار البلاد العربية والاسلامية ... والمصلحة السياسية والاقتصادية ، هي ، وحدها ، المنطلق للتخلي عن البلاد العربية والاسلامية ، واعطائها استقلالها .

واذا كان هذا واضحا ، فاوضح منه ان مساعدة الغرب لاسرائيل تنطلق من المصلحة السياسية ، وليس من حب اليهود ، او لتأييد الديانة اليهودية ...

واذا كان هذا مقررا ، وظاهر البداهة ، فانني اطرح الاسئلة الاتية :

هل التخلي ، عن تونس والمغرب والجزائر ، اعظم واوجع ، في ميزان المصلحة الاستعمارية الافرنسية من التخلي عن مساعدة اسرائيل ؟

وهل التخلي عن الهند الدرة في التاج البريطاني اعظم واوجع ، في ميزان المصلحة الاستعمارية الانكليزية من التخلي عن مساعدة اسرائيل ؟

الجواب واضح وبديهي .

ومع ذلك فانه بحكم سياسة المصلحة لفرنسا وانكلترا ، وبقوة تيار السياسة الدولية العامة ، اجبرت فرنسا وانكلترا على ترك هذه المستعمرات العزيزة الغالية .

هذه السياسة الدولية العليا ، التي تتفاعل على الارض ، فترغم الجبابرة على ان يتخلوا عن جبروتهم وطغيانهم ، بحكم تدافعهم ، هي الناموس الاجتماعي ، الذي عبر عنه القرءان بقوله (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) .

وبقوة هذا الناموس يقوم التوازن الدولي بين الغرب والشرق اليوم ...

وبقوة هذا الناموس ارغمت ، فرنسا وانكلترا وهولاندة وايطاليا ، على ترك اعز واعظم مستعمراتها .

وبقوة هذا الناموس دفن الانكليز والفرنسيون اربعين الف عسكري ، من شبابهم ، امام حصون سيفا ستابول ، ليردوا روسيا المسيحية عن تركيا المسلمة ...

وها هو الناموس الالهي نفسه يعود ، ليتجلى من جديد في سياسة الدولتين الاوربيتين ، اللتين هاجمتا بورسعيد ، بالاشتراك مع اسرائيل ، من عهد قريب .

فمن الذي كان يصدق ان ميزان السياسة في فرنسا سيتحول عن اسرائيل ، ويميل نحو العرب ؟

ومن يصدق ان ميزان السياسة العميقة في انكلترا التي خلقت اسرائيل ، يتحول ويميل نحو العرب ، ميلا بدات خيوطه الخفية تلوح للعيون القوية، في ظلمة الاسبوع الاول من النكبة ؟ .

قد اكون متوهما ، وقد تكون هذه الرقصات في بارومتر السياسة من نوع الخداع ، الذي تعودناه ... ولكني احب التفاؤل من غير اتكال ولا تواكل ... وافضل ان ارد على التبسم بالتبسم فان كان خصمي صادقا زدته صدقا . وان كان كاذبا قطعت عليه طريق العذر في مخاصمتي ، امام الراي العام في بلاده نفسها ، بل عند الراي العام العالمي ، الذي لا يخلو ، مهما تالبت الدعاية الصهيونية ضدنا ، من بعض قلوب طاهرة ، ونفوس كريمة ، وعقول نيرة ، رايناها تساعدنا وتساندنا في محنتنا مع الاستعمار ومع اسرائيل ، وتستطيع ، على قلتها ، ان تؤثر ، بعض التاثير ، في تحويل بعض جوانب التفكير للراي العام الغربي المسيحي .

والا فمن منا كان يتوقع ان نسمع ، في عيد الميلاد المجيد ، من سيد احبار النصرانية هذه النغمة الكريمة الحلوة في الحث على التعاون بين المسيحية والاسلام ؟

وتبقى امريكا . وسوف يأتي دورها وتنقشع الغشاوة الصهيونية عن عيون الشعب الامريكي ، الذي لا يخلو من قلوب كريمة ، وعقول نيرة ترتفع احيانا فوق الدعايات وفوق الرواسب .

في العالم ثلاثة مدارات تصلح للبقاء الابدي ، لان لها كل مقومات البقاء التي ذكرناها .

المدار المسيحي ، والمدار الاسلامي ، والمدار الصيني الوثني . وليس ببعيد ذلك اليوم الذي سيقول به الشعب الامريكي :

يا ويلنا من الخطر الاصفر ...

وليس ببعيد ذلك اليوم الذي ستقف به امريكا المسيحية تستجدي مساندة المدار الاسلامي ، المؤمن ، في حربها مع الوثنية الصفراء .

هذه المعاني كلها بحذافيرها قد ارتضت لها نفسي ، منذ اسبوع النكبة ، ونفثت بعضها في اسماع الناس الذين كاد ايمانهم ان يتزعزع ، في خطبة اول جمعة بعد الاثنين المشؤوم .

وذهبت الى المغرب الاقصى ، وتلاقيت مع وفود من علماء العرب والاسلام، وكانت احاديث، ومحاورات، ومجادلات فعدت اكرر هذه المعاني لاحيي بها امل اليائسين .

ونضجت هذه المعاني في ضميري من كثرة ما تخضخضت في راسي وعلى لساني .

وكانت سفرة الى طنجة ... وقفنا على مشارف الاندلس ، وعاد الى القلب الكسير حنينه ...

وتهافتت على العقل العبر ، كما تهافتت على العيون الدموع والعبرات ،فكانت تلك القصيدة(1)، التي تحمل اكثر تلك المعاني ...

ان الشعر ابقى على الدهر ، واهون على الذكر . واني ، على ان تذكروني ، وتترحموا علي لحرص ، جد حريص ...

لبنان : نديم الجسر

---

1) نشرت القصيدة في العدد الماضي .

الاسلام والمرأة :
عقد أسطورية وموروثة حررنا منها :
كتاب الاسلام

للدكتورة : بنت الشاطيء

ما يزال فهمنا لكتاب ديننا ، تشوبه شوائب دخيلة عليه من اسرائيليات مدسوسة واسطوريات موروثة ، وما يزال علينا ان نجاهد طويلا لكي نحرر هذا الفهم مما داخله من عناصر مقحمة على القرءان الكريم ، بعيدة عن روح تعاليمه وهداه ، ونصوص آياته المحكمات .

* * *

واعرض في هذا المقال ، بعض تلك الاسطوريات والموروثات التي حررنا منها كتاب الاسلام ، مع لفتة الى ما اضفى على المراة من حماية وحرمة تفتقدهما في هذا العصر الذي يزعمون انه عصر تحرير المراة .

* * *

كتاب الاسلام هو الذي حررنا من عقدة الذنب التي ظلت تلاحق جنسنا من بدء الخليقة ، وتتهم اول انثى على الارض بانها بدات حياتها بالغواية وكانت ذريعة الشيطان لاغواء آدام واخراجه من الجنة . وقد ظلت هذه اللعنة تطاردنا جيلا بعد جيل ، حتى قرات كتاب الاسلام فتحررت من هذه العقدة ، لانه ابرانى من لعنة اغواء آدم ، ولم يقل قط ان زوجه كانت ذريعة الشيطان اليه ، واتلو من سورة طه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

صدق الله العظيم

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى ، فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظما فيها ولا تضحى ، فوسوس اليه الشيطان قال ياآدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى » .

* * *

وحررني الاسلام كذلك من الفكرة الممسوخة التي صورت لاجيال من امهاتنا ، ان المراة مخلوقة هامشية من ضلع الرجل ، وشتان بين المخلوق الكامل الاصيل ، وبين مخلوقة منتزعة من جانبه او ضلعه ، لا ادري .. !

وليس في كتاب الاسلام ان المراة مخلوقة من ضلع آدم ، وانما الذي فيه انه تعالى خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، واتلو من كتاب ديني :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا

ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » .

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فمن أين جاءت حكاية الضلع هذه وليس في القرآن كله اشارة اليها من قريب او بعيد ؟

ارجح انها من الاسرائيليات التي روجها من أسلموا من اليهود في عصر المبعث . وقد دخلت كتب التفسير وظن كثير أن لها ما يؤيدها من حديث رووه، اوصى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بالترفق في معاملة النساء وشبههن بضلع ان انت حاولت تقويمه بالشدة كسرته . وقد تأولوا الحديث على معناه الحرفي ، وما أراه الا من البيان المجازي ، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام : « رفقا بالقوارير » فهل يتأولونه بأننا ، معشر النساء ، خلقنا من زجاج القوارير ؟

* * *

المرأة في الاسلام مخلوق كامل ، خلقت والرجل من نفس واحدة،وحقها في الحياة يتقرر بحكم انسانيتها وليس منحة من غير خالقها ، ولا هو متوقف على كونها تلد او لا تلد ، تنجب ذكورا او لا تنجب .

وقد غبرت عصور والمجتمع يهدد حق المرأة في الحياة اذا لم تلد ، وينبذها اذا لم تنجب الذكور ، وما تزال الامهات منا يعانين من مثل هذه العقدة الموروثة ، وما يزال في مسمعي صدى من اغنية شعبية روعت مهدنا وارقت صبانا . تقول الاغنية على لسان ام :

لما قالوا دا غلام
انشد عظمي وقام
وجابوا لي البيض مقشر
وعليه الدهن عام

* * *

ولما قالوا دي بنيه
انهر ركن البيت عليه
وجابوا لي البيض بقشره
وعليه الدهن ميه !

والتقط سمع الزمان من تاريخنا الادبي ، ما سجله « الجاحظ » في « البيان والتبيين » من شكوى ام هجرها زوجها الى بيت جارتها ، غضبا عليها ان لم تلد ذكرا :

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان الا نلد البنينا
تالله ما ذلك في ايدينا

عقدة موروثة ، لم تنج منها مريم المصطفاة :

« اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك انت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها انثى ، والله اعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

وكتاب الاسلام قد حررنا من تلك العقدة الموروثة ، وحمى الانثى ساعة مولدها من ذلك الاستقبال البغيض ، واتلو من كتاب ديني :

« واذا بشر احدكم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، ايمسكه على هون ام يدسه في التراب ، الا ساء ما يحكمون » .

* * *

وكانت العصور الخالية تتصور ان المرأة لا تملك عفتها ، ومن ثم راحت تحكم عليها الابواب والاقفال ، وتقيم الحراس الذين يحمون فضيلتها وشرفها . وقد غاب عنهم ان فضيلة المرأة بيدها ، وقد كانت دائما ، حتى في احلك العصور ، تملك عفتها رغم الاقفال الموصدة والحراس الاشداء والابواب المحكمة .

وكتاب الاسلام قد حررنا من تلك العقدة الموروثة ، وقرر مسئولية المرأة عن سلوكها وفضيلتها، وشرفها بتبعة التكليف شرعا . فهي مكلفة كالرجل سواء بسواء ، تحتمل تبعة عملها خيرا او شرا ، وتلقى جزاءه ثوابا او عقابا ، والقرءان الكريم فيما نتلو آياته المحكمات :

« من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

« الا تزر وازرة وزر اخرى ، وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

فليس اب او زوج او اخ بالذي يحمل عن احدانا تبعة عملها ، وانما تحتملها كاملة بالاصالة ، ولو سرقت

فاطمة بنت محمد لقطع محمد ، عليه الصلاة والسلام، يدها . واتلو من كتاب الاسلام :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امراة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكانت من القانتين » .

والاسلام لم يحرر المراة من تلك العقدة الموروثة فحسب ، بل صان سمعتها وشرفها بسياج منيع من الحصانة والحرمة ، فحين يبتذل ناس سمعة الحرائر المحصنات الغافلات ، ويخوضون في اعراضهن بمثل البساطة التي يتحدثون «بها عن سمر الحضر وفكاهات الموسم ، نتلو آيات النور :

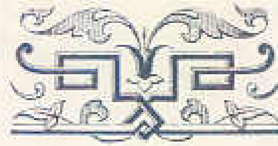
« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون » .

الى قوله تعالى :

« ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والاخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون » .

صدق الله العظيم

د. عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطيء)
استاذة بجامعة عين شمس



العلوم في الحديث النبوي

للمرحوم الأستاذ محمد السائح

كتب كثيرون عن العلوم فى القرءان الكريم ، وليست هذه الناحية غفلا في كتب السنة ، وقد كتب المرحوم محمد السائح بداية لبحث فى الموضوع لم تمهله الايام لتفصيله وتركيزه . وننشره في مجلة (دعوة الحق) كوثيقة لهذا العمل .

(الهندسة)

روى الشيخان ان النبي صلى الله عليه وسلم قال فى الحوض (زواياه سواء) والزوايا جمع زاوية وهي ما يحصل من تلاقي خطين من داخله وهو يقتضي انه مربع متساوي الاضلاع مستقيمها ، وقال ، نعم موضع الحمام هذا ، (انظر ابن سلطان ، ص 265 ج3)

(الحساب)

قال صلى الله عليه وسلم فى المعقبات ان الحسنة بعشر امثالها فتلك مائة وخمسون على اللسان والف وخمسمائة فى الميزان ، رواه ابو داود وابن ماجة . قال ابن سلطان ، وهذا استدلال من المصنف يعني القاضي عياض على معرفته صلى الله عليه وسلم بالحساب وهو بالنسبة لمقامه وحدة ذهنه امر سهل، ومن هذا الباب قال علي فى مسالة الارغفة ، روى الحافظ جمال الدين المزني فى تهذيبه عن زر بن حبيش (ص 204 ج 2 هامش المسند) ، قال جلس رجلان يتغديان ، أحدهما معه خمسة ارغفة ومع الاخر ثلاثة أرغفة ، فلما وضع الغداء بينهما مر بهما رجل فسلم فقالا اجلس للغداء فجلس وأكل معهما واستووا في اكلهم الارغفة الثمانية ، فقام الرجل فطرح اليهما ثمانية دراهيم وقال خذوها عوضا عما اكلت لكما ونلته من طعامكما فتنازعا ، فقال صاحب الخمسة الارغفة لي خمسة دراهم ولك ثلاثة ، وقال صاحب الارغفة الثلاثة لا ارضى الا ان تكون الدراهيم بيننا نصفين فارتفعا الى امير المؤمنين فقصا عليه قصتهما ، فقال لصاحب الثلاثة قد عرض عليك صاحبك ما عرض وخبزه اكثر من خبزك فارض بالثلاثة ، فقال والله لارضيت الا بمر الحق ، فقال علي ليس لك فى الحق الا درهم واحد وله سبعة دراهيم ، فقال الرجل سبحان الله ، قال هو ذاك ، قال فعرفني الوجه في مر الحق حتى اقبله ، فقال علي اليس الثمانية الارغفة اربعة وعشرين ثلثا ، اكلتموها وانتم ثلاثة انفس ولا يعلم الاكثر منكم ولا الاقل فتحملون فى اكلكم على السواء . فاكلت انت الثمانية اثلاث وانما لك تسعة اثلاث ، واكل صاحبك ثمانية اثلاث وله خمسة عشر

اثلاثا ، واكل منها ثمانية وبقي سبعة ، واكل لك واحد من تسعة ذلك واحد وله سبعة ، فقال الرجل رضيت الان .

وجوابه في المسالة المنبرية كذلك مشهور في كتب الفرائض واخرجه البيهقي في سننه كذا تلقيه في بعض الاثبات ، وعنده جواب في الدينارية الكبرى وهي معلومة في كتب الفرائض ايضا ونظمها هو :

وصالحة جاءت عليها لتشتكي
شريحا تنادي الظلم شرا واجهارا

فقالت اخ لي نصف الف وخمسها
توفي فاعطاني في الكل دينارا

فقال على مات عنك وزوجة
وبنتين مع ام اتى الخير مدرارا

ومثل شهور العام خلف اخوة
لحظك ما اعطى شريح وما جارا

ونسب القصيدة في طبقات الشافعية للامام الشافعي ، ولا يبعد التعدد

الشركة	600
البنات	400
الام	100
الزوجة	075
اثنا عشر اخا واختا	25
	600

روى الترميذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبلة ، وهو بلا ريب خاص بأهل المدينة ، ومن كان على سمتهم فمن كانت قبلته جنوبية ، وكذا من كانت قبلته شمالية ، وقد اخذ بعمومه جمع من اهل العلم وهو منشأ ما وقع من الانحراف في كثير من المحاريب القديمة بعلم هذا من كتاب التاجوري وغيره ، وينبيء بهذا الخصوص حديث ابي ايوب : اذا اتى احدهم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولي ظهره ولكن شرقوا او غربوا .

علم الجغرافيا

من اصول هذا الفن كتاب عمر بن الخطاب يصف له فيه جغرافية مصر الاقتصادية ، وهو قيم .

علم الفقه

القضاء الشرعي . (انظر اقضية الرسول) . (وزاد المعاد لابن القيم) .

علم الاصول

الجمع المعرف باللام او الاضافة للعموم . فانكم اذا قلتم ذلك اصاب كل عبد الله صالح في السماء والارض (الجمع بين الدليلين (كلاكما قتله (القياس) ارايت ان كان على ابيك دين اكنت قاضيه .

(انظر اعلام الموقعين (هل فيهما من اوراق ، لعله عرق نزعه .

وقد نهى عمر رضى الله عنه عن فتح منازل السويس لئلا تتخذ الروم منه طريقا الى الحجاز (1) وهذا النهي يدل على تمكنه من معرفة جغرافية بلاد العرب والروم برا وبحرا . وقد اذن في فتح الخليج المسمى بخليج امير المؤمنين نسبة اليه لتيسر نقل الميرة منه الى المدينة . والحديث عنه شهير فانظروا في (حسن المحاضرة للسيوطي) .

علم التاريخ

في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع للناس ، فقال : مكة ، قيل ثم اي ، قال : بيت المقدس ، قيل : فكم بينهما ، قال : اربعون سنة ، وقد استشكل هذا بان الكعبة من بناء ابراهيم ، وبيت المقدس من بناء سليمان . وما بينهما يئيف على الالف ، واجاب ابن خلدون بان المراد بالموضع التعيين للعبادة لا البناء ، ولا يبعد ان يكون بيت المقدس . (ص 297 في المقدمة) .

الاجتهاد

اجتهاده صلى الله عليه وسلم امور على ظاهرها قياس ، او استنباط من القرءان الكريم ، هل تحمل على الاجتهاد او هي بوحي خاص . (انظر الموافقات للشاطبي) .

الشعر

جاء مدح الشعر في غير ما حديث ، وقد تمثل به النبي (ص) وكان اصحابه ينشدونه بينهم فيبتسم ،

واجاز كعب بن زهير على مدحته ورق لسماع شعر قتيلة ، وبكى حتى اخضلت الدموع لحيته ، وقال تعلموا الشعر فان فيه محاسن شتى ، وقبل الشعر ديوان العرب .

الرياضة الشرعية

المسابقة على الخيل والابل :

في البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم بين الخيل المضمورة وبين التي لم تضمر ، وبين الابل واخرج احمد في المسند عن ابن عمر ايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل وراهن ، وفي الحديث الاسبق الا في نصل او خف او حافر . قال القرطبي لا خلاف في جواز المسابقة على الخيل وغيرهما من الدواب ، وعلى الاقدام وكذا الترامي بالسهام ، واستعمال الاسلحة لما في ذلك من التدريب على الحرب .

المسابقة على الاقدام

حديث مسلمة بن الاكوع في المسند ص 53 ج 4.

المصارعة

انظر الخصائص الكبرى ص 129 .

التدريب على الرماية والانتضال

وردت فيه احاديث .

لباس الجبة الرومية والخف الاسود للاستعانة على الحربات العسكرية

فيه حديث المغيرة في الصحيحين .

السباحة

وردت فيه احاديث .

علم الطب

الاحاديث في الطب كثيرة ، وقد خصصها ابن طرخان الحميري بتاليف سماه الاحكام النبوية في الصناعة الطبية . (انظر ابن حجر) — دعوى ابن خلدون ان طب العرب بني على التجربة ، ويرد عليه بأن منهم من تلقاه في الجامعات .

مراعاة الطب في الطعام

كان الرسول يجمع بين القثاء والرطب ، وحديث من هذا فأصب (الترمذي) .

سبب انتشار الاوبئة ، وفيه البحث عن اسباب المرض

في الصحيح عن عائشة ، قالت : فقدمنا المدينة وعلي اوبا أرض الله فكان بطحان يجري نجلا (تعني ماء آجنا) .

استصلاح التربية والهواء

سأل صلى الله عليه وسلم فروة بن مسيك رضي الله عنه ، فقال يا رسول الله انا بارض يقال لها ابين ، وهي ريفنا ومربعنا ، وهي وبيئة ، او قال وباءها شديد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعها عنك فان من القرب التلف ، قال ابن القيم فيه دليل على نوع شديد من انواع الطب ، وهو استصلاح التربة والهواء كما ينبغي استصلاح الماء والغذاء ، فان بصلاح هذه الاربعة يكون صلاح البدن واعتداله . (ص 558 ج 3 اعلام الموقعين) .

ذكر الاحياء الدقيقة المسماة عرفا بالميكروب

في حديث ابن ابي الدنيا ، خلق الله الجن ثلاثة اصناف ، صنف حيات وعقاريب وخشاش الارض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الحساب والعقاب . (انظر منتخب كنز العمال ص 455 ج 2 بهامش المسند) ، (انظر كتاب علم الصحة ص 5) .

وقد اطلق الشيخ رشيد رضى على هذه الاحياء الدقيقة اسم الجن ، والحديث يشهد له فيما نرى ، اذ من المعلوم ان من هذه الاحياء ما ينتشر في الهواء من المستنقعات ويصعد مع بخار الماء ، (الطنطاوي ج 2 ص 17) ، وقد ذكروا أن من الميكروب ما يملا مدينة في اسبوع ، كمكروب الحصبة والجدري ، ومن المعلوم ان هذه الاحياء كثيرة الوجود لحد مدهش ، ولها أثر عظيم في الابدان والنباتات وغيرها ، ويبعد ان لا تقع اليها اشارة في السنة ولو بطرق خفي ، كما يظهر في انه وقعت الاشارة اليها في قوله جل علاه : « سبحان

الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » .

قانـــون المنـاعــــة

انظر كتاب العلم الحديث وكلام ابن طرخان .

علم الفسيولوجي والبيولوجي

وردت احاديث كثيرة في اطوار الجنس وامـــر ملك الرحمة باربع كلمات ، فكتب رزقه واجله وعمله ، وشقي او سعيد .
(انظر سبك الذهب اللجين) .

علـــم البيداجوجـي

نشر العلم والادب والاخلاق

حديث : ما نحل والد ولدا من نحل افضـــل من ادب حسن ، (انظر التاج) ، معاشرة الناس ، (انظـــر كتاب البر والصلة في الجامع (كتاب نشر العلم) .

اصل الحياة من الذكــر

انظر كتاب سبك الذهب واللجين

ممن يكـون الشبـــــه

ظهور الشبـــه ولـــو في نســـل غيـــر مباشـــر ، (انظـــر البخـــاري) .

ظهور أثر الوراثة ولو في نسل غير مباشر

ضعف عقل المراة ونقصانه عن عقل الرجل

مـن علـــم النبـــــات

فيه قوله صلى الله عليه وسلم في تلقيح النبات ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه :

تكثير الغراسة وتحسين المناظر وانشاء مشاريع الري وتكثير المياه .

دخل رجل على عثمان بن عفان وهو يغرس غراسا فقال له : يا امير المؤمنين ، الغرس وهذه الساعة قد جاءت ، فقال : تاتي وانا من المصلحين ، خير واجب الي من تاتيني وانا من المفسدين . (ابن جرير ، منتخب ج 2 ، ص 128) .

كان صلى الله عليه وسلم يعجبه النظر الى الخضرة والى الماء الجاري .

كان صلى الله عليــه وسلم يعجبه النظر الى الاترج (انظر الجامع الصغير) .

تعلـــم اللغات الاجنبية للحاجة

حديـــث يزيـــد بن ثابـــت .

اول المخلوقـــــــات

في حديث عمر ابن حصب ، وسؤال عمران عن اول المخلوقات (في الصحيح) .

وفي ابي ماجه اول المخلوقات الغمام .

وفي حديث اصل المخلوقات الماء (الجامع الصغير) وانظر قصة الفلسفة الحديثة .

حديـــث السيـــــارات

ومن الارض مثلهن (في كل ارض خلق من خلقه وامر من امره (انظر الالوســـي) ، خلـــق الله سبـــع اراضي (الحديث) ، انظر الالوســـي في قوله تعالـــى : « وما بث فيهما من دابة » .

ارتباط العالم السفلي بالعلوي

انظر سفية الراغب

في جامع الترمذي عن ابي هريرة مرفوعا : من احتجم لسبع عشرة من الشهر وتسع عشرة واحدى وعشرين كان له شفاء من كل داء ، (وفي كنز العمال) الحجامة تكره في اول الهلال ولا يرجى نفعها حتـــى ينقص الهلال ، عن ابي حبيب عن عبد الكرم معضلا ج 4، وانظر شـــرح الشفـــا .

من علـــم الانـواء والجـو

اذا نشات بحرية ثم تشامت فتلك عين غرنــة .

البحث عن الآثار القديمة واستخراج الدفائن

جاء رجل الى النبي (ص) فذكر له انه رأى السد فقال له (ص) هل تستطيع ان تصفه ، فقال كأنه بمجرد محبر . فقال رأيته ، والرحلة الى المدينة ، فقد كان يرحل فيما دونها .

الاحتفاظ بالآثار القديمة

فيه استخراج العمود او الغصن من الذهب من قبر ابي رغال (المنتخب ج 5 ص 298) ، وحفر المامون للاهرام ووقوف العرب على قلم الطير الهريقليفي .

البعثات العلمية

بعثته (ص) لتعلم الدبابات .

العناية بالآثار

فيه الاحتفاظ بالجرس (انظر سنن المهتدين) .

في التجارة

عليكم بالبز فان صاحب البز يعجبه أن يكون الناس بخير ، وفي خصب وهو عن ابي هريرة سأل رجل النبي (ص) بما تأمرني ان اتجر ، قال وذكر الحديث (انظر المنتخب ج 2 ص 16)

الحث على العمل والاحتراف

تقبيل صلى الله عليه وسلم يد سعد بن سعاد الانصاري المحترف (انظر الاصابة)

قال عمر اني لارى الرجل فيعجبني فاقول : اله حرفة ، فان قال لا ، سقط من عيني (الدنيوري) .

ولقي عمر ناسا من اهل اليمن ، فقال : ما انتم ؟ قالوا متوكلون ، فقال : كذبتم ، فما انتم متوكلون ، انما المتوكل رجل القى حبة في بطن الارض وتوكل على الله، (الحكيم وابن ابي الدنيا في التوكل) ، (والعسكري في الامثال) ، (والدنيوري في المجالسة ص 216) ، ان الله يحب العبد الكاسب ويبغض البطال ، (الجامع الصغير) .

الاكتساب بالفلاحة والزرع والنتاج

خير مال المرء مهرة مامورة ، او سكة مابورة ، (رواه احمد) .

دخل رجل على عثمان بن عفان وهو يغرس غراسا فقال له يا أمير المؤمنين ، الغرس وهذه الساعة قد جاءت ، فقال : تاتي وانا من المصلحين ، خير واجب الي من تاتيني وانا من المفسدين . (ابن جرير ، منتخب ج 2 ، ص 128) .

العمارة والبناء

ارفع بنيانك وسل الله السعة ، مع النهي عن الغلو في البناء ما لم تدع اليه الحاجة .

الحمى .

فيه حديث حمى النقيع ، وموت عمر في آخر الموطأ .

أحسن التجارة وفضل الصدق فيها

سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم بما تأمرني ان اتجر ، فقال : عليك بالبز ، فان صاحب البز يعجبه ان يكون الناس بخير وفي خصب .

الرباط : المرحوم محمد السائح

الشخص في الاسلام :

وضع المرأة (2)

الثاني

للعميد : محمد عزيز الحبابي

ان المرأة تقرن بالرجل ، كلما خاطب الله الناس، وها مثالان من بين عشرات اخرى :

« ان المسلمين والمسلمات ، والمومنين والمومنات، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، اعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما ». (33 : 35) .

والسنة ، كذلك ، تضم كثيرا من امارات العناية بالمرأة ؛ نذكر منها خطبة الوداع حيث نجد عدة مقاطع هامة تتصل بموضوعنا :

« أما بعد ، ايها الناس !

فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا . لكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم احدا تكرهونه (1) ، وعليهن الا يأتين بفاحشة مبينة (2) . فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح . فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيرا ! فانهن عندكم عوان، لا يملكن لانفسهن شيئا ، وانكم انما اخذتموهن بامانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله (...)

اتقوا الله في النساء ، وعاملوهن بالمعروف (...)

ايها الناس !

اسمعوا قولي واعقلوه . تعلمن ان كل مسلم اخ للمسلم » (3) .

* * *

كذا تعلي « خطبة الوداع » من شان المرأة ، بيد ان الرجال ، وباللاسف ! كثيرا ما كانوا ، في معاملتهم لها ، انانيين يستأثرون بالامتيازات . حقا ، يلاحظ ان ذلك التعسف ظاهرة عرفتها الانسانية على ممر تاريخها واختلاف اديانها ، فليست من خاصيات العالم الاسلامي . فبما ان كل الفقهاء الا من ندر ، هم من الرجال ، فقد اولوا معطيات المشاكل حسب منظار الرجل اكثر من اللازم .

---

1) يدل **الفراش** ، كذلك ، على الشرف والشهرة . يعضد هذا الحديث الذي يطلب فيه من المومن ان لا يقف موقف الشبهات .

2) **الفاحشة** ، هي الكلمة الخاصة بالفقه . فاستعمالها هنا يعضد مفهوم كلمة « فراش » في التعليق السابق .

3) عن **سيرة ابن هشام** ، ج 3 ، ص 1023 ، تحقيق م. محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، 1963 .

رغم ذلك ، ان وضع المسلمة وضع تحرري ممتاز ، اذا قورن بما كانت عليه المراة العربية في الجاهلية ، او المراة عند الشعوب القديمة « العريقة في المدنية » .

مرت قرون على (أثينا) والمراة لا تعتبر الا بضاعة من البضائع تستعمل في المقايضات المختلفة . وكان للروماني الحق في ان يقتل زوجته ، وعبيده ، واماءه ، وسمح القانون بتعدد الزوجات ، مع اسناد سلطة تسيير القطيع النسوي الى الزوجة الاولى . ونجد في تاريخ الفرس نظاما اكثر تعقيدا من نظام الرومانيين . فاذا رغب الفارسي في نكاح امه ، او اخته ، او عمته ، او خالته ، لم يكن يجد اية معارضة من القانون او من اي احد . وقد ساد الاعتقاد بان الدم نجاسة ، لذا ، كلما حاضت المراة اضطرت الى الانعزال كي لا يقترب منها احد ، لانها دنس يحرم عليها مس اي كائن ممن يحيط بها .

❋ ❋ ❋

نواجه الان مشكلا آخر . بما ان المراة مساوية للرجل ، من الجانب الانطولوجي ، ايمكنها ان تكون نبية ؟

انها مشكلة وضعت ، اكثر من مرة فيما مضى ، فاكد كثير من علماء الاسلام المرموقين انه قد اوحى الى نساء . ولم لا يجوز ذلك ؟ فبعضهن لم يكن ملهمات فحسب ، اذ هذا شيء طبيعي ، ولكنهن ارتفعن الى درجة عليا من النبوة . وتدعيما لهاته القولة ، يورد ابن حزم آيات من القرءان ، ويعطي اسماء نساء أوحي اليهن ، مثل (أم اسحاق ، وام موسى ، ومريم أم عيسى) (1) .

فليس من تبرير يجعل النبوة امتيازا خاصا بالرجال . اليست النساء ، عند الله ، شقيقات للرجال؟ فلن تكون ابدا قابلية الاكتمال خاصة بالرجال : ان للمراة ، مثل ما للرجل ، من الامكانيات في العمل على التجاوز الذاتي (2) .

❋ ❋ ❋

قضية مساواة المراة بالرجل نقطة ارتكاز في كل اتجاه شخصاني ، لذا نرانا ملزمين بأن نتفحصها من جوانب مختلفة .

تتساوى المراة مع الرجل ، كامل التساوي ، **من حيث التركيب البيولوجي** ، كما وضحناه سابقا(3) . ونضيف ، الى ذلك ، آية قرءانية نقلتها بينة لا تبقي مجالا للريب :

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم جعلكم ازواجا » (35 : 11) .

كذلك التساوي **من حيث التكوين السيكولوجي:**

« ومن آياته ان خلق لكم ، من انفسكم ، ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . (30 : 31) . فالخلق قد حصل ، من **نفس واحدة** ، ليتكامل الزوجان ، فبنى الله علاقاتهما على الحب ، اي على « المودة والرحمة »، وهي امتن واعمق عروة بين شخصين .

وتتميما لهذه المعاني ، نأتي بالآية الاولى من السورة 4 :

« يا أيها الناس !

اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ،

وخلق منها زوجها ،

وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .

واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام .

ان الله كان عليكم رقيبا » .

يطلق « زوج » على الذكر والانثى (الرجل والمراة) ، كما تنص عليه الآية ، في خطاب موجه لآدم: « وقلنا يا آدم : اسكن انت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا ! » (1 : 34) .

وتتساوى النساء ، في الاحكام ، مع الرجال من الجانب الديني . فهن ، كما كانت تقول عائشة زوج

---

1) ابن حزم ، **الفصال** ، ج 5 ، ص 17 .

2) امكانية نبوة المراة مثال يظهر الى اي حد يعتبر من الاجحاف ان نسم الاسرة الاسلامية بانها ابيسية. توجد ، الى يومنا هذا ، مجتمعات اسلامية قريبة من المجتمعات الاموسية ، نذكر منها الطوارق في الجنوب الجزائري .

3) انظر : القسم الاول ، الفصلين 1 و 2 .

النبي : « شقائق الرجال » فالمراة والرجل متماثلان في الحقوق ، متماثلان في الواجبات .

* * *

د ــ الرجال قوامون على النساء

لا مناص لنا ، ونحن نقر بالنظرة الاصلية الاصيلة في الاسلام ، من ان نلاحظ ، ويا للاسف ! ان كثيرا من المسلمين كانوا ، في اغلبية الازمنة ، يعملون على الحيلولة دون التساوي بينهم وبين المسلمات . فحتى في الاتجاه السلفي المعاصر (جماعة المنار) ، نجد مسحة محافظة تعطي أحكاما عامة اعتباطية ، بغية الدفاع عن الاسلام ، اكثر مما ترمي الى دراسة أحواله بتدقيق مجتمعي وتاريخي للواقع المعاش . ان التزام الاستاذ الامام محمد عبده كان مناداة باصلاح اخلاقي لا باصلاح مذهبي . حقا ، ان الحركة السلفية التي تزعمتها جماعة المنار نيرة ، و « تقدمية » في دفاعها عن المراة ، لذا قد يستغرب من كون محمد عبده ، بعد ان قرر مبدأ تساوي المراة بالرجل ، يتراجع ليؤكد ان الاسرة والمجتمع في حاجة الى رئاسة ، وان الرجل هو الاحق بها : « لان الرجل اعلم بالمصلحة ، واقدر على التنفيذ بقوته وماله » (1) .

ربما قيل عن هذه الاحكام ، انها غير مدعمة ، لا منطقيا ولا اجتماعيا ولا بيولوجيا . فالرجل ليس (بكيفية **مطلقة**) « اعلم » من المراة ، والتاريخ على ذلك شهيد ؛ وليس الرجل (**دائما**) اقوى من المراة ، ولا اغنى . ولنقتنع بذلك، ما علينا الا ان ننظر حولنا !.

فخديجة كانت اثرى (ماديا) من زوجها محمد ! والنبي الرسول نفسه يصرح بأن « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (البخاري ومسلم) . والقوة ، هي ايضا ، ليست ميزة كافية للرآسة والافضلية ، فبسالة الجنود في الحرب ليست بالحجة الكافية على التفوق الفكري والاخلاقي ، او على الدهاء في التدبير المنزلي والسياسة العامة . وهذا واضح بين في الحديث النبوي : « رجعنا من الجهاد الاصغر ، الى الجهاد الاكبر ، جهاد النفس » (2) . فامهات المومنين ، بشهادة ما ورد في «**السيرة**» ، كن اقدر من كثير من الرجال ، على « الجهاد الاكبر » : « يا نساء النبيء ! لستن كأحد من النساء ان اتقيتن» (33 : 32) . فامهات المومنين مفضلات **ان اتقين** . وفعلا ، قد امتزن بالتقوى ، فكن خيرا من كثير من المومنين الصادقين ، وبالاحرى من مطلق الرجال ! .

ان ما دفع بـ (المنارين) الى ان يعطوا حق الرئاسة (اي الاقرار بعدم المساواة ، من بعض الوجوه) هو ، على ما يظهر ، حرصهم على تأويل الآية (34 من السورة 4) ، فجاء تأويلا متاثرا بالنظام الابيسي (3) ، وان لم يقصدوا ذلك . نعم ، الآية تؤكد ان « الرجال قوامون على النساء » ، لكن ، ما معنى « قوامون » ؟

ان الجذر : **ق. و. م.** (= قام ، قياما ، فهو قائم) الذي اشتق منه لفظ « قوامون » يدل على العناية والاعتناء ، والحماية ، و « القيام » بشؤون الغير ، كما قاله كثير من اللغويين . فـ: « قيام للشيء» هو المراعاة للشيء والحفظ له (...) . ومن القيام الذي هو بالاختيار ، قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » وقوله : « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » . والقيام في الآيتين جمع « قائم » (4) . فالرجال « قوامون على النساء » ، اي يتكفلون **بمصالحهن المادية** ، ما دامت النفقة فرضا على الرجل. نقرا في **مقاييس اللغة** : « قام قياما ، اذا انتصب ، ويكون قام بمعنى العزيمة ، كما يقال : قام بهذا الامر ، اذا اعتنقه » (5) . تستعمل الديبلوماسية المعاصرة تعابير ، منها : « قائم بأعمال » ، و « مكلف بمهمة » ، وتعني موظفا ليست له اية سلطة مطلقة ، وانما هو في « خدمة » السفارة . ومن هذا الباب : قومت الشيء ، تقويما ، واصله « انك تقيم هذا مكان ذاك (...) .

---

1) **تفسير المنار** ، ج 2 (ط 3) ص 380 ، دار المنار ، القاهرة 1367 .
2) وفي حديث آخر : « الجهاد اربع : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدق في مواطن الصبر ، وشنآن الفاسق » ابن نعيم ، الحلية . انظر : السيوطي ،**الجامع الصغير** ، عبد الحميد حنفي ، ج 1 ص 146 .
3) انظر الابيسية (Patriarcat) في المصطلحات الفلسفية ، نشر دار الكتاب بالدار البيضاء .
4) الراغب الاصفهاني ، **المفردات في غريب القرءان** ، ص 416 ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، 1961 .
5) احمد بن فارس ، ج 5 ، ص 43 .

وهذا قوام الدين والحق ، اي به يقوم » . (1) فعندما « ينتصب » الرجل خادما لاهله ، يكون للبيت «القوام»، لا « الرئاسة » ، لانـه اذا جعل القوام في القمـة لا في القاعدة ، تصدع الكيان .

❊ ❊ ❊

لقد انزلق المفسرون من المعنى السابق الى مـا يصدر عنه من انحرافـات ، في وسـط غيـر سـوي مجتمعيا وسياسيا . حقا ، قد اصبح الرجال ، كما يصرح المنار بون « أعلم » و « أقدر » و « أغنى » من النساء ، عندما سيطروا بانانية على زمام السياسـة والاقتصـاد . فتفوق الرجال مغتصب ، وليس اصيلا في الطبيعة البشرية ، كما تبنيه السيكولوجيا الحديثة. **انه تفوق كسبي ، في مجتمع سادته الابيسية المطلقة ،** الى حد ان النساء صـرن ، كما يصفهـن المناربـون انفسهم : « كالاتن الحاملة ، والبقر العاملة (...)فسق الرجال عن امر ربهم (في العالم الاسلامي) فوضعـوا النساء في هذا الموضع بحكم قوتهم ، فصغرت نفوسهن ، وهزلت آدابهـن ، وضعفـت دياناتهـن ، ونحفـت انسانيتهن، وصرن كالدواجن في البيوت (...) فساءت تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد الاجتماعي من الافراد الى الجماعات (...) لبث المسلمون على هذا الجهل الفاضح احقابا ، حتى قام فيهم اليـوم مـن يعيرهم باحتقار النساء واستعبادهن ، ويطالبونهم بتحريرهن ومشاركتهـن في العلـم والادب وشـؤون الحيـــاة ... » (2) .

نعتقد ان الوضع سيبقى على هذا الشكل اذا لم تتحرر المراة ، **عمليا** ، تباعا لهدي الاسلام وما جاء به من الاصلاح ، نعني اذا بقيت للرجل وحده اليد العليا في الاقتصاد والسياسة ، اي السلطة المطلقة في الاسرة والمجتمع ، وله وحده .

❊ ❊ ❊

لقد حرر الاسلام المراة من الواد : « من كانت له انثى فلم يئدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليهـا ، ادخله الله تعالى الجنة » . (3) وحرم الاسلام السبي ، والطيرة ، اذ كان عرب الجاهلية يقولون : « الطيرة في ثلاث : في المراة ، والدابة ، والـدار ، » . فالاسـلام بمواقفه تلك ، اعاد للمراة كرامتها الانسانية ، اذ سوى بينها وبين الرجل في حد القذف ، وهو تساو في العرض، كما اقر الحكم بالقتل على قاتلها ، لان دمها مساو لدم الرجل (4) . ومنح الاسلام المراة حقوقا كثيرة ، على راسها ، حق الحكم ، وحق الفتوى ، اعترافا بانهـا لا تقل عقلا ودراية عن الرجال (5) . ان عثمان ابن عفان، في ايام خلافته ، تردد على بيـوت امهـات المومنيـن مستشيـرا في شؤون الدولة . فلقد نصحتـه مـرة ام سلمة ، نصيحة فيها من النقد السياسي بقدر ما فيها من الوعظ ، فرد عليها الخليفـة معترفـا ، مقـدرا ، شاكرا : « اما بعد ، فقد قلـت فوعيـت ، ووصيـت فاستوصيت ، ولي عليك حق النصتة ... » (6) فبينما كانت المراة في الجاهلية تورث وتباع اصبحت المسلمة ترث وتتمتع بحق الملكية الشخصية والتصرف التام فيها ، وتستشار في تسيير امور الدولة .

تلك هي المرحلة الاولى في تحرير المراة ، وان لم تكن المرحلة الحاسمة والاخيرة .

(يتبـــع)

الرباط : محمد عزيز الحبابي

---

1) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

2) **تفسيـر المنـار** ، ج 3 ، ص ، 323 – 324 ، ط 4 القاهرة 1960 . هاته التصريحات التي تعض على واقعنا المتخلف عن مبادىء الاسلام الحق ، وعن تقدم الحضارة المعاصرة ، مظهر من « تقدمية » محمد عبده ، وليست آراء مجموع المناريين . فالسيد محمد رشيد رضا يقف من قضية المراة دون موقف استاذه بكثير ، فنجده يبرر تعدد الزوجات ويؤيده ، كما يدافع عن « مزايا الحجاب »، (انظر كتابه : **نداء الى الجنس اللطيف** . انظر كذلك : المنجي الشملي : « **قضية المراة في تفسير المنار**» في حولية الجامعة التونسية ، العدد 3 ، سنة 1966 ، ص 5 الى 27) .

3) حديث نبوي نقله عن (**تيسير الوصول**) الاستاذ سعيد الافغاني في كتابه **الاسـلام والمـراة** ، ط 2 ، ص 59 ، دار الفكر ، دمشق ، 1964 .

4) بينما كان الرومان وغيرهم من الدول المتحضرة يبيحون للرجل قتل ازواجه .

5) انظر مثلا ابن الجوزي **سيرة عمر ابن الخطاب** حيث يروي مناقشة تشريعية بين امراة وابن الخطاب، اضطر الخليفة في آخرها الى ان يعترف بخطئه ، فتراجع عن حكمه : « امراة اصابت ورجل اخطأ ... كل الناس افقه من عمر ! » .

6) امالي الزجاجي ، ص 125 ، المطبعة المحمدية التجارية ، 1935 .

صفحة مشرقة من تاريخ الاسلام

في مواجهة الغزو الخارجي فتح الاسلام أرضا جديدة

للأستاذ أنور الجندي

تكشف حركة التاريخ الاسلامي عن ظاهرة بعيدة المدى على طول مراحله هي مقدرة الاسلام على كسب النصر في مجال النكسة وتوسيع نطاقه حين تحاول القوى الاجنبية الانتقاص منه ، وامتداد ظلاله الى شعوب جديدة حين تنكسر قواه وتلحقه الهزيمة او الضعف في احد مراكزه المقدسة .

وفي مرحلة الغزو الخارجي واجه عالم الاسلام هجوم ثلاثي قوي :

1) هجوم الصليبيين في حملاتهم المتوالية التي لم تتوقف .

2) هجوم الفرنجة والاسبانيين على الاندلس وشواطيء المغرب .

3) هجوم التتار والمغول في زحوفهم الضخمة .

ولقد كان وقع سقوط بغداد في قبضة الغزو المغولي بالغ الاثر في المجتمع الاسلامي كله ، فقد زلزل النفوس واصابها بالاضطراب والتشاؤم واضفى على المسلمين روحا من اليأس القاتل ، فقد خيل للناس من ضخامة وقع الحدث وعمق الضربة ، ان الاسلام قد انتهى حتى ان مؤرخا كبيرا هو « ابن الاثير » ظل معرضا عن ذكر الحادثة بضع عشرة سنة ، بل لقد كان وقع سقوط بغداد اكثر دويا واخطر اثرا في النفوس من الحملات الصليبية ، ذلك انها كانت تمثل ضربة رئيسية موجهة الى مركز القيادة السياسية لعالم الاسلام وقاعدته بالرغم مما مثبت به هذه القاعدة من الضعف وما بلغته من الانكماش والتضاؤل في نفوذها الحقيقي .

غير ان النظرة الاوسع تكشف عن حقيقة عجيبة، هي انه في نفس العام (656 هـ) الذي سقطت فيه بغداد : مركز القيادة السياسية الاسلامية في يد المغول في نفس هذا العام غزا الاسلام واحدة من اضخم قبائل التتار هي قبيلة بركه خان وفتح طريقه بالسيطرة على عقول الكوب هذه القوة العاتية التي كانت قد هزت العالم كله وزلزلت قواعده منذ اربعين عاما قبل فتح بغداد ، وكانت موضع تطلعات الغرب الطامع في ان يضمها الى دينه وثقافته ليجعل منها احدى فكي الكماشة في الاطباق على عالم الاسلام ، غير ان ذلك لم يتحقق ،فقد كان « دعاة الاسلام » البسطاء اقدر على كسب ايلخانات المغول من حملات التبشير الغربية، ويرى توماس ارنولد في كتابه (الدعوة الى الاسلام) انه ليس في تاريخ العالم نظير لهذه المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام حيث كل ديانة تنافس الاخرى لتكسب قلوب اولئك الفاتحين القساة .. غير ان ظهور الخلافات بين المسيحية من اللاتين والاغريق والنسطوريين والارمن وامتدادها الى وسط معسكر المغول ذاته قد جعل الامل ضئيلا في احراز نجاح اكبر .. وقد تحطمت كل الخطط عندما دخل بركه خان وقبيلته في الاسلام ثم تحالف مع الظاهر بيبرس سلطان المماليك وكان بركه خان (1256 ـ 1267) اول من اسلم من امراء المغول ،

وكان رئيسا للقبيلة الذهبية في الروسيا ، غير ان تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك ارمنية والصليبيين ، ربما قد حجب الامل في انتشار الاسلام بين المغول قليلا ، وكان ابن هولاكو (اباقا خان) قد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية، وكان يرسل السفراء الى القديس لويس ملك فرنسا وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك ارغونة يطلب اليهم التحالف معه على المسلمين ، غير ان ذلك لم يحقق نتيجة ما على النحو الذي كان يرجوه ملوك اوربا ، فان اخوه تكودار 681 هـ - 1282 م الذي اعتلى العرش من بعده ، كان قد اعتنق الاسلام منذ صباه عن طريق اتصاله بالمسلمين ، فلما تولى السلطة رغب في تحويل كافة التتار الى الاسلام ، وارسل نبا اسلامه الى سلطان المماليك في مصر « قلاوون » قال في رسالته:

« لقد ابتدانا بتوفيق الله باعلاء اعلام الدين واظهاره ، وفي ايراد كل امر واصداره تعدي لناموسي الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الاحمدي اجلالا وتعظيما ، ان الاسلام يجب ما قبله ، وانه تعالى القى في قلوبنا ان نتبع الحق واهله ، عفا الله عما سلف وتقدمنا باصلاح امور المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس، وامر بتعظيم امر الحجاج وتجهيز وفدها وتامين سبلها وتيسير قوافلها، وانا اطلقنا سبل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم : توقيع «تكودار احمد»

* * *

وتوالى الايلخانات المسلمين حتى كان اعظمهم شانا « غازان » 695 هـ 1295 م سابع الايلخانات الذي جعل الاسلام دين الدولة الرسمي في فارس ، وتوالى الاسلام امراء التتار وملوكهم ، اسلم طرما شيرين ملك جغطاي 727 هـ 1326 م وتغلق تيمور خان ملك كاشغر 848 هـ 1347 م على يد الشيخ جمال الدين ، وعندما تولى تغلق تيمور السلطة استقبل امراء دولته وكان اولهم الامير تولك : وقال له الخان : الا تدخل الاسلام ، عند ذلك سالت عبرات الامير وقال : قد دخلت في الاسلام منذ ثلاث سنين على يد احد رجال الدين في كاشغر واصبحت مسلما منذ ذلك الحين ، ولكني لم اصرح بذلك خوفا منك ، وعرض الاسلام على سائر الامراء فقبلوه جميعا ، الا واحدا ، وفي هذا اليوم قص 160 الف رجل شعورهم ودخلوا في الاسلام .

ولما تولى اوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية السلطة عمل على تحويل كثير من الاهليين الى الاسلام. وقد وضع خطة لنشره في كافة ارجاء بلاد الروسيا وبالرغم من تحمسه لنشر الاسلام وتفانيه ، كان كثير التسامح نحو رعاياه المسيحيين وقد منحهم الحرية التامة في اقامة شعائرهم من غير ان يتعرض لهم احد بسوء . وفي هذا يقول توماس ارنولد :

« انه بالرغم من كل المصاعب اذهن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الامر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطيء اقدامهم ، ولابد ان يكون هناك كثير من انصار النبي قد انتشروا في طول امبراطورية المغول وعرضها مجاهدين في طي الخفاء لجذب غير المسلمين الى حضارة الاسلام » .

* * *

كذلك حقق الاسلام توسعا ذاتيا في هذه المرحلة في قلوب الصليبيين انفسهم ، فان روح الاسلام وعدالته التي لمسها الغربيون عن قرب ، وما ادهشهم من شمائل نور الدين وصلاح الدين قد شدهم الى الاسلام .

وقد ادى اختلاط علماء اللاهوت المسيحيين بالاسلام الى تغير مفهومه عن المسلمين ودينهم . وبدا رايهم اقرب الى الانصاف .

بل لقد انجذب كثير منهم الى حظيرة الاسلام .

يقول توماس ارنولد : « يظهر ان اخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد احدثت في اذهان المسيحيين في عصره تاثيرا سحريا خاصا حتى ان نفرا من الفرسان المسلمين قد بلغ من قوة انجذابهم اليه انهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا للمسلمين. حتى ان صيغة القسم التي عرضها على القديس لويس اولئك المسلمون الذين اسروه حين طولب بان يتعهد باداء ما فرض عليه من الفدية 1250 م كانت من املاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ، ثم اعتنقوا الاسلام حسب رواية جونفيل في تاريخه .

ويتصل بهذا ان المسلمين حين استعادوا سلطانهم على بيت المقدس بسطوا على المسلمين روح التسامح التي كانت من قبل . ومن المؤكد ان المسيحيين من اهالي هذه البلاد قد اثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين ، ويظهر أن اهالي فلسطين من

المسيحيين لما وقع بيت المقدس فى ايدي المسلمين نهائيا 1244 م رحبوا بالقادة الجدد واطمأنوا اليهم ورضوا بحكمهم ، وقد دفع هذا الشعور كثيرا من مسيحيي اسيا الصغرى الى الترحيب بمقدام السلاجقة باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية المتعصبة ، لا لسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن لسبب روح الاضطهاد التى ظهرت بها الكنيسة الاغريقية (وذلك على حد رواية توماس ارنولد) .

* * *

وقد انتشر الاسلام ذاتيا فى افاق اخرى ، هي المغرب وشمال افريقيا ، وكان لتقبل البربر له ابعد الاثر فى انتشاره فى آفاق افريقيا ، ويرى المؤرخون ان ظهور المرابطين كان بعيد الاثر فى انتشار الاسلام بوصفه حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج فى الامة الاسلامية على حد عبارة الدكتور حسن محمود ، وقد ظهر فى مستهل القرن الخامس « عبد الله بن ياسين » ذلك المعلم التقي الذي اكتشفه يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، وكان مقدمه للنهضة الضخمة التي قادها من بعد يوسف بن تاشفين ، فقد عمل عبد الله بن ياسين على نشر الاسلام فى مختلف انحاء قطاعات افريقيا التي تعرف بالسودان ، وقد بنى (رباطا) في جزيرة السنغال حيث كون مجموعة ضخمة من التلاميذ المدربين على الدعوة بلغ عددهم الف شخص، ثم دفعهم الى قبائلهم وعشائرهم ، ثم زاول الدعوة في القبائل المجاورة ، واستطاعت حركة (عبد الله بن ياسين) ان تحقق توسعا فى قلب افريقيا حيث اسلمت قبائل كبيرة من البربر الوثنية ، ثم كانت حركة الموحدين امتدادا لحركة المرابطين من حيث جذبت الى الاسلام قبائل اخرى كانت بعيدة عن الاسلام ، فقد استطاع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ان يكسب الكثير للاسلام عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية وشرح قواعد الاسلام وامر بالاذان بها .

القاهرة : انور الجندي



الاسلام والمسلمون

للأستاذ : أحمد عبد الرحيم السائح

ان العالم الاسلامي يربض على الثروات المعدنية الهائلة ويتربع على الكنوز الثمينة ، ويملك من الحقول البترولية ، أجداها نفسا ، واكثرها ثراء وسخاء ، واقواها تدفقا ودفعا . ويتبوأ استراتيجية هامة ، ويشغل من خريطة الدنيا حيزا جغرافيا عظيما .

فالاطار الخارجي الاقصى للعالم الاسلامي يصل شمالا حتى أعالي الفولجا ، غير بعيد عن دائرة العرض 60 درجة شمالا ، ويترامى جنوبا حتى نهاية افريقيا عند الرأس على خط عرض 35 درجة جنوبا .

أما شرقا بغرب فنحن مع الاسلام من خط طول 120 درجة شرقا حيث الفلبين الى حوالى 20 درجة غربا ، عند الرأس الاخضر، تهذه شقة تبلغ 95 درجة بالطول، ونحو 140 درجة بالعرض اى حوالى ربع وثلث محيط الارض على الترتيب ، أو ما يعادل نصف دورة من دورة الليل والنهار ، ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي .

ومحيط العالم المسلم يتحدد أساسا بنصف الكرة الشمالي أولا ، وبنصف الكرة القديم ثانيا ، فالاسلام جنوب خط الاستواء اطراف أو اصابع ثانوية وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة .

ويمكن ان نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة فنقول : ان الاسلام يمتد فى قوس محدد من بكين الى كازان الى بلغراد فى الشمال ، أو فى قاطع من فرغانة الى غانة — كما كان يقول مؤرخو الاسلام — أو فى قاطع آخر من جبل طارق الاطلسى الى سنغافورة جبل طارق الهادي ، أو من مالاجا بالاندلس الى ملقا بالملايو الى قبائل المورو بالفلبين ، كذلك يمكن أن تحدد قاعدة العالم الاسلامي فى الجنوب بمحور «يمتد من قبائل السنغال ، حتى قبائل التاجال بالفلبين ، أو من غينيا الى غينيا الجديدة ، أما بالطول فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزي واللمبوبو .

وتلك ابعاد لاتقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم .

فالاسلام دين عالمي أو كوكبي — بلا مراء — رغم ما يدعيه البعض من انه دين جزئي ، أو اقليمي أحيانا ، او من انه دين «افريقاسى» احيانا اخرى . اذ يوشك الا تكون هناك دولة فى عالم اليوم ، لايتمثل الاسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الالاف كما فى استراليا وغرب اوربا مثلا .

وبالعالم الاسلامي قابليات بشرية فائقة ، والمسلمون يمثلون تقريبا 15٪ من مجموع سكان هذا الكوكب الذى يبلغ اليوم قرابة 3300 مليون نسمة .

وبعبارة اقرب وأوجز ، يمكن ان نقول : ان واحدا من كل ستة اشخاص يدين بالاسلام ومناطق العالم الاسلامي تعد — عند الباحثين والدارسين — من اقاليم النمو السكاني السريع .

فالعالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسيفيكي شرقا ، الى المحيط الاطلسي غربا ، مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ، ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بأنها :

* تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان ، بعيدة عن التطبين ، وسالمة من الاعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين ، ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

* وانها تمتلك من شواطىء البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانىء العالم ، كما بها من الانهار والمنابع ما يجعلها من اخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

* وأن فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء .

* وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

* وأن التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة فى منأى عن الانشقاق الملحوظ فى المذاهب الاخرى ، ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك أمور تجعل العالم المسلم قوة ايجابية مرهوبة الجانب ، مخطوبة الود ، يتهيب العدو بأسها ، ويخشى سلطانها ، وتجعله أيضا مهيأ للاسهام فى بناء الحضارة الانسانية ، واعادة صنع الحياة ، وانقاذ البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع ، وما لهما من خصائص ومميزات ، وما بهما من كنوز وخيرات ، ومن الحديث عن خصائص العالم الاسلامي التي برز بها غيره ، الى الحديث عن الاسلام نفسه : فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التي جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتقه .

العقيدة التي تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ ارقى صوره وأشكاله ، عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذى لاشريك له فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله **«قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد»** .

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان أن يتعلق بالمخلوقات أو يدعو ويعبد غير الخالق الذي أبدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس أو يعترف بوجوده فى هذا الكون الفسيح «اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله» . والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسانية ومصالحها الحيوية فى حدود الحق والفضيلة والشرف وباعتبار هاتين الحقيقتين — التوحيد الخالص ، والاجتماعية — امكن للاسلام ان يقيم المجتمع على أسس القيم الاخلاقية العليا ، وان يرضي مطالب الروح والجسد ، حتى ترافقا فى اعتدال ، وكونا حقيقة الانسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين السمو الروحي والتهذيب الاجتماعي امكن للاسلام ان ينتشر فى أركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المبادىء .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة الرائعة التي تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتغذي العقل وتوقف الغريزة عند حدها ، وتعطي كل مطمح من مطامح الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعلاء من أخص خصائصها : أنها تبعث فى روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة فى غير اغترار ، وشعور الاطمئنان فى غير تواكل .

والعقيدة الاسلامية قوة لاتدانيها قوة فى شد الاعصاب وشحن الدماء بالتضحية والفداء ونكران الذات . واثر الايمان بالعقيدة السليمة يبرز بوضوح فى الدعوات التي غيرت وجه التاريخ . لذا يعمد [illegible] الدعوات الى اختيار العناصر المشبعة بروح [illegible] ، ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لايريدون (الكم) بل يريدون (الكيف) .

ذلك ان العقيدة هى الروح التي تحرك الجسد وتبعث فيه الحياة والرعيل الاول من [illegible] كانوا اساتذة الدنيا بقوة عقيدتهم وايمانهم بربهم ، وقد لاقوا آلاما شديدة لو صبت على غيرهم لتغير موقفهم ، ولكن الايمان بالعقيدة حين يخالط قلب المسلم يحيله الى انسان فوق العادة .

فبلال الحبشي ، وعمار بن ياسر ، ومصعب بن عمير ، وصهيب الرومي . ضربوا الرقم القياسي في صلابة العقيدة وصدق النية وقوة الايمان . وهم الذين لم يدرسوا كتب الفلسفة ولم يقراوا علوم اليونان والرومان ، ولكنهم درسوا القرآن الكريم وتتلمذوا في مدرسة محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة.

وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وطارق بن زياد وموسى بن نصير قادوا الدنيا وفتحوا البلاد وهم الذين لم يدرسوا في الكليات الحربية ولم يقراوا علوم اليونان والرومان الحربية . ولكنهم درسوا القرآن العظيم وتتلمذوا في مدرسة محمد رسول الله .

فالايمان بالعقيدة هو الجذوة المتقدة ، والقوة الخلاقة ، التي تكون النفوس وتشحنها بانبل القيم واسماها ، وتبينها على الحق والاباء والعزة والكرامة

والاسلام : **دين ومجتمع وحضارة :**

دين : لانه عقيدة توحيد وتنزيه لله — سبحانه وتعالى — تعتقدها القلوب وتدين بها ، وتنطق بها الالسنة في كل صلاة وذكر ، وتتزكى بها النفوس ، فتنجلي عنها كل شدة وبؤس .

ومجتمع : لانه ليس طائفيا ولا عنصريا ، ولا جاهلا ، ولا جامدا ولا خامدا ولا يتوخى استعباد جنس لجنس ولا قويا لقوم ، ولا طائفة لطائفة **((انما المؤمنون اخوة))** . **((يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن))** .

والفرد في المجتمع الاسلامي جزء من كل يكمله ويكتمل به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمي به . وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح العام ، والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للافراد باعتبارهم مدينين بوجودهم لله ومسؤولين امامه عن اعمالهم **((كل نفس بما كسبت رهينة))** . **((لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت))** **((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم))** **((ولا تزر وازرة وزر اخرى))** . والاسلام الحنيف حينما جعل الفرد مسؤولا امام الله عن اعماله والمسؤولية تقع عليه وحده . الاسلام جعل ذلك لترفع من قيمة الفرد الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والدفع البناء وفي الوقت نفسه لبنة من لبنات المجتمع المسلم وعضو من اعضائه يعمل لصالح الجماعة والجماعة تسعى لخير الفرد .

والاسلام لايعترف بالقهرية التي تدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغما عنه كما في الشيوعية لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

فالاسلام دين اجتماعي يرقى بالمجتمع الى اسمى ما قدر من سلام ورخاء وتعاون وتكافل وتساند وتوادد **((والمؤمنون بعضهم أولياء بعض))**

قال المستشرق الفرنسي ماسينيون : ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في فكرة المساواة وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال . وهو يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الاولية الضرورية . ويقف في نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري (1)

وللاسلام ماض مجيد من تعاون الشعوب وتفاهمها وليس من مجتمع اخر له مثل ما للاسلام من ماض حافل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات .

وقال المؤرخ الانجليزي (توماس كارليل) : (وفي الاسلام صفة اراها اشرف الصفات واعظمها وهي المساواة بين الناس . وهذا يدل على صدق النظر وصواب الرأي ، والاسلام لم يقنع بجعل الصدقة سنة محبوبة بل جعلها فرضا على كل مسلم وجعلها قاعدة من قواعد الاسلام (2) .

وقال العلامة (بودوروس) : (ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طرا الاولى في القرآن **((انما المؤمنون اخوة))** والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال (3)

---

(1) راجع كتاب **((الاسلام والنظام العالمي))** تأليف محمد علي الهندي ترجمه احمد جودة السحار
(2) انظر كتاب **((نبي الاسلام))** الاستاذ عز الدين فرج
(3) كتاب **((اشتراكية الاسلام))** مصطفى السباعي

آراء كوكبة من الباحثين وكبار المستشرقين فيها انصاف واعتراف بقيم الاسلام وذلك حينما يكتبون لمرضاة العلم فى ذاته . وحين لاتقتادهم السطحية .

وحضارة : لانه متصل بشئون الحياة والحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التبلور والتناسق بحيث لايتوقف ولا يجمد ، ولا يتعارض مع طبائع الامم فى حركتها الداخلية الممتدة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ، ويتدخل فى جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالاضافة الى أنه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة فى الارض بأمانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها ، واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والمودة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة أوجز : انه ما من شيء يهم الانسانية ويشغل بالها ، ويأخذ قسطا من عنايتها الا وله فى الاسلام هدى وبيان واهتمام .

وما من شيء يلامس حياة الناس او يتعمقها الا وله فى الاسلام عرق ينبض وأصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة ، وجامعة اللغة العربية ، واشتراك المجتمع فى مظاهر العبادات والعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

ونخلص من كل ماسبق : الى ان الاسلام دين عالمي . ولهذه العالمية كان ألاسلام وما زال ملائما لجميع الاجناس البشرية ، وقد اثبت منذ ظهوره حتى اليوم انه الدين الذي يتلاءم مع كل عقل وتفكير ، ويتجاوب مع تطور الزمن .

وان آداب وتعاليم الاسلام كفيلة بان تجعل العالم الاسلامي فى وضع يسمح له أن ينمي فلسفته الخاصة به ، المتميزة عما عداها ، والتي تنبع من الفكر الاسلامي النير ، تستمد عناصر وجودها من كتاب الله القرآن الكريم وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام .

وذلك دون ان يتبع المجتمع الاسلامي اي شكل من الاشكال التي يعافها الاسلام وتمجها الفطرة الانسانية الصافية .

واذا كان المجتمع الاسلامي ، له من المميزات ما لايتوفر لغيره ، وله من التعاليم والقيم والآداب ما يسمح له ان تكون فلسفته الخاصة بوجوده . فهل ممكن لحضارته ان تعود الى اشراقها من جديد فتنقذ الانسانية من هوة الفوضوية وتقشع عنها السحب الداكنة والاعاصير المقلقة وتزيل الاصفاد والقيود المحيطة بكل تقدم ، والمعرقلة للنهوض ، وتعيد للعالم الانساني السلام الحقيقي والحق والعدل والنور والامن والاطمئنان ؟

ان تعاليم الاسلام الغراء صالحة لكل زمان ومكان ، وفى الاصلاح الاسلامي من كليات وجزئيات ، كفيل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والاخلاص ولكن ذلك رهين برجوع المسلمين الى منابع عزهم ومجدهم والتمسك باسمى القيم والاخلاق الاسلامية . والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابضة بالسمو ، المليئة بالجذوات المتقدة التي لايخبو ضوؤها . قال الدكتور جورج سارطون : «ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية — كما كانوا من قبل — اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التي حث الاسلام على الاخذ بها (1) » .

وقال العلامة وايبرى : «ان روح نظام المسلمين هو الدين ، والذي أحياهم هوالدين ، والذي يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس الا (2) ».

ويرى الدكتور فيليب حتى : «ان الشرق الاسلامي هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما انه فى فجر طور جديد فى حياته السياسية ، وهو دور يمكن ان نسميه : دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا أن نتكهن ان أبناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم فى خدمة المدنية والانسانية ، وبما يجعلهم خلفاء جديرين بالميراث الذي تركه لهم أجدادهم (3) » .

---

(1) كتاب **«الشرق الاوسط فى مؤلفات الامريكيين»** ترجمة عمر فروخ ، بيروت .
(2) راجع كتاب **«الاسلام فى غزوة جديدة»** للاستاذأنور الجندي ، القاهرة .
(3) انظر كتاب **«الثقافة الاسلامية»** طبع مؤسسة فرانكلين .

والدكتور سميث استاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية اوهايو يرى : «انه لو امكن اثارة التماسك الاسلامي فى سبيل اغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المتخلفة فى وحدة حية لامكن ان تصير هذه الوحدة قوة ايجابية فى العالم (1) » .

وكلام أولئك الافذاذ من ائمة البحث وكوكبة الاستشراق قد يكون انصافا ولمرضاة العلم فى ذاته بعيدا عن السطحية والاغراض التعصبية .

وقد يكون بمثابة التحذير لاقوام أوربا الحاقدين على الاسلام والمسلمين . ليعرف الاوربيون ان المسلمين اذا اجتمعت كلمتهم فى ظل العمل بالاسلام ، كان ذلك خطرا على الاستعمار والاستبداد والظلم .

وعلى اي حال وسواء كان هذا او ذاك فان العالم العربي والاسلامي لاينهض الا برسالته التي وكلها اليه رسول الانسانية محمد عليه الصلاة والسلام والايمان بها والاستماتة فى سبيلها ، وهي رسالة مشرقة قوية واضحة لم يعرف العالم رسالة اعدل منها ، ولا افضل ، ولا ايمن للبشرية منها .

وهى نفس الرسالة التي حملها المسلمون فى فتوحاتهم الاولى ، والتي بلغوا بها ذروة ما قدر لهم من سؤدد ومجد وسلطان .

كانوا اقوياء فى عقيدتهم بالله واقوياء فى نفوسهم، لايرهبون الردى ولا يخافون من الموت سواء وقعوا عليه ام وقع عليهم ، غير هيابين ولا وجلين :

اذا صنعوا فصنعهم المعالي
وان قالوا فقولهم الصواب

مرادهم الاله فلا رياء
ونهجهم اليقين فلا ارتياب

لأمتهم وللاوطان عاشوا
فليس لهم الى الدنيا طلاب

كمثل الكاس تبصرها دهاقا
وليس لاجلها صنع الشراب

ويعرب عن كل ذلك الفيلسوف الاسلامي محمد اقبال الشاعر الباكستاني فيقول :

كم زلزل الصخر الاشم فما وهى
من بأسنا عزم ولا ايمان

لو ان آساد العرين تفزعت
لم يلق غير ثباتنا الميدان

وكأن نيران المدافع فى صدو
ر المؤمنين الروح والريحان

توحيدك الاعلى جعلنا نقشه
نورا تضيء بصبحه الازمان

فغدت صدور المؤمنين مصاحفا
فى الكون مسطورا بها القرآن

* * *

لم نخش طاغوتا يحاربنا ولو
نصب المنايا حولنا اسوارا

ندعو جهارا لااله سوى الذي
صنع الوجود وقدر الاقدار

ورؤسنا يا رب فوق اكفنا
نرجو ثوابك مغنما وجوارا

كنا جبالا فى الجبال وربما
سرنا على موج البحار بحارا

كنا نقدم للسيوف صدورنا
لم نخش يوما غاشما جبارا

ولقد مرت على المسلمين والاسلام زهاء اربعة عشر قرنا من الزمان ، حورب فيها الاسلام وحارب وانتصر ، وشاهد فرقا واحزابا تألفت ضده واندحرت وجمعيات سرية هدامة ، عملت جهدها لتشويه الحقائق ، وقد باءت بالفشل ، ودولا عديدة انقضت على بلاده تريد نهب الخيرات والقضاء على القيم العليا ولكنها منيت بالهزيمة .

ولا زال الغرب مدفوعا بدوافع نفسية حاقدة متعصبة حينا ، وأخرى استغلالية انانية ، ولقد حاول الغرب تحقيق اغراضه الخبيثة بالتوجيه الثقافي والغزو الفكري مرة ، وبالضغط السياسي والاقتصادي مرة اخرى ، وبالقوة احيانا ، وما حدث بالبلاد العربية لدليل واضح على الحقد الذي يسيطر على الغرب تجاه الاسلام والمسلمين « **قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر** » .

فليستيقظ العرب ، وليعيدوا صنع حياتهم على ضوء المفاهيم الصحيحة ، وليجمعوا الصفوف ويوحدوا الاهداف :

(1) نفس المصدر .

وفى التـوحيـد للهمـم
ولن تبنوا العـلا متفرقينـا

تساندت الكواكب فاستقرت
ولولا الجاذبيـة ما بقينـا

ولتكن حياتنا كلها حركة وبناء

جهاد المؤمنيـن لهم حيـاة
الا أن الحيـاة هي الجهـاد

عقائدهم سواعد ناطقـات
وبالاعمـال يثبت الاعتقـاد

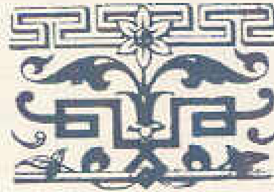
وليفتح المسلمون فى مشارق الارض ومغاربهـا أعينهم وليبينوا خططهم على أن لا أمل فى أنفسهـم ولا حياة الا ببذل الجهد فى سبيـل تدعيم البناء الروحـي والمادي . وبهذا :

سنمضي فى طريق النور قدما
وان طفقت تعارضنا الشعوب

سنمضي حاملين لواء عـز
به يتفتح الامـل الرحيـب

أحمد عبد الرحيم السايح

من علماء الازهر





كلمة السيد وزير الدولة الأستاذ عبد الهادي بوطالب في جلسة افتتاح مؤتمر كتاب المغرب

في الشهر الماضي عقد اتحاد كتاب المغرب مؤتمره الثاني تحت الرئاسة الشرفية لصاحب الجلالة الملك المعظم مولانا الحسن الثاني نصره الله وأيده .

وقد ناب عن جلالته في حفلة الافتتاح وزير الدولة الاستاذ السيد عبد الهادي بوطالب حيث القى كلمة باسم صاحب الجلالة حى فيها المؤتمرين .

وهذه نص الكلمة :

انه لشرف عظيم ان افتتح باسم صاحب الجلالة الملك المعظم مؤتمر اتحاد كتاب المغرب العربي .

وانه ليسعدني ان أجدد لكم عناية صاحب الجلالة بكتاب المغرب العربي الذين سخروا السنتهم واقلامهم لخدمة قضية بلادهم فحطموا اغلال الاستعمار ، وما يزالون يجاهدون بنفس السلاح لتحرير مغربنا الكبير من التخلف وللدفع به نحو النماء والتقدم .

ومن الطبيعي والمغرب العربي يخوض معركة البناء والتنمية ان يجتمع حملة الاقلام ورجال الفكر ، ليتحملوا اماناتهم كرواد وبناة ، يشيدون بالحرف والكلمة ، سلاحهم الايمان المتدفق على اقلامهم والنابع من عقول واعية وقلوب حية .

ولقد اصبح من الطبيعي بعد ان حقق مغربنا خطوات في ميدان التنمية الاقتصادية والفلاحية ان يجتمع الكتاب في هذا المؤتمر تحت شعار (الفكر في خدمة المجتمع) ليحددوا دورهم في المعركة ، ويخططوا للمستقبل في ثقة وعزم .

فلم يعد الكاتب يعيش لنفسه في انانية او باس او تعال ، ولم يعد الادباء شعراء اطلال يقفون ويستوقفون ، ويبكون ويستبكون ، ويتذكرون الاحباب والمنازل ، وانما اصبح الكاتب رائدا يسير في الطليعة يحمل قلمه كما يحمل الجندي سلاحه ، والعامل مسحاته وفأسه .

واصبح الادباء بناة عاملين وعمالا مشيدين للاخلاق ، وجنودا يدافعون عن الحق ، واطباء يعالجون الارواح : سلاحهم الكلمة المشحونة عزما ويقينا وثقة ، وهدفهم خدمة الانسان والسمو بوجدانه واسعاده في قومه ومجتمعه وعالمه . .

ان الكاتب اذن رجل رسالة ، يسخر مشاعره الفكرية والوجدانية لخدمة قضايا امته التي تكدح من اجله ، وتوفر له انتاجها ليهبها بالمقابل انتاجه ايضا .

انكم ايها الكتاب تجتمعون في مؤتمركم الثاني تحت شعار (الفكر في خدمة المجتمع) لمدارسة قضايا الحرف ووسائل التعبير ، واساليب نشر الكلمة

واذاعتها ، وتآزر القصيدة والمقالة ، والبحث والمسرحية والقصة ، والفنون التشكيلية فى معركة البناء ... وستناقشون قضايا الانتاج الفكري والوجداني وكل ما يمس التعبير عن حركة الجماهير وتوجيه حماسها ، وانقاذ ذلك التعبير من العبث والاسفاف ، والبعد به عن الانزلاق والانحراف .

وهذا موضوع من الصعوبة بمكان فمن واجبكم ان تكونوا مؤمنين برسالتكم . واذا كان من السهل ان تخططوا فان من الواجب ان تلائموا بين رسالتكم وهدفكم ، وما يتطلبه ذلك من جد واناة ومثابرة . وما تنتظره الامة منكم من توجيه صادق ، لتقاوموا الانحرافات الخلقية والفكرية فقد اصبح من أعظم ما تلاقي من نكبات آن نبتديء ولا نستمر ، وان نقول ولا نفعل ، ونعد ولا نفي ، وان نكتفي من الحقيقة بمداعبة الحلم بها . فالتخطيط ليس بعملية انطلاق فحسب ولكنه عملية استمرار .

ان امتنا تنتظر منكم حماة لتراثها الخلقي ، والروحي ، والادبي . وواجب انقاذ المجتمع من التخلف والحيرة ملقى على كاهل الكتاب ، فهذا هو ميدانهم ومجالهم الحيوي . واذا كان مجتمعنا يعاني من الانحلال وامراض التخلف وقسوة المادية وانهيار القيم ، فالكتاب هم دعاة الاخلاق لا بأساليب الوعظ ، ولكن بأسلوب التحليل ، واستخدام الكلمة الهادفة فى شحن العقل والوجدان بمبادىء الاخلاق الانسانية .

ان الكتابة ليست فنا للتلاعب بالزخرف البلاغي ، وليست مجرد هواية والهية مهما تكن متعتها ، وانما هي دعوة ملتزمة لخدمة المبادىء الكريمة والقضايا الانسانية النبيلة ، وكل ما يعين المواطن على تحقيق سعادته كفرد فى مجتمع شريف .

ان رسالتكم ايها الكتاب لعظيمة ، وصعبة ايضا . ان سلاحكم هو الكلمة ولكن كيف تبلغون الكلمة الى القلب وكيف تجعلون منها كلمة نبيلة ؟ ان الايمان بها والصدق فى التعبير عنها شرطان اساسيان لذلك ومن اجل ذلك يجب خلق الحوار بأسلوب الحوار الصادق الهادف ولغته الرصينة .

ومسألة اخرى ستعترضكم ... فنحن امة تجتهد لتساير العصر ، فكما نستخدم لاول مرة ادوات الفلاحة العصرية ونسخر لنا المواصلات المعاصرة ، ونعمل للاستفادة من التقنية الحديثة بمزاولة طرقها واساليبها نزاول نوعا جديدا من العمل الادبي في الشعر والقصة والمسرحية والفنون التشكيلية . فهي فنون من التعبير جديدة فى لغتنا تتطلب المزيد من الابداع الشخصي وتسمو عن مجرد المحاكاة والتقليد. واذا كان ميدان التزامكم وعقيدتكم سهلا واضحا لانكم مسلمون وعرب تحمون الوطن بما يحمله من معاني الحق والعدل والعقيدة والجمال ، وتدافعون عن قضايا شريفة وعادلة ، فان اساليب التعبير مع ذلك يجب ان تجدد فى ادائها وقوالبها . واذا كنتم لا تحتاجون لفلسفة ولا لشروح فيما تتوخونه من مقاصد واهداف فانتم مع ذلك فى حاجة الى ان تصقلوا لغتكم واسلوبكم حتى يكون اكثر نفوذا واوضح فى الدلالة وذلك لفائدة القضايا التي تشرحونها .

ان كتاب بلادنا يحملون القلم فى معركة البناء . ومن واجبهم ان يعوا مسؤولية الكلمة قبل خوضها . وعليهم ان يتقنوا مهنتهم قبل معالجة الموضوع . فاذا كانت معالجة المريض لا تجوز الا للطبيب ، فليس لكل من يتسق بين الاوزان والقوافي ان يطمح فى ان يكون شاعرا يأخذ بمجامع الاحاسيس ، وقديما فرقوا بين الشاعر والناظم وقارنوا ان تأتت المقارنة بينهما مقارنة رفعت مكانة الاول ونزلت بمكانة الثاني ، ولهذا فليس شاعرا كل من يقرض الشعر موزونا مقفى، وليس المهم يقرض الشاعر شعره ملتزما بمقتضيات العروض او ان يثور عليها ليخط كلمات مهلهلة متناثرة بدعوى حرية الشعر والبعد به عن القيود ، وانما يجب ان يكون الشاعر ملما بثقافة الشاعر ، لان منبع الشعر هو الشاعر نفسه . والتجربة الشعرية لها مواهبها وشروطها الثقافية ومعطياتها ومنطلقاتها وابعادها .

كما ان القصة ليست مجرد سرد للاحداث ولكنها عبقرية فى التحليل والاستنتاج والتأثير .

وليس الفن تعبيرا بالالوان والانتماء الى المذاهب او الثورة عليها ولكنه القدرة على ربط الجزئيات بالحقيقة الكبرى وتكوين الصور الذهنية وتفاعلها في انسجام هادف . ان الفنان هو الذي يسيطر ، والكاتب فنان طبعا ، على الكلمة الباطنية ويدرك الصور الادبية ادراكا جليا متكاملا قبل التعبير عنها بالكلمة او الريشة او النغم .

ومهما تختلف اساليب التعبير بالنسبة الينا نحن ، فثقافتنا اصيلة خالدة ، عربية فى لغتها ، اسلامية فى فلسفتها ، انسانية فى اهدافها ، ولن يعسر بعد ذلك على كاتبنا ان يعبر فيحسن التعبير ، ويبلغ

فيحسن التبليغ ، ليكون كاتبا قائدا رائدا كما قال الشاعر القديم .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بناة المعالي كيف تبنى المكارم

ايها الكتاب والكاتبات

لعلكم كنتم تنتظرون مني ان افتتح مؤتمركم بكلمة رسمية كما تفتح المؤتمرات عادة ؛ غير ان انتمائي الى اتحاد المغرب العربي ، وعضويتي في اسرته ؛ فرضا علي ان ادلي برايي ككاتب حمل الكلمة في معركة التحرير ، وما يزال يحملها في معركة البناء ... وقد أكون عرضت عليكم أراء متداولة غير انها نابعة من قلب صادق مؤمن بالكلمة ، لم يستطع اي شيء ان يشغله عن عالم الحرف والكلمة كما قال الشاعر ابو العلاء :

ولو طار جبريل بقية عمره
من الدهر ما اسطاع الفرار من الدهر

ايها السادة المؤتمرين

احرص مرة اخرى على ان اجدد لكم في هذا المحفل الكريم مشاعر العناية والرعاية التي امرني جلالة الملك المعظم نصره الله ان اعرب لكم عنها باسمه، وعن امله في أن ينبثق عن مؤتمركم هذا من التوصيات ما يزيد رسالة الكتاب تبلورا ووضوحا واهدافهم اصالة ونبلا . فجلالته كملك مكافح عاش مع والده وشعبه نكبة الحرية هو حامي الحرية في هذه البلاد ، وهو يحرص على ان يوفرها كاملة لذوي الاقلام ، وجلالته كمسؤول عن مصير هذه البلاد اكبر من يقدر رواد الفكر فيها ، وكمثقف اصيل يتجاوب وجدانه مع مشاعركم واحاسيسكم لذلك فهو يبارك جهودكم ويرعى نشاطكم لتؤدوا رسالتكم في خدمة بلادكم ولتساهموا عن طريق التوعية في المعركة التي يشنها جلالته بعنف وفي غير هوادة ضد التخلف في جميع مظاهره واشكاله .

واحرص قبل ان اختم كلمتي على ان ارحب بالوفود الشقيقة الحاضرة معنا باسم حكومة صاحب الجلالة مشيدا بظاهرة التآزر والتجاوب التي اخذت تعم جميع مرافق نشاط المغرب العربي وتقرب الخطوات نحو بنائه وتحقيقه متمنيا لكم كامل التوفيق والنجاح .

والسلام عليكم ورحمة الله .

نظرة في منجد الآداب والعلوم

للأستاذ عبد الله كنون

(23)

حرف الواو

632) في ص 562 ، ع ل كلمة عن بلد الوليد باسبانيا جعلها وادي الوليد او وليدا مع انه كتب اسمها بالاسبانية هكذا (Valladolid) وهو واضح في لفظ بلد ، وعليه فحقها ان تذكر في حرف الباء .

633) في نفس العمود بعنوان الواردات لمؤلفه محمود بن اسرائيل المعروف بابن قاضي سماونة جعله ابن اسرائيل بياء وهو بدونها ولعله خطأ مطبعي .

634) في العمود الثاني من هذه الصفحة بعنوان واشنطون عاصمة الولايات المتحدة قال : فيها الدار البيضاء مقر رئيس الجمهورية وعرف المقر بترجمته للعربية بالبيت الابيض ؛ وهو احسن ؛ دفعا للالتباس بالدار البيضاء المدينة المغربية المعروفة .

635) في ص 564 ، ع ني كلمة عن مدينة وجدة المغربية ضبط فيها اسمها بضم الواو وهو بفتحها ؛ وقال مدينة في شمالي المغرب الاقصى ولو قال شمالي شرق المغرب لكان اصح .

636 في ص 565 ، ع ني ترجمة لورش الامام المقرئ الشهير عثمان بن سعيد ، ضبط لقبه بفتحتين وهو بفتح الواو وسكون الراء لا غير .

637) في ص 566 ، ع ل كلمة عن مدينة وزان قال فيها زاوية مولاي عبد الله الشريف الوزان ، والصواب الوزاني لو اراد النسبة ، على ان الشريف المذكور معروف بدونها . وزاد قائلا وهي محجة ومركز الطريقة الطيبية وهو يعني انها محجوجة اي مزارة لكن تعبيره يوهم معنى الجادة والطريق . وما ذكره عن كونها مركز الطريقة الطيبية لو قال الوزانية لكان اعم واشمل ومطابقا لما تعرف به على لسان العموم .

638) في هذا العمود ايضا بعنوان الوزاني الزياتي ، ذكر اسم حسن ، مقتصرا عليه مع الاحالة على اسم لاون الافريقي ومراده الحسن الوزاني المعروف ، انما الامر الذي يستوقف النظر هو نسبته الزياتي هذه ؛ ولا ندري سنده فيها . والذي عند الاستاذ محمد المهدي الحجوي في كتابه عن الحسن الوزاني : الزياوي بالزاي فهل تصحفت على المنجد بالزياتي ؟

639) وفيه كذلك ترجمة للعلامةالمهدي الوزاني ضبط فيها اسم والده الخضر بضم فسكون وهو بفتح الخاء وكسر الضاد كما في نظائره .

640) في ع ني من الصفحة نفسها ترجمة لابي الطيب الوشا ، قال فيها : له الموشى فيه المواعظ وفصول في الازياء وآنية الشراب والعيدان ، مخطوط في ليون . وكتاب الموشى كما سبق لنا ذكره يعرف بكتاب الظرف والظرفاء ، وهذا كاف لتحديد موضوعه فهو ليس كتاب وعظ وليس فيه شيء من المواعظ ؛ ثم هو مطبوع من زمن بعيد ؛ فالقول بانه مخطوط في ليون قصور .

641) في ص 567 ، ع ل تعريف بحزب الوفد المصري المشهور قال فيه : زعيمهم سعد باشا زغلول فسمى الحزب ايضا « الحزب السعدي » وهذا خطأ ، فان الحزب السعدي او الهيئة السعدية حزب انشق على حزب الوفد بعد وفاة سعد وتولى مططفى النحاس رياسة الوفد .

642) في العمود نفسه تعريف بكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ضبط اسمه هذا بكسر الفاء وتشديد الياء ، وهو خطأ ، صوابه فتح الفاء والياء مع التخفيف .

643) وفيه ايضا بعنوان الوقف والابتداء ما يلي : كتب في النحو الفها السيداني والنحاس الخ . وليست هذه الكتب في النحو بل في فن من فنون القراءات التي هي من علوم القرءان ، وان كان لها مسيس بالنحو من بعيد . ثم السيداني الذي ذكره اولا من المؤلفين في هذا الفن لعله الداني ابو عمرو احد ائمة القراء والمؤلفين في القراءات ، تصحف عليه بالسيداني .

644) في ع ن من هذه الصفحة كلمة عن ولبة ، مدينة اندلسية معروفة ضبطها بضم الواو وهي بالفتح .

645) وفيه تعريف بولادة بنت المستكفى ، الاديبة الاندلسية الشهيرة ، جعلها الولادة بالالف واللام على عادته في الحاق ال بالمجرد منها وتجريد المحلى بها .

646) في ص 568 ، ع ل ترجمة للوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي المعروف ، تعرض فيها للبلاد التي فتحت على عهده فذكر منها صقلية ولكنه كتبها بالالف بدل التاء ، وطشقند وقد كتبها تشكنت بالتاء اولا بدل الطاء وءاخرا بدل الدال ، ثم ان جعله صقلية مما فتح في ايام الوليد بن عبد الملك ليس بصحيح فان فتحها تاخر كثيرا عن ايام الدولة الاموية الى عهد العباسيين في خلافة المامون ، وذلك سنة 212 ، وكان فاتحها هو القاضي اسد بن الفرات كما هو معلوم .

647) في هذا العمود ايضا كلمة تعريف بالوليد ابن عقبة ، ضبط فيها عقبة بفتح العين والقاف ، ظنه مفرد عقبات وهو بضم العين وسكون القاف اسم من اعقبه اي راكبه عقبة اى ركبة ، تسمي به العرب ، وذكر المنجد انه اخو عثمان بن عفان بموجب وسكت ولم يقل انه اخوه لامه اختلاف اسم من العربي .

648) وفيه كذلك تعريف بالوليد بن المغيرة ، ضبط فيه المغيرة بفتح الغين وهو بكسرها مفعلة من الاغارة قال تعالى : (فالمغيرات صبحا) .

649) في ع ن من الصفحة ذاتها كلمة عن مدينة وهران قال فيها : انها قاعدة مقاطعة ادارية في القطر الجزائري ،، من مدنها مسكرة بالميم اولها ولا نعرف مدينة بهذا الاسم في الجزائر ، فان كان يريد بسكرة بالباء اولها فانها من مقاطعة قسنطينة لا وهران. نعم يمكن ان يكون اراد مدينة معسكر وهي حقا مقاطعة وهران ، ولكن التحريف الذي ادخله عليها بسبب الترجمة كثير . ثم قال : يتاجرون فيها بالخمر (والالفا) وهو نوع من القنب ولا شك انه يريد الحلفاء فغيرها الى ما رأينا وفسرها بما ذكر . وصاحب المنجد يفعل في منجده ما يشاء .

650) في ص 569 ، ع ن ترجمة لونيداوس ، كيمائي الماني ، قال فيها نال جائزة نوبل على (دروساته) الفيتامينات المغنوية للعظام ، وجمع درس على دروسات في معجم يوضع بين ايدي الطلبة العرب مما لا يصح السكوت عنه .

طنجة : عبد الله كنون

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

(7)

37 ـ قال عنه :

من البدع المحدثات فى الكلام العربي التي شاعت وذاعت فى زمان الاستعمار ، وكثرة ما يترجم من اللغات الاعجمية حين ضعفت الشعوب العربية ، ولم يبق لها قول الا ما تنقله من كلام المستعمرين المتغلبين قولهم (قال عنه) انه كذا وكذا مدحا او ذما ، وهذا خطأ ، والصواب ان يقال (قال فيه) . والادلة على هذا اكثر من ان تحصى اقتصر على قليل منها .

قال ابن منظور فى مادة (ق و ل) وفى حديث سعيد بن المسيب حين قيل له : ما تقول فى عثمان وعلي ؟ فقال : اقول فيهما ما قولني الله تعالى (59 : 10 والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) .

وفى حديث علي عليه السلام : سمع امراة تندب عمر فقال : اما والله ما قالته ، ولكن قولته ، اي لقنته وعلمته والقى على لسانها ، يعني من جانب الالهام ، اي انه حقيق بما قالت فيه . اهـ

الشاهد هنا فى ثلاثة مواضع ، فى قول سعيد بن المسيب : اولها قوله : (اقول فيهما ما قولني الله تعالى) ، والثاني فى سؤال من ساله (ما تقول فى عثمان وعلي) ، والثالث فى خبر علي مع المراة ، وقد فسره صاحب اللسان بقوله : (انه حقيق بما قالت فيه) . ومعنى حقيق هنا : جدير بما قالت فيه تلك المراة من المدح والثناء . ومراد سعيد بن المسيب بتلاوة الاية انه يقول فيهما خيرا .

وبيان ذلك أن الله تعالى اثنى على المهاجرين في سورة الحشر بقوله (8 للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، اولئك هم الصادقون) ، واثنى على الانصار بقوله : (9 والذين تبواوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويوثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) ؛ واثنى على التابعين لهم باحسان بقوله : (10 والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

« ذكر تفسير الحافظ ابن كثير لهذه الايات باختصار»

قال ابن كثير : يقول تعالى مبينا حال الفقراء المستحقين لمال الفيء انهم الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، اي خرجوا من ديارهم ، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه (وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون) اي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهم سادات المهاجرين . الفيء كل مال اخذه المسلمون من اعدائهم بدون قتال كاموال بني النضير ، وهي المعنية بهذه الاية .

ثم قال تعالى مادحا للانصار ، ومبينا لهم فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم ، وايثارهم مع الحاجة فقال تعالى (والذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم) اي سكنوا دار الهجرة من المهاجرين ، وآمنوا قبل كثير منهم .

قال عمر (يعني في وصيته عند موته) : واوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم ، واوصيه بالانصار خيرا الذين تبؤوا الدار والايمان من قبل ان يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخاري .

ثم روى عن احمد بسنده الى انس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما راينا مثل قوم قد منا عليهم احسن مواساة في قليل ، ولا احسن بذلا في كثير ، لقد كفونا المؤونة ، واشركونا في الهنا (الهنأ ما اتاك من الرزق بلا مشقة) حتى لقد خشينا ان يذهبوا بالاجر كله ، قال : لا ما اثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم . . ا هـ

ومعناه ان النبي (ص) لما آخى بين المهاجرين والانصار صار الاخ الانصاري يقوم بالعمل كله في ارضه ويقاسم اخاه المهاجري الغلة والثمر . فخاف المهاجرون أن كل ما عملوه من عمل مقبول عند الله يكون اجره لاخوانهم الانصار الذين كفوهم مؤونة العمل ، واشركوهم في الغلة والثمرة ، فأخبرهم النبي (ص) ان اجرهم ثابت لهم ، ان كافاوا اخوانهم الانصار بالثناء والشكر ودعوا الله لهم . روى احمد والترمذي من حديث أبي سعيد ان النبي (ص) قال : من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وروى عن البخاري بسنده الى يحى بن سعيد سمع أنس بن مالك حين خرج معه الى الوليد قال : دعا النبي (ص) الانصار أن يقطع لهم البحرين ، قالوا : لا الا ان تقطع لاخواننا من المهاجرين مثلها ، قال اما لا فاصبروا حتى تلقوني فانه سيصيبكم أثره . ا هـ

قال في مجمع البحار : وفي الحديث ستلقون بعدي أثره — بفتحتين — اسم من آثر يوثر ايثارا ، اي أعطى ، اراد انه يستأثر عليكم ، فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء . والاستئثار : الانفراد بالشيء . ا هـ

ثم قال ابن كثير : (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا) اي ولا يجدون في انفسهم حسدا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري (ولا يجدون في صدورهم حاجة) يعني الحسد (مما اوتوا) قال قتادة : يعني فيما اعطى اخوانهم ، وكذا قال ابن زيد .

ومما يستدل به على هذا المعنى ما ورواه احمد بسنده الى أنس قال : كنا جلوسا مع رسول الله (ص) فقال : يطلع عليكم الان رجل من اهل الجنة ، فطلع رجل من الانصار تنطف لحيته (اي تقطر) من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله (ص) مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الاولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله (ص) مثل مقالته ايضا ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الاولى .

فلما قام رسول الله (ص) تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص فقال : اني لاحيت ابي (اي خاصمته) فاقسمت اني لا ادخل عليه ثلاثا ، فان رايت ان تؤويني اليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم ، قال انس : فكان عبد الله يحدث انه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه اذا تعار (اي استيقظ) تقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير اني لم اسمعه يقول الا خيرا ، فلما مضت الثلاث الليالي ، وكدت ان احتقر عمله قلت : يا عبد الله ، لم يكن بيني وبين ابي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله (ص) يقول لك ثلاث مرات : يطلع عليكم الان رجل من اهل الجنة ، فطلعت انت الثلاث المرات ، فاردت ان آوي اليك لانظر ما عملك فاقتدي به ، فلم ارك تعمل كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله (ص) ؟ قال : ما هو الا ما رايت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو الا ما رايت ، غير اني لم اجد في نفسي لاحد من المسلمين غشا ، ولا احسد احدا على خير اعطاه الله اياه ، قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك ، وهي التي لا تطاق . اهـ

استفدنا من الاية والحديث الذي رواه عبد الله ابن عمرو عن الرجل الانصاري ان العمل القليل مع سلامة الصدر من الحسد والغل والغش خير من العمل الكثير الذي ليس معه تلك السلامة ، ولكن عندنا هنا اشكال في ادعاء عبد الله بن عمرو انه خاصم اباه فغضب عليه ، واتخذ ذلك وسيلة الى ان يكون ضيفا عند الانصاري ليراقب عمله بالليل من صلاة ، وقراءة قرءان ودعاء ، فهل كان ذلك جائزا ان يتذرع المرء بالكذب البحت ليتوصل الى خير ، وهو ما يسمونه في لغة اهل هذا الزمان المأخوذة من اللغات الاجنبية : الغاية تسوغ الواسطة .

والذي نفهمه من ادلة الكتاب والسنة ان الكذب في مثل هذا لا يجوز ، فهي هفوة ارتكبها هذا الصحابي الناشيء حرصا منه على الخير ، واكتشاف الاسرار ليعرف ما يقوم به ذلك الانصاري من العبادة بالليل حتى شهد له النبي (ص) انه من اهل الجنة ثلاث مرات في ثلاثة ايام متوالية .

ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) يعني حاجة ، اي يقدمون المحاويج على حاجة انفسهم ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم الى ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن النبي (ص) انه قال : افضل الصدقة جهد المقل ، وهذا المقال أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى (76 : 8 ويطعمون الطعام على حبه) ، وقوله (2 : 177 وآتى المال على حبه) فان هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة اليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على انفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم الى ما انفقوه .

ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله (ص) : ما ابقيت لاهلك ؟ فقال ابقيت لهم الله ورسوله . وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة واصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم امر بدفعه الى صاحبه ، وهو جريح مثقل احوج ما يكون الى الماء ، فرده الاخر الى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشربه احد منهم رضي الله عنهم وارضاهم .

وقال البخاري بسنده الى ابي هريرة قال : اتى رجل رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله ، اصابني الجهد ، فارسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبي (ص) : الا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ، فقام رجل من الانصار فقال : انا يا رسول الله ، فذهب الى اهله فقال لامراته : هذا ضيف رسول الله (ص) لا تدخريه شيئا ، فقالت : والله ما عندي الا قوت الصبية ، قال : فاذا اراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله (ص) فقال : لقد عجب الله عز وجل ، اوضحك من فلان وفلانة ، وانزل الله تعالى (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) وفي رواية لمسلم تسمية هذا الانصاري بابي طلحة .

وقوله تعالى (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) اي من سلم من الشح فقد افلح وانجح . روى احمد ومسلم بالسند الى جابر بن عبد الله ان النبي (ص) قال : اياكم والظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فان الشح اهلك من كان قبلكم ، حملهم على ان سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم .

وقوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء ، وهم المهاجرون ثم الانصار ، ثم التابعون لهم باحسان، كما قال في آية براءة (100 والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) فالتابعون لهم باحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة واوصافهم الجميلة ، الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال تعالى في هذه الاية الكريمة : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون) اي قائلين : (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا) اي بغضا وحسدا (للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

وما احسن ما استنبط الامام مالك رحمه الله من هذه الاية الكريمة ان الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصاله بما مدح الله به هؤلاء في قلوبهم (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

وقال ابن ابي حاتم بسنده الى عائشة انها قالت: امروا ان يستغفروا لهم فسبوهم ، ثم قرات هذه الآية : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولا خواننا الذين سبقونا بالايمان) الاية .

وروى البغوي بسنده الى عائشة ايضا قالت : امرتم بالاستغفار لاصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فسببتموهم ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : لا تذهب هذه الامة حتى يلعن آخرها اولها . اهـ

قال محمد تقي الدين : وهذا ما قصده الامامان سعيد بن المسيب ومالك ، اذ فهما من الايات الثلاث ان الله قسم المسلمين ثلاثة اقسام : المهاجرين والانصار ، والذين جاءوا من بعدهم اذا كانوا يحبونهم ، ويستغفرون لهم ولا يسبونهم ، فمن سبهم فلا حق له في الفيء ، لانه خارج عن الاصناف الثلاثة التي استوعبت المسلمين . فالمتبعون لهم باحسان كما في سورة التوبة لا يقولون فيهم الا خيرا ، ولا يتشيعون لبعضهم ويسبون غيرهم ويبغضونهم .

قال الحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي في كتابه (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) ابان بن جبلة الكوفي ابو عبد الرحمن ، ضعفه الدارقطني وغيره . قال البخاري : منكر الحديث ونقل ابن القطان ان البخاري قال : كل من قلت فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه .

ثم قال : اعلم ان كل من اقول فيه : مجهول ، ولا اسنده الى قائل ، فان ذلك قول ابي حاتم فيه . ا هـ فقوله (اقول فيه مجهول) وقوله (فان ذلك قول ابي حاتم فيه) مطابقان للاستعمال العربي السليم . والشواهد في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الجرح والتعديل كتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ، ولسان الميزان له اكثر من ان تحصى ، ولم يرد في شيء منها قال عنه او قالوا عنه .

واذا سأل سائل ماذا يقول النصارى في عيسى ابن مريم ، يكون الجواب : يقولون فيه : انه ابن الله ، وانه ثالث ثلاثة ، وانه الا قنوم الثاني ، تعالى الله عن ذلك . وقال البوصيري في الهمزية في وصف امرأة ابي لهب وعداوتها للنبي (ص) :

يوم جاءت غضبى تقول افي مثـ
ـلي من احمد يقال الهجاء

تعني افي يقال الهجاء الصادر من احمد صلى الله عليه وسلم ، تعني بالهجاء سورة (تبت يدا ابي لهب) فقال (في مثلي ، ولم يقل : عن مثلي) والقول يعدى بـ (في) في المسائل كذلك يقال : ما تقول في مسألة كذا وكذا . وقال عبد الله بن مسعود في مسألة سئل عنها : اقول فيها برأيي ، فان كان صوابا فمن الله ، وان كان خطأ فمني ومن الشيطان .

وقد اكثر من ذلك ابن بري في منظومته كقوله :

القول في التعوذ المختار
وحكمه في الجهر والاسرار

كيف تستعمل قال عنه

فان قلت : قد فهمنا من كلامك ان تعبير عامة الكتاب يقال عنه في موضوع قال فيه خطأ ، فأين تستعمل قال عنه ؟ فالجواب : يستعملها المحدثون في الرواية ، وقد اكثر من ذلك البخاري رحمه الله . فمن ذلك قوله في كتاب العلم من صحيحه . وقال شقيق عن عبد الله سمعت النبي (ص) . وقال ابو العالية عن ابن عباس عن النبي (ص) . وقال انس عن النبي (ص) . وقال ابو هريرة عن النبي (ص) . ا هـ

فمعنى قال هنا : روى وحدث . فهذا هو الفرق بين قال فيه وقال عنه . يجب علينا أن نميز بينهما وأن نستعمل كلا منهما فيما يناسبه . والله الموفق .

38 ـ الخلط والخبط في استعمال العداء بالمهملة واستعمال الغذاء بالمعجمة . اذا استمعت الى الاذاعات . او قرأت الصحف تجد اكثر المتكلمين والكتاب لا يميزون بين الغداء والغذاء . ودونك معناهما وضبطهما . فالغداء ـ بفتح الغين المعجمة ودال مهملة ـ ممدودا ، هو طعام الغدوة ، وهي اول النهار . قال الله تعالى في سورة الكهف في قصة موسى مع الخضر : (62 فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) .

قال البيضاوي : (فلما جاوزا) مجمع البحرين (قال لفتاه آتنا غداءنا) ما نتغدى به . (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قيل لم ينصب حتى جاز الموعد ، فلما جاوزه وسار الليلة والغد الى الظهر القى عليه الجوع والنصب . ا هـ

وقال الراغب في غريب القرءان : (غدا) الغدوة والغداة من اول النهار ، والغداء طعام يتناول في ذلك الوقت . ا هـ

وقال صاحب اللسان : والغداء : الطعام بعينه ، وهو خلاف العشاء . ابن سيده : الغداء طعام الغدوة ، والجمع أغدية ، عن ابن الاعرابي . أبو حنيفة : الغداء رعي الابل في اول النهار ، وقد تغدت وتغدى الرجل وغديته ، ورجل غديان وامرأة غديا ، على فعلى ، واصلها الواو ، ولكنها قلبت استحسانا ، لا عن قوة علة ، وغديته فتغدى . ا هـ

اذا فهمت هذا علمت ان تسمية الناس اليوم للطعام الذي يؤكل بعد الظهر غداء مخالف لاستعمال العرب ، لان العرب لم يكونوا يأكلون في وقت الظهر ، وليس في لغتهم اسم لطعام يؤكل وقت الظهر ، ولم يكونوا يأكلون بالليل ، ولذلك لا يوجد في لغتهم اسم لطعام يؤكل بالليل ، وانما كان عندهم غداء وعشاء ، فالغداء تقدم بيانه ، والعشاء طعام العشي .

قال صاحب القاموس : والعشي بالكسر ، والعشاء كسماء طعام العشي ، الجمع اعشية ، وعشى وتعشى اكله ، وهو عشيان ومتعش ، وعشاه عشوا ، اطعمه اياه كعشاه واعشاه . ا هـ

وفيما سوى هذين الطعامين لا يتقيد الاكـل بوقت معتاد متى جاع الانسان اكـل . ومن امثـال العرب : خير النهار بواكره ، وخير العشاء سوافره ، والبواكر هي ساعات الابكار ، الساعات الاولـى مـن الصبح . والسـوافر ساعات العشي التي لا يزال فيها ضوء النهار موجودا قبل ان يجيء الظلام ، ومرادهم بذلك التبكير للاشغال والاعمال ، وتعجيل العشاء قبل أن ياتي الظـلام .

ولا يزال كثير من العرب عاملين بذلك الى يومنا هذا ، فاني كنت أسكن بقرية الزبير بقرب البصـرة ، وسكانها من أهل نجد ، وهم محافظـون على العادات العربية ، فكنت اذا خرجت الى المسجد لصلاة المغرب، ووقفت فى الصف اشم رائحة الدسم تنبعث عن يميني وشمالي ، وذلك دليل على انهم تعشـوا قبـل غروب الشمس ، ولكنهم لم يحافظوا على الغداء فى وقته الذي كانت عليه العرب ، فانهم يفطرون فى الصبح بما تيسر، ويؤخرون الغداء الى ان يصلوا الظهر .

ولما كنت ساكنا بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة الف وثلاثمائـة وسـت وأربعين وسبـع وأربعين رايت سكان المدينة كلهم يتغدون فى الضحى، ويتعشون بين العصر والمغرب كما كان العرب الاولون يفعلون . اما فى هذه السـنة فقد اقمت فى المدينة ستة عشر يوما ودعاني كثير من الاخـوان الى الطعـام ، فرايت تلك العادة قد تبدلت ، وصار سكان المدينـة ياخذون بعادة أهل المدن وهي ثلاث اكلات فى النهـار حين يصبحون ، وحين يظهرون ، وحين يمسـون .

وقد تجنبت ذكر الوجبة التي اعتاد الكتـاب التعبير بها عن كل واحدة من الاكلات الثلاث المعتادة ، لانهم يستعملونها خطأ .

قال صاحب اللسان : الوجبة : الاكلة فى اليـوم والليلة . قال ثعلب : الوجبة اكلة فى اليوم الى مثلهـا من الغدا . ا ه

والاوربيون ايضا يعملون بشطر المثل العربي ، وهو خير العشاء سوافره ، فانهم يأكلون عادة أعشيتهم بين السـاعة السادسـة والسابعة ، وتكون الشمس في الصيف لا تزال مرتفعة . ويقول علماء الصحـة : ان ذلك خير من تأخير الطعام الى ان يكون قبيل النوم ، فان النوم على امتلاء المعـدة تنشأ عنـه امراض ، ولا يكون النوم معه هنيئا . اما اذا تعشى الانسـان مبكرا ، فانه يتحرك بعد العشـاء ، فلا يأتي وقت النوم حتـى يتم الهضم الاول للطعام .

مكناس : تقي الدين الهلالي



أوضاع التعليم في العالم العربي

للدكتور عبد العزيز القوصي

اذا أردنا أن ندرس أوضاع التعليم وتطوره في الوطن العربي فلابد أن نتفق أولا ولو بصورة اجمالية على حدود هذا الوطن من جوانبه المختلفة ، جوانب أرضه وسكانه وخيراته وماضيه وحاضره ومستقبله .

والوطن العربي هو مجموعة الدول والبلدان الواقعة من الخليج شرقا الى الاطلسي غربا ويحده في الشمال البحر الابيض ، ويمتد في الجنوب الى الجنوب العربي والسودان والحدود الجنوبية لليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وهناك دول اخرى تشتاق لان تكون ضمن المجال العربي ومن هذه موريتانيا والصومال وغيرها .

مجموع السكان في العالم العربي وصل الى 105 مليون في العام الماضي ، وقد كان 80 مليون من عشرة أعوام ، 98 مليون من خمسة اعوام ، اي انه يزيد بما يقرب من 3 ملايين في كل عام .

ونلاحظ ان الاسرة في العالم العربي كبيرة الحجم بها أب وام وعدد كبير من الاطفال والناشئين ، هذا بخلاف الاسرة الاوروبية ، معنى ذلك أن نسبة الصغار في الاسرة العربية اكبر منها في غيرها ، ونجد بالدراسة الاحصائية الدقيقة ان نسبة الصغار الى مجموع السكان في العالم العربي نسبة كبيرة ، فالذين تقل سنهم عن عشرين عاما تبلغ نسبتهم في العالم العربي 50٪ تقريبا ، ولكن نسبتهم تبلغ في بعض دول أوربا وامريكا 30 ٪ اي أن نسبة الصغار للكبار في العالم كنسبة 1:1 ، واما في اوروبا فهي كنسبة 4:3 . ومعنى ذلك أن مسؤولية الكبار نحو الصغار في العالم العربي مسؤولية مضاعفة اذا هي قورنت بنظيرتها في أوروبا وامريكا . واذا تذكرنا أن وسائل التعليم والصحة والرعاية في العالم العربي اقل منها في اوروبا وأمريكا فمعنى ذلك أن على الكبار في العالم العربي أن يضاعفوا الجهد ليضاعفوا الانتاج ويضاعفوا الدخل حتى يحسنوا رعاية الاعداد الهائلة من الصغار والناشئين في الظروف الحالية . فعلى الكبار في العالم العربي مسئوليات مضاعفة اذا قيست بمسئوليات الكبار في العالم الاوروبي .

فالظاهرة السكانية الاولى هي سرعة زيادة السكان وثانية هذه الظواهر هي كثرة الصغار بالنسبة للكبار ، ولهاتين الظاهرتين مشكلاتهما في ميدان التعليم .

وأغلب هؤلاء السكان موزعون في الاودية وعلى شواطىء البحار والعمل الاساسي لهم هو الزراعة . ومعروف أن المشتغلين بالزراعة يميلون عادة الى المحافظة وعدم التجديد ويتقدمون بحذر شديد اكثر من غيرهم مما يخلق مشكلة اخرى امام المسؤولين عن التعليم . ومن بين هؤلاء السكان اعداد كبيرة من المشتغلين بالرعي والمتنقلين وراء الثروة الحيوانية بوجه عام ، ويقدر هؤلاء ببضعة ملايين ، ويشكل هؤلاء مسألة اخرى تواجه المسؤولين فاذا عملنا على سرعة توطينهم قضينا على مصدر هائل من مصادر

الثروة الحيوانية واذا تركناهم على ما هم عليه فانهم يظلون على حالهم من التخلف الصحي والثقافي ولا يقومون بأدوارهم كاملة كمواطنين .

هذه نظرة عاجلة مبتسرة نضيف اليها خاصية تميز العالم العربي عن غيره من اجزاء العالم وهذه الخاصية تثير تساؤلات كثيرة في بقية أنحاء العالم فالكثيرون يسألون **ما هو هذا الذي يجعل من العالم العربي تلك الوحدة أو ذلك التماسك** . ولا ضرورة لمحاولة اجابة كاملة عن هذا السؤال الهام ، ولكن الذي لامراء فيه ان حضارات كثيرة كانت على جانب كبير من القوة والسلطان وقد ظهرت هذه الحضارات وبقيت لها بعض آثارها ، غير انها لم تبق بكيانها ووحدتها . فرغم ما كانت عليه الحضارة الاغريقية من قوة فلا يوجد عالم اسمه العالم الاغريقي ، ورغم ما كانت عليه الحضارة الرومانية من سلطان فلا يوجد ما يسمى العالم الروماني ، **ولكن يوجد ما يسمى العالم العربي،** ولاشك أن لهذا دلالته فعلى الرغم مما يتصف به العالم العربي من تنوع وسعة وعلى الرغم مما مر به من احداث وازمات فان هناك نوعا من التكامل والترابط والوحدة والتماسك يجعلنا نتكلم عن العالم العربي او الوطن العربي .

وهناك مجموعة من العوامل تدخل في تكوين هذه الوحدة منها الدين ومنها اللغة ومنها التصاهر ومنها الكفاح المشترك والتاريخ المشترك ، ومنها الشعور المشترك بالخطر المشترك . هذا الشعور الذي لاتتوقف درجات حدته وشدته الا على ما يوجد من مسافات زمانية ومكانية تتلاشى مع اليقظة وحدة البصر ووضوح الرؤيا ، وتتلاشى كذلك مع وجود الاستعداد بالاساليب العلمية والتكنولوجية الحديثة .

والذي لاشك فيه كذلك أن الحضارة العربية وما تتضمنه من ثقافة لها ابعادها في العمق والاتساع والتنوع ولها ابعادها الزمنية السحيقة المستمرة مما أكسبها من الخصوبة والقوة والتماسك ما لانجده في الوان الحضارات الاخرى . وهذا هام نريد أن نحسن استخدامه .

فهذه الظاهرة المميزة لكل ما هو عربي من فكر وثقافة وحضارة تجعل من غير الممكن للعالم العربي أن ينطلق في نهضته الا اذا كان انطلاقه الى مستقبله من حاضره مستندا على ماضيه ، وتلقى هذه الظاهرة على المسئولين عن التعليم عددا من الاسئلة الملحة الهامة .

يريد العالم العربي أن يتقدم وان يواكب الحضارة ، وأن يرفع من مستوى حياة افراده وان يوفر لهم القوة والكرامة واحترام الذات والحرية والعدالة والطمأنينة ، يريد ان يزيد من انتاجه وأن يزيد من دخله وثرواته ، يريد ان ينمو وأن يكون نموه متتابعا مستمرا . لابد ان يهدف الى هذا كله ، فكيف السبيل ؟ يلقى في روعه احيانا أن الفساد كامن في جذوره فليجرفها ويقتلع نفسه منها فهي قديمة بالية .

ويلقى في روعه احيانا ان لجذوره ماضيا مجيدا فليحافظ عليها وليتمسك بها. ويمثل الاتجاهان صراعا هائلا بين ما هو شرقي وما هو غربي ، بين ما هو استقلالي وما هو استعماري ، بين ما هو قديم وما هو حديث ، بين ما هو مادي وما هو روحي ، بين ما هو اصيل وما هو مستورد ، بين ما هو تقليدي وما هو تجديدي . فليكن سؤالنا كيف يمكن العالم العربي أن ينطلق بشخصيته العربية وبكيانه العربي مع بقية اجزاء العالم حتى يقوم بدوره في رعاية أمر نفسه وفي الاسهام في تقدم البشرية وسعادتها وسلامها مع احترامه لنفسه وصيانته لحقوقه وخلق الظروف التي ترغم غيره على احترامه واحترام حقوقه ؟

هنا تظهر اسئلة كثيرة في ميدان التعليم في ماضيه وحاضره ومستقبله ، في مناهجه وكتبه ، في وسائله ولغته ، في اهدافه وفلسفته ، وفي الصورة التي يرى التعليم ان يكون عليها المواطن حتى يتسق مع ما تتجه اليه الدولة او ما يجب أن تتجه اليه .

وينطلق من هذا سؤال آخر عن شكل المعلم المطلوب لتعليم هذا المواطن .

ولكي نوضح الموقف بعض الشيء نقدم بمقدمة تاريخية سريعة . **فقد ظهر الاسلام** في القرن السابع الميلادي وكان له اثره الشامل الواسع العميق في كل نواحي الحياة من عقيدة وسياسة وتنظيم واجتماع وحياة يومية فردية وجماعية وعالمية . وفي مدى قرن من الزمان انتشرت موجة عربية عارمة من اواسط آسيا الى المحيط الاطلسي واستمرت هذه النهضة **قرابة الخمسة قرون ثم بدأ نوع من الحكم الاجنبي** اصاب البلاد بالركود والتجمد واستمر هكذا حتى أوائل القرن الحالي .

كذلك كان العالم العربي **قد انعزل عن اوروبا** بسبب كشف رأس الرجاء الصالح خلال القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي . فبعد أن كانت تمر في الارض العربية قوافل التجارة من اوروبا اصبحت هذه تمر حول افريقيا في طريقها الى آسيا

متجنبة البلاد العربية ، كل هذا زاد فى عزل البلاد وفى تأخرها السياسي والاقتصادي .

وقد صحب هذا التخلف والتجمد تخلف وتجمد فى التعليم .

فحتى القرن الماضي كان التعليم المنتشر هو تعليم الكتاتيب وكان الغرض من التعليم قاصرا على الغرض الديني بمفهومه المحدود ، أما تعلم العلم للتعامل السليم والحياة الطيبة فلم يكن هو الاساس . ونظر المجتمع العربي للعلم نظرة ضيقة محدودة فاعتبروا الفلاسفة زنادقة واعتبروا علماء الطبيعة والرياضيات كفارا ؛ حتى ان الحسن ابن الهيثم (ونظرياته فى البصريات تعتبر اساسا حتى اليوم) قد اعتبر فى تلك الايام مارقا واتهم صراحة بالزندقة والكفر .

معنى هذا أن التعليم فى العالم العربي كان خلال القرن الحادي عشر الهجري والثاني عشر الهجري أو السابع عشر والثامن عشر الميلادي ، فى حالة متجمدة راكدة متخلفة ثم بدأ الغرب يجرد حملاته على العالم العربي، خصوصا بعد أن بدأ يتقلص الحكم التركي ، واستعمل الغرب فى ذلك نتائج العلم الحديث مما كان قد كسبه من علوم العرب . وبدأ العالم العربي يصحو على ضربات الغرب ولكن هذه الضربات استمرت حتى تحولت الى غزو واحتلال بعضه من جانب انجلترا وبعضه من جانب فرنسا وبعضه من جانب ايطاليا وبعضه من جانب اسبانيا .

واتجه الفرنسيون فى ذلك الوقت الى فرنسة البلاد التى دخلوها فقصدوا الى محو الشخصية العربية وازالتها واحلال شخصية مفرنسة تابعة لهم. كذلك الانجليز اتجهوا فى ذلك الوقت الى طبع البلاد بطابع يسهل لهم استمرار الحكم . ولا نريد ان ندخل فى تفاصيل النظم والمناهج والطرق ولغة التعليم ، فهذه كلها امور معروفة وما زالت بقاياها وآثارها موجودة حتى الان . ولكن عهود الاحتلال تميزت بتضييق أبواب التعليم والتقتير عليه وجعله وسيلة لاعداد الموظف الطيع الذي يستخدمه لصالحه . وتميزت بالحد من التعليم العلمي والعملي والمهني واستخدام التعليم لايجاد طبقات ثقافية منفصلة بعضها عن بعضها الآخر .

ولنأخذ ناحية التقتير كمثال ، كان عدد المدارس الابتدائية الحديثة اول الاحتلال الانجليزي فى مصر 34 مدرسة اصبحت هذه عددها 39مدرسة بعد أربعين عاما، وكانت نسبة موازنة التعليم الى موازنة الدولة 0٫8٪ وقد تقدمت ببطء حتى أصبحت 4 ٪ بعد اربعين عاما وقد أصبح الان ما يصرف على التعليم 17٪ من جملة ما يصرف من مجموع اعمال الدولة .

وخلال القرن الحالي بدأت الدول العربية تتحرر الواحدة بعد الاخرى .

ففى عام 1922 استقلت مصر بتحفظات مشهورة اربع ، والعراق فى عام 1932 ، ولبنان فى عام 1943، وسوريا فى عام 1944 ، وجمهورية جنوب اليمن الشعبية فى عام 1967 ، وليبيا فى عام 1952 ، وتونس فى عام 1956 ، والمغرب فى عام 1956 ، والجزائر فى عام 1962 . وهكذا تحرر العالم العربي من أوله الى آخره تقريبا والجزء الباقي فى منطقة الخليج فى سبيله الى التحرر النهائي .

وكل حركة تحررية تصاحبها ثورة تعليمية ، هذه الثورة جزء من ثورة اصلاحية عامة تكون قوية قبيل الاستقلال وبعيده ، ثم تضعف حدتها ثم تعود قوتها مرة اخرى ، هذه ملاحظة تاريخية عامة . وتتناول هذه الثورة عداد من يتعلمون وتتناول كذلك انماء الروح القومية وانماء الصفات التى تساعد على المحافظة على الاستقلال وعلى تدعيمه وفرق بين نظام تعليمي يسبق التحرر ويعمل على خلق الاتباع ونظام تعليمي يرافق التحرر ويحافظ على مكاسبه . فرق بين اعداد الشخصية التابعة واعداد الشخصية المستقلة . فرق اعداد الشخصية المتقوقعة واعداد الشخصية المنطلقة البناءة .

وهنا نجد ان الدول العربية قفزت فى ناحية الكم ولكنها من ناحية الكيف ومن ناحية محتوى التعليم حافظت احيانا على ما درجت عليه مع الدول الحاكمة واحيانا تدافع عنه حتى بعد أن تخلت عنه الدولة الحاكمة نفسها . اي انها تدخر بعض رواسب الماضي المتخلفة من المستعمرين ولهذا اسباب سيكولوجية يسهل تحليلها وفهمها فى ضوء ما يسميه علماء النفس بالتناقض العاطفي Ambivalency حيث يجمع الانسان فى نفسه بين الكراهية والاعجاب للموضوع الواحد .

ومن امثلة القفزات التعليمية ان عدد تلاميذ الابتدائي فى ليبيا كانوا 000 40 فى عام 1952 واصبحوا 000 159 فى عام 64/63 ، واصبحوا 000 219 فى عام 67/66 فكانت القفزة الاولى بمعدل 30٪ ، ولكن عندما اقترب التعليم من درجة التشبع وصلت 15٪

وعدد تلاميذ الابتدائي فى سوريا كان 148 الف فى عام 45/44 واصبح 647 الف فى عام 65/64 .

وعدد تلاميذ الابتدائي فى العـراق كان 37500 فى عام 1932 واصبح 957 الف فى عام 65/64 .

وعدد تلاميذ الابتدائي فى مصر كان 380 الف فى عام 1922 واصبح 1٫400 الف فى عام 1952 ، و 3٫5 مليون فى عام 1966 . كذلك تغز تلاميذ الثانوي فى 30 عاما من 10 آلاف الى 160 الف طالب وطلاب العالي من 4 آلاف الى 40 الف فى نفس المدة .

وقد تناول الاصلاح نواح كثيرة من التعليم غيـر انفتاح ابواب التعليم وزيادة الميزانيـة اذكر منها مـا يأتـي :

اولا) — توحيد التعليم الابتدائي والاصرار على المدرسة الواحدة تحقيقا للعدالة والديمقراطية وتكافؤ الفرص وتحقيقا للتجانس العقلي المؤدى الى وحـدة الامـة .

ثانيا) — التوسع فى التعليـم العالي والتعليـم المهني والعلمي والعملي مما يؤدي الى تكوين القيادات والقوى العاملة المنتجة الحديثة .

ثالثا) — تقارب نظم التعليم فى البلاد العربيـة ، فهناك توحيد السلم التعليمي والقدر المشترك والاتفاق على توحيد الاسس مع مراعاة الاختلافات فى الظروف والبيئـات .

رابعا) — العناية بتعليم الكبار وتعليم المعوقين واعداد المعلمين وتحسين الوسائل التعليمية .

خامسا) — العناية بدراسات البيئـة وانمـاء الناحية القومية المحلية والعربية ودراسـة مصـادر الثروة فى البلاد ودراسة أحسن الطرق لاستغلالها .

سادسا) — الاصـلاح الاداري وزيـادة مـن اللامركزية مما ينمي روح التعاون وروح الاستقـلال فى وقت واحد .

سابعا) — وضع المدارس الاهلية والاجنبيـة فى وضعها المقرر طبقا لاتجاهات الدولة .

وليس معنى هذا كما قلت ان التحرر السياسـي (او العسكري) صحبه تخطيط كـاف للتحرر الثقافـي والاقتصادي ؛ فكثير من الدول التـي تحررت حديثـا يبهرها التحرر العسكري والسياسي ثم تظل تتعثـر فى الوان من الاحتلال الثقاق والاقتصادي مما يجعـل الوان التحرر السياسي والعسكري شكلية سطحية ، ولذلك وجب أن يخطط التعليـم تخطيطا دقيقـا يطهر الارض العربية من الالغـام الثقافية ويطهر العقـول العربية من السموم الفكرية ويعطيها المناعة والقـوة حتى تنشىء المواطنين الاقوياء الذين يتحكمون بأيديهم فى حقوقهم ومصائرهم وهنا يمكن أن نوجه عددا مـن الاسئلة :

1) هل نحن نربي ابناءنا على الطاعة والامتثال والخضوع لاوامر **خارجية** أم نربيهـم على التفكيـر والمناقشة والانطلاق والتحرر واصالة الرأي . وهـل يمكن الجمع ؟

2) هل نحن نربي أبناءنا على عادات ثابتة منظمة ام نربيهم على حسن التصرف وسعة الحيلة وتوقـع الاحتمالات وخصوبة الافكار . وهل يمكن الجمع ؟

3) هل نحن نربي ابناءنا على الواقعية وعلـى المواجهة العملية للامور أم نربيهم على مثالية خيالية لا مجال لتحققها الا فى العبارات الجميلة والنصائح الثمينة وقصائد الشعر وقلائد النثر ؟

4) هل نحن نربي ابناءنا على تحمل مسئولياتهم أم نرعاهم ونعطف عليهم ونحمل مسئولياتهم عنهـم ، ونربيهم على الرخاوة والنعومة ونفقدهـم الخشونـة والصلابة والقوة والقدرة على تحمل التبعات . وهـل يمكن الجمع ؟

5) هل نحن نربي أبناءنا على الانفرادية ام على العمل المتعاون فى جماعات تقف كالبنيان يشد بعضـه بعضا . وهل يمكن الجمع ؟

هذه اسئلة عامة تؤدي بنا فى طريق واضح الـى اسئلة خاصة تتناول المناهج والكتب والطرق واعـداد المعلمين . فنحن نريد أن نربي أجيالا متحركة اكثر منها ساكنة مستمتعة مطيعة ؛ أجيالا مفكرة اكثـر منهـا حافظة .

لم تفكر الدول العربية حتى الان تفكيرا جديا فى هذا الاتجاه ، لم تفكر فى التربيـة المؤديـة الى بنـاء الشخصية وانما فكرت فى أناس يحفظون العلم ويؤدونه فى الامتحانات ويأخذون الشهادات وهذه الشهـادات هي لهم مفتاح الحياة سواء بنيت الشخصية ام لم تبن يرضعون بها من الدولة ما يشبه ما كانوا يرضعونـه من امهاتهم عندما كانوا اطفالا صغار السن .

ولننظر الان الى الارقام بصورة اعمق فنجـد ان عدد التلاميذ والطلاب فى كافة المراحل فى العالم العربي

كله زاد من 8 مليون عام 1960 الى 12 مليون عام 1965 وازداد عدد تلاميذ الابتدائي من 6ر3 مليون الى 9ر7 مليون اي بمعدل سنوي قدره 11٪ منها 10٪ للبنين و 12٪ ونصف للبنات فى نفس الفترة نجد ان عدد تلاميذ الثانوي (بمافيهم اعداد معلمي المرحلة الاولى والمدارس الفنية) قد ازدادوا من 1 مليون ونصف الى 2 مليون وذلك بمعدل 15٪ ، 63٪ للبنين ، 19٪ للبنات ونجد فى التعليم العالي ان العدد ارتفع من 157 الف عام 1964 الى ربع مليون عام 1966 اى بزيادة معدلها 29٪ .

وعند التدقيق نجد ان معدل الزيادة لدى البنات فى اي مرحلة من مراحل التعليم اعلى منها لدى البنين. وان معدل الزيادة فى اي مرحلة اعلى منها فى المرحلة السابقة فمعدل نمو العالي اعلى من معدل نمو الثانوي ومعدل نمو الثانوي اعلى من معدل نمو الابتدائي . هذا مع العلم ان نسبة البنات الى المجموع لم تتغير كثيرا فى اي مرحلة ففي عام 1960 كانت 33٪ للابتدائي وفى عام 1965 اصبحت 35٪ وفى عام 1960 كانت 25٪ للثانوي وفى عام 1965 اصبحت 26٪ للثانوي ، وفى الجامعة ارتفعت من 17 الى 19٪ .

ونجد بالنسبة لليبيا ان اعداد التلاميذ والتلميذات قد نمت بنسب كبيرة ونجد ان هناك نوعين من النسب بعضها يرجع الى ما بعد الاستقلال وقبل ظهورالبترول وبعضها يرجع الى ما بعد ذلك ، ففي الفترة الاولى نجد ان معدل نمو الابتدائي 2ر10٪ وفى الاخيرة نجده 8ر14٪ وبالنسبة للفني نجده فى الاولى 1ر5٪ وفي الثانية 4ر12٪ ، ولاعداد المعلمين نجد فى الاولى 4ر5٪ وللثانية 9ر47٪ .

كذلك نسبة البنات الى المجموع نجد بها بعض الظواهر التي تستحق الدرس فقد تغيرت هذه النسبة للابتدائي من 18٪ فى عام 60/59 الى 9ر28٪ فى عام 67/66 وتغيرت بالنسبة للثانوي من 2ر4٪ فى عام 60/59 الى 8٪ فى عام 67/66 وتغيرت بالنسبة لاعداد المعلمين من 8ر15٪ فى عام 60/59 الى 7ر35٪ فى عام 67/66 .

وتوجد فى هذه الارقام وفى غيرها ظواهر كثيرة يمكن تفسيرها . من هذه الظواهر ما ذكرناه من فروق فى معدل النمو فى مختلف المراحل الابتدائي والثانوي والعالي وللبنين والبنات ومن تقدم ظاهر فى تعليم البنات مع قلة فى التغير النسبي ويمكن ارجاع هذا كله الى البعد والقرب من درجة التشبع بالتعليم فى البنية السكانية فتعليم البنين اقرب الى درجة التشبع من تعليم البنات ولذلك نجد معدل النمو فى الاول ابطء من الاخير ، والتغير النسبي فى تعليم البنات مازال ضئيلا مما يدل على ان القوى المحافظة فى المجتمع العربي ما زالت تعمل بشدة فى هذه الناحية .

* * *

ويمكن ان نسأل هنا عن المسافة الواقعة بيننا **وبين تحقيق تعميم التعليم الابتدائي لجميع من هم فى سن التعليم الابتدائي** فى المجتمع العربي .

لكل الف من السكان العرب يوجد 170 طفلا من سن 6 الى سن 12 منهم 85 ذكر ، 85 انثى . من هؤلاء فى عام 65/64 يوجد 60 ولدا ، 32 بنتا فى المدارس الابتدائية . يوجد خارج المدارس لكل 1000 من السكان 25 ولدا ، 53 بنتا اي 8 مليون ونصف طفل فى سن الدراسة الابتدائية لايتعلمون . يلاحظ ان بين المسجلين بالمدارس تلاميذ كبار وصغار وهذا يدخل فى الاحصاء بعض التصحيحات التي تجعل ارقام 65/64 تقفز الى 9 ملايين .

اضف الى هذا ان السكان العرب ينمو عددهم بمعدل 8ر2٪ تقريبا اي انه يتضاعف كل 25 سنة . معنى هذا ان عدد السكان فى سن الدراسة الابتدائية سيكون 36 مليون فى عام 1990 اي 3 مرات ونصف قدر المسجلين حاليا فى المدارس . يصبح على العالم العربي ان ينفق 3 مرات ونصف قدر الميزانية الحالية على التعليم الابتدائي . هذا اذا افترضنا ثبوت الاسعار وثبوت التكلفة وعدم ادخال اي تحسين على نوعية التعليم . ولكن الابحاث التي اجريت قد دلت بانه يمكن **ضبط الزيادة فى حجم الاسرة** بتعليم الفتاة فكلما ازداد تعليم الفتاة نقص الانجاب وهذا أمر يسهل تفسيره وبذلك يكون الانطلاق فى تعليم الفتاة عاملا مهما فى نشر التعليم اذ تصبح الاسرة عاملا فى هذا وعاملا مهما فى تخطيط الاسرة وتنظيم الانجاب وبالتالي عاملا اقتصاديا هاما فى تحديد نفقات التعليم ورفع المستوى السكاني كيفا لا كما .

* * *

وهنا انتقل الى نقطة اخرى تتعلق **بسلم التعليم** وتتابع مراحله .

كان سلم التعليم مضطربا قبل التحرر وكان للمرحلة الواحدة انماط مختلفة منها نمط يحتوي الكتاتيب التقليدية والمدارس الاولية والمدارس الابتدائية والمدارس الاجنبية بانواعها المختلفة أي أنه كان هناك اربعة انواع من التعليم على الاقل في المرحلة الاولى مما يمزق وحدة الفكر في منبعه وبذلك يمزق الوحدة الوطنية .

فكان الوضع في تونس مثلا على النمط الآتي :

كانت هناك المدارس الفرنسية للذكور او للبنات او المختلطة .

والمدارس الفرنسية العربية للذكور .

والمدارس الفرنسية العربية للبنات .

والمدارس القرآنية العصرية .

والكتاتيب والمعاهد ذات الصبغة الفرنسية البحتة

والمعاهد التي سمي تعليمها صادقيا او تونسيا وفيها جمع بين الفرنسية والعربية .

والمعاهد الزيتونيه الجارية في مناهجها وطرقتها على المذاهب التقليدية الموروثة .

هذه الحال او ما يشبهها كانت موجودة في كل بلد عربي تقريبا ما عدا المملكة العربية السعودية وكان الاحتلال يشجع هذه الفروق بل ويؤكدها بأساليب مختلفة كالمصروفات المدرسية والامتحانات ومواد المنهج وتفاصيله وفرص العمل بعد التخرج ... وغير ذلك .

ويلاحظ ان هذه الانواع يمكن تقسيمها الى تعليم ديني تقليدي ، وتعليم أجنبي ، وتعليم وسط يأخذ بجانب من النواحي التقليدية وبجانب من النواحي الاجنبية .

ولذلك كان أول ما اتجهت اليه البلاد العربية هو أن يكون في الدولة تعليم **ابتدائي واحد لجميع أبناء الشعب مدته في العادة ست سنوات** . وهذا حجر الاساس في تطبيق مبادىء العدالة والديمقراطية وتكافؤ الفرص وتكوين عقلية متجانسة متفاهمة داخل كيان الامة .

وقد قامت الدول العربية اما منفردة او خلال الجامعة بمحاولة **توحيد سلم التعليم جملة وتفصيلا في البلاد العربية** ، وقد اتفقوا على هذا في مناسبات مختلفة نذكر منها اتفاق الوحدة الثقافية وميثاق الوحدة الثقافية بين مصر وسوريا والاردن في سنوات 1957 و 1958 ، واجتماعات وزراء التربية في بيروت وبغداد وطرابلس ليبيا، فقد اتفقوا على أن يكون سلم التعليم 6 للابتدائي 3 للاوسط و 3 للثانوي . وتسير اغلب الدول العربية على هذا النظام فيما عدا الكويت ، فهي تسير على نظام 4 — 4 — 4 والمغرب 5 — 4 — 3 ولبنان 5 — 4 — 3 وبعض بلدان الخليج .

يسير السودان كذلك على نظام 4 — 4 — 4 وهو يبحث ويدرس في الوقت الحاضر ليسير على نظام قريب من 6 — 3 — 3 . وتسير المملكة العربية السعودية على النظام 6 — 3 — 3 وهو النظام الذي اوصى به مؤتمر بغداد عام 64 واوصت به الاتفاقيات والمواثيق وهو النظام الشائع في العالم في الوقت الحاضر . ويجدر بي ان اذكر ان ليبيا كانت رائدة في هذا المضمار فقد وضعت هذا النظام وطبقته ابتداء من عام 1955 .

فيوجد الآن في كل بلد عربي قاعدة للتعليم الابتدائي مدتها في اغلبها 6 سنوات ثم تتدرج الى الثانوي من جزئين كل منهما طوله في اغلبها 3 سنوات ثم تتدرج الى التعليم العالي .

ويزداد التنوع في التعليم كلما ارتفع في سلمه . فبينما التعليم الابتدائي موحد للجميع يتنوع بعض الشيء في المتوسط ثم يتنوع أكثر في الثانوي ثم يتنوع في العالي اكثر واكثر . هذه كلها امور طبيعية منطقية .

والسؤال الذي يشغل المسئولين في التعليم **هل تكون هناك مدرسة واحدة** متنوعة للمتوسط ينتقل التلميذ داخلها في خبرات مختلفة ويكتشف فيها اتجاهاته ثم يختار طريقه **أم تكون هناك مدارس متنوعة** . وهل تطبق للتوجيه اختبارات أم خبرات وموضوع التوجيه في المرحلة الوسطى موضوع صعب يحتاج الى درس وتدقيق . ولا يكفي فيه الاقتداء بما يجري في الغرب .

وقد جربت على اية حال فكرة المدارس المتوسطة المنوعة التجارية والصناعية والزراعية والنسوية فلم تنجح ثم عدل عنها اخيرا في كثير من الدول .. وهذا موضوع طويل لا داعي للتوغل فيه الآن .

خلاصة الموقف أن جميع الدول العربية فيها تعليم ابتدائي للبنين والبنات أو مختلط ، ثم تعليم ثانوي مكون من جزئين ثم تعليم عال وبالدول العربية 26 جامعة منها جامعة الكويت والجامعة الليبية والجامعات الاسلامية والجامعات الامريكية والفرنسية وغيرها ، يضاف الى هذا كثير من المعاهد العالية والكليات

المستقلة يزيد عددها عن الخمسين وتركز على تخريج فنيين متخصصين من مستوى عال .

وهنا نجد ان كل مسؤول عن التعليم يسأل نفسه **عن شكل الهرم التعليمي والنسب بين أجزائه** فالقاعدة هي الابتدائي يليها الثانوي بأجزائه وانواعه ثم العالي بأجزائه وانواعه . ويمكن أن يدرس الهرم وذلك بتحليل اجزائه من حيث الشكل والمحتوى أو من حيث ما ينفق على كل جزء أو من حيث اعداد التلاميذ فى كل مرحلة . فاذا اخذنا الهرم من حيث اعداد التلاميذ نجد ان الشكل العام للهرم يختلف باختلاف درجة تقدم الدولة .

ففي فرنسا مثلا كل 100 تلميذ فى الابتدائي يقابلهم 56 فى الثانوي و 7ونصف فى العالي . وفي امريكا الشمالية كل 100 تلميذ فى الابتدائي يقابلهم 40 فى الثانوي و 10 ونصف فى العالي .

ومتوسط العالم كله به 100 للابتدائي و 26 للثانوي و 3ر6 للعالي . بينما العالم العربي فى المتوسط به 100 للابتدائي و 20ر7 للثانوي و 3 للعالي . وفي المغرب 100 للابتدائي يقابلهم 16 فى الثانوي و 0ر8 فى العالي. وفى السودان 100للابتدائي يقابلهم 12ر2للثانوي و 0ر7 فى العالي . وفى المملكة العربية السعودية 100 للابتدائي 9 للثانوي ثم 2 للعالي .

ونجد الموقف فى ليبيا فى عام 60/59 اذا كان للابتدائي 100 يكون الثانوي 10ر7 وللعالي 0ر5 وفي عام 67/66 اذا كان للابتدائي 100 يكون للثانوي 15ر7 والعالي 0ر8 . وقد حسبنا فى هذا التعليم الزراعي ولكن لم نحسب من يتعلمون فى الخارج وهم جد كثيرون .

والذي يهمنا الان انه اذا كان عدد التلاميذ في المرحلة الابتدائية يمثلون فعلا 60٪ ممن هم فى سن التعليم الابتدائي فان 20٪ من هؤلاء فقط يذهبون للثانوي و 3٪ منهم يذهبون للعالي .

هذا من جهة ومن جهة أخرى اذا قارنا فرنسا مثلا بالعالم العربي نجد بحسب الدراسات لعام 1966/1965 ان فى فرنسا لكل 1000 من السكان يوجد 118 فى الابتدائي و 66 فى الثانوي و 8ر5 فى العالي .

بينما فى العالم العربي كله لكل 1000 من السكان يوجد الان (اي فى عام 1966) 100 طفل بالابتدائي و 20 فى الثانوي و 3 فى العالي .

وليست المشكلة قاصرة على قلة تشبع المجموعة السكانية بالاعداد التي تتعلم من كل نوع وانما تتعداها الى تفريع التعليم وتنويعه والى ربط المراحل والافرع بالحاجات الاقتصادية وما تتطلبه من قوى عاملة والى تكوين المواطن الذي يمكنه أن يضطلع بمسئوليته ويحافظ على مكاسبه وينميها .

* * *

وواضح ان وجود الجامعات له تاثير طيب على التعليم الثانوي ووجود التعليم الثانوي له أثر طيب فى رفع مستوى الابتدائي. ولكن هناك خطر يجب الالتفات اليه فهناك نزعة لجعل برامج الثانوي كبرامج مصغرة للجامعة وبرامج الابتدائي كبرامج مصغرة للثانوي ، فاذا درسنا المدارس الزراعية الوسطى مثلا فى بعض البلدان نجد انها برامج مضغوطة لما يعطى فى كليات الزراعة . وهذا يؤدي الى التكديس ويفقد كل مرحلة من مراحل التعليم أهدافها وخصائصها . وللجامعة خطر آخر وهي انها تجتذب انظار التلاميذ فتصرفهم عن الالتحاق بالدراسات المهنية والفنية ، وقد لوحظ فى بعض البلدان العربية أن تيسير دخول الجامعات يتبعه خفض فى اعداد الملتحقين بالمدارس الفنية والمهنية ولذلك وجب أن تكون لهم فرص مناسبة لدخول الجامعات . لست بهذا انادي بعدم تشجيع الجامعات بل على العكس وقد كنت ممن اشادوا بفتح الجامعة الليبية فى عام 1955 واعتبرني البعض فى ذلك الوقت رجلا خياليا نظريا ، ومع ذلك فقد صدر المرسوم فى اواخر عام 1955 والذي انادي به هو كما كررت وجوب مراعاة التوازن بين المراحل المختلفة بعضها وبعضها الاخر ووجوب التوازن بين ما يقدمه التعليم وما يحتاج المجتمع لكي ينمو وينمي نفسه باطراد مستمر .

* * *

ويمكنني الان أن انتقل من الكلام عن المراحل الى **مسألة أخرى . معدل النمو** فى تلاميذ الابتدائي 11٪ ، ولكن معدل نمو المعلمين 5 ٪ ، ومعدل نمو المباني 3 ٪

اما سرعة نمو التلاميذ فمعناها التعطش الشديد للتعليم والبطء فى نمو اعداد المعلمين له عوامله الكامنة فى المهنة ورواتبها ومسئوليتها وجاذبيتها . اما البطء الشديد فى نمو المباني فسببه كثرة التكاليف والافتقار الى العقلية التخطيطية . ويمكن الاستفادة من المركز

الافريقي التابع لمنظمة اليونسكو الموجود بالخرطوم والمختص بالمباني المدرسية وذلك لتخفيض النفقات ليمكن التوسع في المباني .

اما موضوع المعلمين فقد دلت الدراسة على ان بالعالم العربي ما يقرب من 66 الف مدرس بالابتدائي غير مؤهلين وهؤلاء يعلمون ما يزيد على 2 مليون تلميذ فاذا عرفنا ان المعلمين المؤهلين بينهم نسبة قليلة الكفاءة ارتفع العدد فوق 2 مليون واذا عرفنا ان الاقبال على مهنة التعليم قليل وان العناصر الطيبة تميل الى الابتعاد وجدنا ان الامر في حاجة الى علاج حاسم . ويقل الاقبال على مهنة التعليم اكثر واكثر في البلدان المنتجة للبترول ففي المملكة العربية السعودية نجد 49٪ من الذكور و 90٪ من الاناث في مهنة التعليم الابتدائي هم من غير السعوديين ونجد في الثانوي 73٪ من الذكور و 100٪ من الاناث من غير السعوديين .

وقد احست ليبيا بهذه المشكلات وانشأت عددا من معاهد المعلمين والمعلمات العامة تطورت بعضها الى ما يسمى بالمعاهد الخاصة ، هذا لاعداد المعلمين والمعلمات للمدارس الابتدائية ، وسواء في اعداد المعلمين والمعلمات للمرحلة الاولى او المرحلة الثانية ، فان هناك معونات ومكافآت لاجتذاب خير العناصر الى مهنة التعليم ، واشير بهذه المناسبة الى ان منظمة العمل الدولية بالاتفاق مع منظمة اليونسكو قد وضعت مجموعة قيمة من التوصيات بالنسبة للمعلمين وهي تتناول رواتب المدرسين وتدريبهم واعدادهم وظروفهم وهي دليل طيب لكل وزارة تعنى بشئون المدرسين وتطوير احوالهم وتصلح دستورا للعمل الطويل المدى .

ومشكلة المشاكل في اعداد المدرسين **هي اننا لانريد مدرسا فحسب** وانما نريد ان نعد مدرسا يعد مواطنين لمجتمعات متطورة ومتغيرة وان سرعة هذا التغير متزايدة ولابد ان يكون هناك فرق **بين** المدرسين المألوفين الذين يساعدون التلميذ على حفظ مادة او فهمها للنجاح بها في امتحان تقليدي لم يتغير تغيرا يذكر (ولا في امريكا بلد التجريب) منذ ان ابتدعه الصينيون منذ آلاف السنين **وبين** المدرسين الذين يراد منهم اعداد مواطن واقعي عملي مسئول واضح الرؤية سريع التصرف واسع الحيلة سهل التكيف فيما يواجهه من عالم سريع التغير ابعاده دائمة الانكماش .

* * *

وبمناسبة الامتحان توجد مسألة اخرى **وهي رسوب التلاميذ وتسربهم** وقد لوحظ ان التسرب في مدارس الريف اكثر منه في مدارس المدن وان التسرب في مدارس البنات اكثر منه في مدارس البنين وان تسرب البنات في المدارس المختلطة اكثر من تسرب البنات في المدارس غير المختلطة ونسبة التسرب في مجموعها عالية جدا مما يزيد الاهدار ويزيد التكلفة وتصل نسبة الاهدار احيانا الى اكثر من 10٪ مما يخفض تلاميذ السنة السادسة الى اقل من نصف تلاميذ السنة الاولى .

ويظن البعض ان الريف لم ينل حظه من المدارس وان البنات لم ينلن حظهن من المدارس ، ولكن يلاحظ ان مدارس الريف الحالية اكثر تخلخلا من مدارس المدينة وان مدارس البنات اكثر تخلخلا من مدارس البنين ومعنى هذا ان وجود المباني المدرسية شيء واقبال الناس عليها شيء آخر ، فليس المهم اذن ان تكثر من المباني وانما المهم ان نعالج افكار الآباء واتجاهاتهم نحو التعليم وربما كان التعليم نفسه في حاجة الى اصلاح لبعض المواءمة .

* * *

وهناك موضوع هام بالنسبة للتنمية الاقتصادية وهذا الموضوع يتعلق بالتعليم **الفني والمهني** . اذا درسنا نسبة التعليم المهني الى مجموع التعليم الثانوي ودرسنا تطور هذه النسبة على سنوات فاننا نجد انها ارتفعت في الاردن في سبع سنوات من 2٪ الى 4٪ وفي السودان من 3ر5٪ الى 7٪ وفي ا ج . ع . م من 13٪ الى 19٪ . ليس معنى هذا انه ليس هناك تقدم في اعداد من ينتسبون للتعليم الفني فالتقدم كبير ولكن التقدم النسبي للتعليم الفني اذا قيس بالتعليم العام صغير جدا .

وواضح ان البلاد في حاجة ماسة الى المهارة الفنية واليدوية في كل الميادين ففي السودان نجد ان 86٪ يعملون في الزراعة و 8٪ في التجارة والخدمات ، 6٪ فقط يعملون في الصناعة وفي الجزائر نجد 42٪ يعملون في الزراعة ، 55٪ في التجارة والخدمات ، 3٪ فقط في الصناعة والذين يعملون في الصناعة نجدهم 11٪ في المغرب ، 10٪ في تونس ، 14٪ في العراق ، 20٪ في سوريا ، 6٪ في ليبيا .

ولعل للمشكلة اساسا نفسيا قديما يشاهد منذ زمن بعيد فالناس في العالم العربي لايحبون العمل اليدوي او الفني خصوصا اذا قارناهم بأهل العالم المتقدم لان العمل الغير اليدوي (او الذهني) ارتبط في اذهان الناس بالسلطان ووظائف الحكومة والجاه

والانتساب للعائلات الكبيرة الكريمة وغير ذلـك . واما العمل اليدوي فقد ارتبط بالكد والعبودية والاجانـب ولذلك نظر الناس للتعليـم على انه وسيلـة لتجنيب **ابنائهم مزاولة العمل اليدوي** . وكنـا نأمل ان يعالـج المدرس هذه الناحية ولكننا نجد عادة ان مدرس القرية نفسه هو الشخص الذي تجنب العمل اليدوي بمتابعة قسط من التعليم جعل منه مدرسا واعطـاه زعامة في القرية فهو يكره العمل اليدوي كراهية لاشعوريـة ، ولذلك فلا يمكن أن يغرس في تلاميـذه ما تخلص هـو منـه .

ولهذا يتضافر الوالد والمدرس وتتضافر النظـرة الاجتماعية ؛ كل هذا بطريقة لاشعورية غالبا لتعطيل تقدم التعليم الفني ؛ ومعروف ان الناس لايقبلون على المدارس الفنية الا اذا اقفلت في وجوههم ابواب المدارس النظرية الاخرى . فالمدارس النظريـة هي الطريـق للجامعة وبعبارة اخرى هي السلم الذي يرتقي عليـه المتعلم فينتقل من طبقة الى طبقة اعلى .

كذلك نعلم ان تقدم الصناعة يقـوم على اليـد العاملة الوسطى وهذه تختفي دائما ذلك لان من يتـم التعليم الابتدائي يدفع بنفسه حتى آخر الشوط ومـن لايتمه يبقى في طبقته .

ولذلك تتصف القوة العاملة في بلادنا العربيـة بتوفر نسبي في القوة العاملة العليا الاطباء والمهندسين والمحامين والقوى العاملة الصغرى وهي العمال مـع فراغ كامل او يكاد يكون كاملا في القوة الفنية العاملـة الوسطى كمهندسي العمليات ومساعدي المختبـرات والمعامل . ولذلك نجد ظاهرة اهدار في العمل . فالعامل البسيط يقوم بعمل اعلى من مستواه فيفسده ؛ ويقوم الطبيب مثلا بعمل يمكن ان يقوم به الممرض او مساعد المعمل او المختبر .

* * *

بعد هذا نلاحظ في التعليم الثانوي ظاهرة اخرى وهي تحـول في التخصص مـن المـواد الفلسفيـة والاجتماعية والادبية **الى العلوم العلمية والعملية** لان هذه الاخيرة تؤدي الى كليات الهندسة والطب وخريجو هذه اكثر رواجا من خريجي الكليات الادبية .

غير أن الكليات النظرية مع قلة رواج خريجيهـا اكثر انتشارا من غيرها وذلك لسهولة انشائهـا (فلا ورش ولا مختبرات) ولقلة تكاليفهـا . هذا اذا تعلق بالكليات العلمية والعملية .

وليس معنى ذلك انه ليست هناك محاولات من المصلحين فقد شهدت الدول العربية اهتماما بالتعليم الفني منذ أكثر من عشرة اعوام وذلك بايجاد تعليم فني متوسط وتعليم هندسي وعلمي عالي . ولذلك اكتملت مراحل التعليم المهني والفني فأصبـح فيها المتوسـط والثانوي والعالي واصبح هناك مجال لاعداد المعلـم للمدرسة الصناعية داخل المعاهد التربوية الصناعيـة الموجودة حاليا في مصر والمملكة العربية السعودية .

ومعنى هذا أن هناك جهدا مشكورا ومعناه كذلك ان الطريق ما زال طويلا وانه لابد من مضاعفة الجهود. ومشكلة التعليم الفني ليست مشكلـة وزارة التربيـة وانما هي مشكلة الدولة كلها وهي في حاجة الى جهود جريئة خلاقة .

* * *

وبالنسبة للتعليم الثانوي كذلك طرأت في البـلاد العربية **تعديلات في المناهج** لعل اهمها ما اتجهت اليـه بعض البلاد اخيرا من العناية بدراسـة الجيولوجيـا والعلوم البترولية والمجتمع العربي من حيث مـوارده واقتصاده وبنيته . وحيث ان البلاد العربية قد تختلف في تفاصيل برامجها وان اتفقت في الاهداف فانه يمكـن تلخيص التحول في برامج التعليم الثانـوي في العالـم العربي على انه يتناول النواحي الآتية :

1 — العنايـة بالعلـوم العلميـة التطبيقيـة والتجريبيـة .

2 — العناية بالعلـوم ذات الصلـة بالموارد الطبيعية .

3 — العناية بالعلـوم الاجتماعيـة المتصلـة بالمجتمع العربي .

4 — التعريب ومشكلاته كثيرة ويتناول التعريب ثلاث نواح :

أ — أن يكون المدرس عربيا وان لايكون اجنبيا الا اذا افتقد العربي الكفء تماما . ويفضـل دائمـا المدرس الليبي لليبيا والعراقي للعراق .

ب — ان تكون لغة التدريس هي اللغة العربية فبها تدرس جميع المواد ما عدا اللغة الاجنبية ذاتها .

جـ ـ ان تكون فحوى المنهاج عربيــة فيدرس الطالب ديانته وتاريخ بلاده وجغرافيتهــا وتكوينهــا الاجتماعي وعاداتها وتقاليدها وآدابهــا ونظمها كمــا يدرس موارد الثروة الطبيعية فيها ويعرف مواطنهــا ولا يجوز أن يستغرب النص على هذا فلم يكن هذا هو الواقع في كثير من البلاد العربية حتى عهد قريب فكان هم المستعمر ان يجعل عقل المواطن غريبا عن وطنــه وأن يضعف ثقته في نفسه وفي بلده وكان يتم له كل ذلك بواسطة التعليم .

وهذا كله يقتضي علاجا للكتب والمناهج واعداد المعلمين وتجهيزات المدارس واستعداداتهــا وطــرق التدريس والتوجيه والامتحانات ويقتضي دراسة جيدة للغة الاجنبية ، هل تكون لغة او لغتان ، ومتى يبــدأ تعليم اللغات الاجنبية وفي اي سن وكيف يكون السير فيهــا .

ويجب بمناسبة اللغة ان نثير موضوع التربيــة اللغوية وأن نبحث ما اذا كانت اللغة مجرد وسيلة لنقل الافكار ام هي امر اعمق وادق من ذلك بكثير ام هــي جزء لايتجزأ من حضارة الامة وثقافتها وكيانها .

وهناك **بعض ملاحظات خاصة بالتعليم الجامعي والعالي** ، فهو يتقدم الان سنويا بمعدل 29٪ غير اني اود ان اوضح بعض الخصائص ، ولنأخذ مثــالا بارزا جدا من العراق . فقد نمت اعداد الطلاب في الجامعات في ست سنوات بمقدار 250٪ بينما زاد عدد المدرسين بمقدار 76٪ فقط . وهذه الظاهرة ليست قاصرة على العراق وحده .

يلاحظ كذلك ان التعليم الجامعــي ينمو متأثــرا بالضغط الاجتماعي اكثر مما ينمــو متأثرا بمطابقتــه لحاجات البلاد . وقد اصبحت لدى الناس فكرة ان كل من ينهي تعليمه الابتدائي صالح لمتابعة الثانوي وكــل من ينهي تعليمه الثانوي صالح لمتابعة الجامعي وكــل من ينهي الجامعة صالح لنيل الماجستير والدكتــوراه . واهتمام الناس بالتعليم الجامعي وتيسير الدخول له هو كما قلت احد العوامل التي تضعــف التعليم الفنــي المتوسط والثانوي وتخفض كذلك من مستوى التعليم الجامعي نفسه . فيجب ان يبنى دخول الجامعة علــى اساس القدرة على متابعة الدراسة لا على اســاس مجرد النجاح في الثانوي .

والظاهرة الاخرى هي ان الجامعات العربية كما ذكرنا تضم طلابا يقومون بدراسات نظرية اكثر ممــا تضم طلابا يقومون بدراسات عملية وقد سهل هــذه الظاهرة فتح باب الانتساب . وقد أصبح من يدرسون دراسات نظرية الى مجموع الطلاب يتراوح بين 55٪ في احسن احواله و 85٪ . ولكن وجــد ان المبعوثيــن للدراسة في الخارج على نفقة الحكومات تتغير نسبهم بسرعة واضحة نحو الدراسات العلمية والعملية ممــا يبين عن اتجاه صحي سليم .

وقد دلت الدراسات التي اجريت باسهام مكتب العمل الدولي أن نقص الايدي العاملــة ليس فيمــن يدرسون المــواد الادبيــة والاجتماعية وانما هــو في المهندسيــن بكافة انواعهــم وفي العلمــاء العلمييــن والتطبيقيين وفي الطبقة العاملة الماهرة الوسطى .

ومما تلناه عن التعليم والمتوسط والعالي يمكننا ان نرى بوضوح فقدان التوازن بين اتجاهات التعليــم من جانب وبين ما تتطلبه النهضة الاقتصادية في العالم العربي من جانب آخر . وهذا الذي نشاهده في العالم العربي جملة نشاهده في كل دولة عربية تقريبا .

الآن وقد تكلمت عن التعليم العالي فمن الطبيعي ان اتكلم عن أسس تطويره وأن اتكلم عن ما يتبع التعليم العالي وما يصاحبه من بحوث ودراسات علمية . وقــد بدا العالم العربي يهتم بالبحوث وقد ظهر فيه باحثــون متميزون ؛ ولكني احب ان انوه هنا بأن الدراسات قد اثبتت ان ما ينفــق على البحوث العلميــة له مــردود اقتصادي عظيــم وقد اثبت الاقتصاديــون في بعــض الحالات أن مردود البحث العلمي يعادل 600٪ ممــا ينفق عليه ؛ ولذا وجب على العالم العربي ان يعطــي عناية اكبر للبحث العلمي فيما يتعلق بموارده وواقعه ؛ والا يقتصر العمل في الجامعات على التدريس الروتيني الذي لابد ان يتدنى بغياب البحوث .

* * *

بقي أن اتكلم عن **الادارة التعليمية** وتطورها في السنوات الاخيرة وبدء التمييز بين **المركزية واللامركزية** وليست المشكلة مشكلة مركزية أم لامركزية وانما هي ان تتفرغ الوزارات للبحــوث والدراسات والتخطيــط والتوجيه العام وان تتفرغ الادارات المحلية للتنفيذ على ان الادارات المحلية لها دور تلعبه في التخطيط لا يمكن التفصيل فيه هنا . وعلى الوزارات دور تنفيذي كذلك يتناول المتابعة والتقويم .

والمهم في الادارة الناجحة ان تكون اداة لانجاز الاعمال في سهولة وسرعة وكفاية وهذا يتطلب تحديد المسئوليات وان يكون لدى المسؤول من القوة والمقدرة والسلطة ما يمكنه من حمل مسعوليته وان يكون لديه من حرية التصرف ما يمكنه من سرعة البث على ان يكون هناك كذلك نوع من الرقابة التي لاتضعف حتى يصاب العمل بالاهمال والتراخي ولا تشتد حتى يصاب العمل بالتوقف والتعقد .

ومعروف ان هناك نوعا من الشدة بين القوى المحلية والقوى المركزية ، فالمركزية تتهم المحلية بعدم الكفاءة . والمحلية تتهم المركزية بعدم لمسها للمشكلات وبتعطيل العمل عن طريق التركيز . وهكذا مما هو معروف من انواع الاتهام .

وقد احرزت الدول العربية تقدما عظيما في الادارة التربوية كما شوهد ذلك في قانون رقم 16 لعام 1964 في الاردن وكما شوهد حديثا في الجزائر وما يشاهد في كل بلد عربي تقريبا .

* * *

وهناك موضوعات كثيرة يمكن معالجتها ، فهناك تكلفة التعليم وتمويله وموازناته وعلاقة هذه بالموازنة العامة للدولة وعلاقتها كذلك بالدخل القومي العام وتدل دراسة الموازنات على نمو مستمر في ميزانية التعليم في البلاد العربية وفي المملكة الليبية بنوع خاص فقد وصلت النسبة الى 4٪ من الدخل القومي العام ، وهذه هي النسبة التي وصلت اليها اكثر البلاد انفاقا على التعليم . وتتراوح نسبة ميزانية التعليم الى ميزانية الدولة في العالم العربي بين 9٪ — 23٪ .

وهناك امور كثيرة اخرى ، هناك الامية معالجتها والوقاية منها . هناك تعليم الكبار في مجتمع متغير يغير الانسان فيه بيئته وعمله وطبقته . هناك تعليم المعوقين من صم وبكم ومكفوفين وعجزة من مختلف الصنوف والالوان . هناك استخدام الوسائل الجماعية التي ظهرت والتي ستظهر من تليفزيون وراديو وصحافة وسينما وتلستار استخداما في اطار المدرسة وفي الاطارات اليومية العادية . هناك تطوير المدرسة في ضوء المتفجرات السكانية وتفجر الوعي وتفجر المخترعات والمكتشفات ، وفي ضوء الانتشار للمعلم والمبنى والتجهيزات والاموال مما سنواجهه بعد اقل من عشر سنوات من الان ، هناك مسائل اخرى بسيطة كالمناهج والكتب والامتحانات والتفتيش وهي بسيطة اذا قيست بما هو اكبر منها وما يشملها وهو التربية العلمية والعملية الواقعية التكنولوجية التخططية اللازمة لاكساب جسم الامة المناعة والقوة لاسترداد حقها وحمايته والقدرة على تطوير نفسها وتنميتها .

وواضح انه ليس من الممكن ان نستعرض اوضاع التعليم بصورة شاملة . ولكن اهم ما فيه انه يتقدم بسرعة كبيرة ، ومع ذلك فاذا نظرنا للمستقبل نجد انها غير كافية . واضح ان التعليم يرتفع كما وينحدر كيفا ، واضح كذلك ان التعليم يتقدم بصورة منعدمة التوازن ، فليس هناك توازن بين نمو التلاميذ ونمو المباني ونمو المعلمين . ليس هناك توازن بين تعليم البنين وتعليم البنات . ليس هناك توازن بين التعليم الفني والتعليم العام ، بين التعليم في الريف والتعليم في المدينة ، وبين اجزاء السلم التعليمي المختلفة الابتدائي والثانوي والعالي بين التعليم جملة وما تتطلبه التنمية الاجتماعية والاقتصادية وفي الفرد نفسه . عنينا بالعقل اكثر مما عنينا بالقلب واليد . عنينا بالعقل اكثر مما عنينا بالوجدان والحس والخلق والشخصية . وحتى هذا العقل عنينا فيه بالحفظ والاستذكار اكثر مما عنينا بالتفكير والمبادرة والابتكار . ولهذا نكون مواطنا ضامر القلب والبدن واليدين كبير الراس وحتى هذه الراس محشوة حفظا وتسجيلا فارغة ابتكارا وتفكيرا. اتجهنا الى تكوين الانسان المطيع السلبي القليل التصرف المسلوب الهمة اكثر مما اتجهنا الى بناء الشخصية القوية المنطلقة الحرة المتصرفة .

هذه بعض مظاهر التعليم ولهذا فان التعليم يحتاج الى تنسيق وتخطيط حتى ينمو نموا متوازنا ويحتاج الى اصلاح قائم على البحث العلمي السليم ، ويحتاج ونحن في ازمتنا الراهنة ان نشخص ازمته من ورائها .

وهذا ينقلني الى اهمية التخطيط واهمية البحث العلمي في التربية ، واهمية اخذ نوعية التعليم وكيفيته ومستواه وادارته ومعالجته مأخذ الدرس الجاد ومأخذ الجراة .

لبنان : عبد العزيز القوصي

من الرّواية إلى التدّوين (1)

للدكتور طاهر أحمد مكي
أستاذ الأدب الاندلسي بكلية العلوم
جامعة القاهرة

لم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك، ان كثرة منهم في الحواضر ، وقلة في البادية ، كانت تقرا وتكتب . ولم يعد مناط اختلاف أن بعضا من آثارهم الادبية قد دون ، لكنها آحاد لا تبرر التعميم ؛ لان الشعر اكثر ما يكون في البادية ، والبادية اكثر ما تكون راحلة ، وما يكتب عليه في تلك الحقبة من التاريخ ـ حجارة او عظما او خشبا او اديما او عسيبا او قماشا ، وكان اندرها واغلاها ثمنا ـ لا يتهيأ نقله في سهولة ، فقصروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية،من الصكوك والعهود والاحلاف والمواثيق ، والرسائل المقتضبة ، والكتب الدينية ، والقليل من الشعر ، اما كثرته الغالبة فكان مجال حفظها الذاكرة والرواية .

وقد اضطلع الشعراء انفسهم بدور هام في الرواية ، فكانت لهم المدرسة التي يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه، والتمرس بأساليب الكلام وفنون القول، ومن اراد ان يصبح شاعرا لزم واحدا من فحولهم ، يحفظ عنه ، ويروي له ، ويترسم خطاه ، ولدينا معلومات لا بأس بها عن اتصال هذه الروايات . كان زهير بن أبي سلمى راوية اوس بن حجر ، وكان كعب ابن زهير والحطيئة راويتي زهير ، وكان هدبة بن خشرم العذري راوية الحطيئة ، وجميل بثينة راوية هدبة ، وكثير عزة راوية جميل ، وتكاد الخصائص الفنية لشعر كل منهم تتقارب مع خصائص سابقه ولاحقه . ومن تأمل هذا الاسناد ندرك ان الراوية قد يكون ابن الشاعر ، أو أحد اقربائه ، وقد يكون غريبا عن القبيلة كلها ، فالحطيئة عبسي من مضر ، وهدبة عذري من حمير . ويصبح دور الراوي اكثر اهمية بعد وفاة الشاعر ، لانه يتعدى مهمة نشر قصائده الى جمعها ، واظهار الظروف والمناسبات التي اوحت بها، وتفسير الاشارات التاريخية التي تتضمنها ، ويصبح بحكم الواقع امينا على تراث هو ثمرة حياة صانعه ، ومناط اهتمام القبيلة التي ينسب فيها .

وكان شعراء كل قبيلة وافرادها يروون شعر اسلافهم ، وظهور شاعر كبير في القبيلة مدعاة للفخر ، والاحتفاظ بآثاره شيء تفرضه العصبية ، وضياعها امر يمس شرف القبيلة ، واصدقاء الشاعر يستظهرون بعضا من قصائده . وثمة فارق بين حفظ القبيلة وحفظ الراوية ، القبيلة تحفظ من قصيد شاعرها ما يعلي شانها ، ويسجل امجادها ، فاذا تعرض لحرب هزمت فيها تناست ذلك الشعر ، او ما يمسها منه على الاقل ، وروايتها له لا تجري على نسق واحد ، وانما ترتبط بأعمار أفراد القبيلة وامزجتهم . يحفظ منه الشباب ما كان غزلا يمس العواطف ، ويردد الرجال ما كان حماسة تلهب المشاعر ، ويتمثل الشيوخ بما كان حكمة ترضي العقل ، اما الراوية المحترف فيحفظ ذلك كله ، الغزل والحماسة والحكمة ، الرثاء والهجاء والفخر ، ما بلغ فيه الشاعر القمة او قصر عن الاجادة.

---

1) فصل من مقدمة كتاب « دراسة في مصادر الادب » الذي ستنشره دار المعارف بالقاهرة قريبا .

ويصمت الحديث عن تدوين الشعر وتخف حدة روايته بعد البعثة المحمدية ، فقد كان من العسير ، والاسلام في نشأته يقيم نظاما ، ويؤسس دولة ، ويضع نماذج جديدة للسلوك العربي ، أن تجد فكرة تدوين ، أو حتى رواية ، شعر مليء بالمفاخر القبلية ، وبما كان الاسلام ضده ، ترحيبا او قبولا من احد ، الى جانب ما شغل به الناس من غزو وتشريع ، وما ملأ وجدانهم من افكار ومثل. اورد ابن سلام في طبقاته قول عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه (1) » ثم عقب عليه بقوله « فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، والفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ؛ فحفظوا اقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير (2) . وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه اشعار الفحول ، وما مدح هو واهل بيته به ، فصار ذلك الى بني مروان ، او صار منه » .

ويأتي ابن خلدون فيعطي الامر مزيدا من الايضاح والتفصيل والتحديد : « انصرف العرب عن الشعر اول الاسلام بما شغلهم من امور الدين والنبوة والوحي، وما ادهشهم من اسلوب القرءان ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك ، وانس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه » .

الا انه لم يكد النظام الاسلامي يستقر وتتوطد دعائمه ، بقدر لا يخشى معه رواية قصيدة او تبجح قبيلة ، حتى عاد الناس يروون الشعر ويكثرون من روايته ، ويتحدثون عن تدوينه كخاطر يرد في الاذهان ويمكن أن يتحقق ، ولدينا اشارة عن تدوين تم تعود الى النصف الثاني من القرن الاول للجهرة ، فقد كتب اعشى همدان ، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، قصيدة عام 65 هـ — 671 م عن احداث تلك السنة ، وكان الاعشى جنديا في الجيش الذي وجهه الحجاج بن يوسف الثقفي لفتح بلاد ما وراء النهر ، بقيادة قتيبة ابن مسلم الباهلي ، ومن توافق الصدف أن اقدم

1) خلط الدكتور محمد مندور في كتابه «النقد المنهجي عند العرب» (ص 9 ، القاهرة 1948) ، بين هذه الفقرة وتعقيب ابن سلام عليها ، وجعلهما قولا واحدا لواحد ، ونسبها خطأ الى أبي عمرو بن العلاء .

2) اقتصر الدكتور ناصر الدين الاسد في كتابه القيم « مصادر الشعر الجاهلي » على هذا القدر من رواية ابن سلام ، لسبب لا اعرفه ، ومضى يعقب عليه في قسوة : « كلام ابن سلام هذا ثلاثة أشطر : آخرها حق ، وموسطها باطل ، وأولها يحتاج الى فضل بيان يوضحه ، اما الحق الذي لا مرية فيه فقوله : « فحفظوا اقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » .

واما الباطل الذي لم نعد نشك في بطلانه وفساده فهو هذا التعميم الواسع في قوله « فلم يؤولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب » . وفي حماسة اخذ يورد امثلة من كتاب ابن سلام تنقض قوله هذا .

ولو مضى الاستاذ الدكتور بالرواية الى نهايتها كما انتهينا بها ، لما كان في حاجة الى اتهام او دفاع لان الرجل كما نرى ، في بقية الرواية ، يعرف من الشعر العربي ما كان مدونا ، ومنذ العصر الجاهلي ، لكنه يتحدث عما هو غالب وشائع وعادة .

وفي بادىء الامر تصورت ان الدكتور ناصر الدين رجع الى نسخة من طبعات ابن سلام غير التي ارجع اليها ، وان الفقرة الاخيرة ساقطة منها ، ثم تبينت انه يستخدم نفس النسخة ، وهي بشرح العالم الجليل الاستاذ محمود شاكر ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ، والنص فيها كامل ، فلم يبق الا انه اجتزأ النص لسبب غير واضح ، أو سها عن بقيته ، وهو ما اميل اليه .

الدكتور ناصر الدين الاسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ص 194 و 195 ، دار المعارف ، القاهرة 1956 .

ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص 22 و 23 ، شرح الاستاذ محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة 1952 .

« مصور جغرافي » في العربية يعود الى هذا الجيش ، فعند ما استبطأ الحجاج حصار قائده لبخارى ، ارسل اليه يطلب منه « مصورا جغرافيا » للمنطقة ، وعندما تلقى هذا « المصور » درس الوضع الحربي في ضوئه ، وارسل الى القائد بتعليماته . وفيما بين عامي 80 و 84 هـ وجد في كرمان (1) ديوان شعر لابي جلدة اليشكري . وفي نفس هذه الفترة اتخذ عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله الجمحي بيتا جعل فيه شطر نجات ونردات وقرقات (2) ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار اوتادا فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترا فقراه ، او بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم . وكان في « كتاب » معاصره الضحاك ابن مزاحم ثلاثة آلاف صبي يتعلمون القراءة والكتابة ، وكان يطوف بهم على حماره .

فاذا وصلنا الى نهاية القرن الاول الهجري ، بداية الثامن الميلادي ، اصبح بين ايدينا من الدلائل ما يجعل تدوين الشعر امرا مقررا . فالخطاط خالد بن ابي الهياج كان يكتب للخليفة الوليد بن عبد الملك (ت 96 هـ ـ 715 م) « المصاحف والشعر والاخبار ». وسلامة القس كانت تملك بعد وفاة عمر بن ابي ربيعة (ت 101 هـ ـ 719 م) مجموعة من اشعاره التي يغنى بها . والخليفة الوليد بن يزيد (ت 127 هـ ـ 744 م) امر بجمع « ديوان العرب واشعارها واخبارها وانسابها ولغاتها » . لكن هذا التدوين كان ، فيما يبدو ، عملا عفويا وفرديا ، يخضع لاذواق الاشخاص ومتطلبات السياسة . ويخيل الي ان طريقة الكتابة في البدء، كانت وراء قلة التدوين ، وانتشار الرواية ، لانها ـ رغم الاصلاحات التي ادخلت على النقط والاعجام زمن الوليد بن عبد الملك ـ لم تكن كافية لرسم النصوص الصعبة المحشوة بالكلمات النادرة ، واسماء الامكنة الغريبة ، فبقي الاعتماد على الذاكرة امرا ضروريا لقراءة القصيدة المكتوبة قراءة دقيقة وصحيحة ، الى ان ثبتت فيما بعد قواعد الرسم والاعجام ، على نحو ما سندرسه بعد قليل .

ولا نكاد نتجاوز القرن الاول الهجري ، ونمضي في الثاني شيئا ، حتى نلتقي بطبقة جديدة من الرواة العلماء ، من العرب او الموالي ، يعيشون في الحضر ، وعلى دراية واسعة بحياة البدو، يجيدون لغة الاعراب، ويعرفون اساطيرهم واخبارهم وانسابهم ، ويتمتعون بذواكر قوية ، وعلى اتصال دائم بسكان البادية ؛ يرحلون اليهم في منازلهم ، او يلقونهم في الحواضر ؛ يمتهنون جمع الشعر وحفظه وروايته ، ودرسه وتفسيره واذاعته ، ويجمعون الى مشافهة الاعراب ما قراوه مدونا ، او تلقوه عن شيوخهم علما . والجيل الاول منهم ، كابن السائب الكلبي (3) وعوانة بن الحكم (4) ، وحماد الراوية ، لم يدون من روايته شيئا؛ فقد تكفل هشام بن السائب برواية مأثور ابيه ، وكان عوانة كفيفا يملي ولا يكتب ، ويقول ابن النديم في كتابه « الفهرست » : « لم يرد لحماد كتاب ، وانما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده » . بينما آثار الجيل الذي تلقى عنهم الرواية ، او عاصرهم في تلقيها وكان احدث منهم عهدا ، ان يدون ما سمع ، او يترك لتلاميذه مهمة التدوين . ولم يكن علماء الطبقة الاولى يسندون رواياتهم ، وكان من بعدهم يرتفع بها اليهم ، وينتهي عندهم .

كان هؤلاء الرواة يتفاوتون فيما بينهم صدقا وامانة ودقة ، تبعا لتكوينهم الطبقي والعنصري والثقافي ، وصمودهم امام ضواغط البيئة حولهم ؛ سياسية واجتماعية وعلمية ، او استجابتهم لها . حتى اذا استكملت الحياة الثقافية مقوماتها في البصرة والكوفة ، تميزت كل منها بطابع اثر عنها وعرفت به ؛ وربما كان أهم الفروق الاساسية بين المدرستين ان مدرسة البصرة استهدفت وضع قواعد عامة للغة تلتزمها وتسير عليها في دقة وحزم ، فاهدرت الشواذ، وخطأت بعض العرب ، واذا اصدمت قواعدهم بما هو ثابت من صحيح الرواية قالوا : « يحفظ ولا يقاس عليه » . بينما احترمت مدرسة الكوفة كل ما جاء عن العرب ، تجيز الناس استعماله ، ولو كان لا يلتزم

1) كرمان : مقاطعة في ايران .
2) النرد : ما يعرف اليوم بالطاولة . قرقات : جمع قرقة ؛ وهي لعبة للصبيان .
3) محمد بن السائب بن بشر الكلبي ، ابو النضر ، من اصل عربي ، قضى حياته بين البصرة والكوفة في دراسة التفسير والانساب والتاريخ ، توفي سنة 146 هـ ـ 763 م .
4) ابو الحكم ، من بني كلب ، كان عالما بالشعر والانساب والاخبار ، توفي عام 147 هـ ـ 764 م . ذكر ابن النديم في الفهرست انه الف « سيرة معاوية وبني امية » ، وقد ضاعا ، واغلب العلماء على انهما كتابان منفصلان ، واراهما كتابا واحدا .

القواعد العامة وهم بهذا اقرب الى فهم طبيعة اللغة ومنطقها ـ ان كان للغات منطق ! ـ وكانت الخصائص العامة لكل مدرسة لا تظهر في اللغة وحدها ، وانما تتجاوزها الى ما وراء ذلك من الاثار والاخبار . وادى التنافس بين المدرستين الى تعصب كل فريق لمدرسته، واتهام وتضعيف المدرسة الاخرى ، وتبادل العلماء تهم الجهل والوضع والتحريف ، امر يجعل مهمة الباحث اكثر مشقة وهو يوازن بين الاراء والروايات ، ينخلها ويصفيها من الدوافع الشخصية والحزازات .

كان راس هذه الطبقة ابو عمرو بن العلاء ، عربي من تميم ، مؤسس مدرسة البصرة في النحو وشيخها، واحد القراء السبعة ، ومن اعلم الناس بالقرءان ولغاته وتفسيره وغريبه ، وكان اماما في الشعر والنحو واللغة وايام العرب ، ثقة مامونا حتى عند الكوفيين ، ولد بمكة سنة 69 هـ ـ 689 م ، ونشا في البصرة ، وتوفي في الكوفة قافلا من رحلة الى دمشق عام 155 هـ 770م، وكان ابوه مشهورا معروفا وقائما على « طراز » الحجاج (1)، وجده عمار من اصحاب علي بن ابي طالب، رضي الله عنه . وقد مدح الفرزدق الشاعر ابا عمرو ابن العلاء واثنى عليه في ابياته :

ما زلت افتح ابوابا واغلقها
حتى اتيت ابا عمرو بن عمار

حتى اتيت فتى محضا ضريبته
مر المريرة حرا وابن احرار

ينميه من مازن في فرع نبعتها
اصل كريم وفرع غير خوار (2)

دون ابو عمرو قدرا كبيرا من الشعر العربي ، وبخاصة الجاهلي منه ، الى جانب الاخبار المتعلقة به ، وطبقا لرواية ابي عبيدة ، فان ما كتبه ملأ بيتا له الى قريب من السقف ، ثم تقرا ـ اي تنسك ـ فاحرقها » ولم يعد يهتم احراقها الا بالقرءان ودراساته . ولا يعني ذلك ، فيما ارى ، انه اعرض عن الشعر تماما ، فدراسة القرءان ، في تلك الفترة من الزمن ، كانت تقوم في جانب منها على تفسير غريب القرءان ومجازه بالشعر ، لكن القصة تدل ، دون شك ، على ان بعض المتنسكين كان يستشعر الحرج في دراسة وتدوين آثار ادبية ، تمجد من الاخلاق ، او تبيح من المحظورات، ما لا يرضى عنه الاسلام . الا ان ضياع كتبه لم يحرمنا كلية من علمه الواسع ، فقد كان له طلاب كثيرون تثقفوا من علمه ، ونهلوا من فيضه ، وحفظوا كثيرا مما روى وما جمع ، ونقلوه الينا شفاها ، او مدونا بيد طلابهم فيما بعد .

ثم خلفه في مدرسة البصرة انجب تلاميذه ، خلف بن حيان ، ويكنى ابا محرز البصري ، ويعرف بخلف الاحمر ، (ولد 115 هـ ـ 733 م وتوفي 180 هـ ـ 796 م) ، من ابناء الصغد من فرغانة ، سباهم قتيبة ابن مسلم الباهلي اثناء افتتاح بلاد ما وراء النهر ، وجيء بهم الى البصرة ، وكان خلف مولي ابو بردة ابن

---

1) قيما على نسيج ثياب الحجاج .

2) اختلف القدامى في معنى « افتح ابوابا واغلقها » بعض شراح شواهد سيبويه ، والبيت الاول منها ، قالوا : اراد « أني كشفت عن احوال الناس وفتشتهم فلم ار فيهم مثل ابي عمرو » .
وقال ابن السيد البطليوسي ، في شرح ادب الكاتب : « الفتح والاغلاق هنا مثلان لما استغلق عليه ـ على الفرزدق ـ من الامور وما انفتح » .
وروى ابو بكر محمد التاريخي في كتابه « طبقات النحاة » بسند الى الاصمعي انه قال : حدثني ابو عمرو بن العلاء قال : دخلت على الفرزدق فغلقت ابوابا ثم ابوابا ، ثم فتحت ابوابا ثم ابوابا ، فانشا الفرزدق : « ما زلت افتح ... البيت » . واورد رواية اخرى ، بسند آخر ، الى الاصمعي نفسه : دخل الفرزدق على ابي عمرو بن العلاء ، وصعد الى غرف فقال « ما زلت ... » .
وقال ابو عبيدة البكري في شرح امالي القالي: « ان ابا عمرو بن العلاء كان هاربا من الحجاج مستترا، فجاء الفرزدق يزوره في تلك الحالة ، فكان كلما يفتح له باب يغلق بعد دخوله ، الى ان وصل اليه فانشد الابيات » .
والحق مع شراح الشواهد وابن السيد ، فما اظن الفرزدق ذهب ليعد ابواب بيت ابي عمرو وغرفه ، وهي على التاكيد لم تبلغ حدا من الكثرة يثير عجب الفرزدق وخياله. ورواية ابي عبيدة البكري ينقضها معنى البيتين الثاني والثالث ، وان الحجاج حين كان في قمة تجبره كان ابو عمرو طفلا صغيرا ، او صبيا ناشئا على اكثر تقدير .

ابي موسى الاشعري ، فاعتقه واعتق أبويه . وامضى طفولته ، وكانت شقية ، في اوساط البصرة العلمية ، اخذ اللغة عن أبي عمرو بن العلاء ، واخذ النحو عن عيسى بن عمر النحوي (ت 149 هـ – 766 م) ، وجمع علما كثيرا ، فكان عالما بالغريب والنحو والانساب والاخبار ، شاعرا كثير الشعر جيده ، ولم يكن بين نظرائه من هم اكثر شعرا منه ، وله خطرات نقدية صائبة . « سئل : من اشعر الناس ؟ فقال : ما ينتهي هذا الى واحد يجتمع عليه ، كما لا يجتمع على اشجع الناس وأخطب الناس واجمل الناس . فقيل له : ايهم أعجب اليك يا ابا محرز ؟ قال : الاعشى » . فهو لا يرتضي ما كان شائعا في عصره من نقد يقوم على الخاطرة والذوق والهوى ، دون احتياط او استقراء أو تفصيل في التعليل ، وعنه تصدر أحكام التفضيل المطلق للبيت او القصيدة او الشعر ، ولكنه لا يتردد في ان يصرح بمن يلتقي مع هواه من الشعراء . حتى يراه لغيره ، كما ارتضاه لنفسه ، وبتقريره يستحيل أن يلتقي الناس على رأي اذا ما سئلوا : من هو اعظم الشعراء ؟ .

كان خلف اول من احدث السماع في البصرة ، وقرا عليه اهل الكوفة اشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لانه اكثر الاخذ عنه ، وبلغ مبلغا لم يقاربه حماد ، واجمع الناس في الكوفة والبصرة على الاقرار بمعرفته الدقيقة والواسعة بالشعر الجاهلي ، وقدرته المصيبة على تمييز الصحيح من المنحول ، يقول ابن سلام : « اجتمع اصحابنا انه كان افرس الناس ببيت شعر ، واصدقهم لسانا ، كنا لا نبالي اذا اخذنا عنه خبرا ، او انشدنا شعرا ، الا نسمعه من صاحبه » . ويذكر ابن النديم في « الفهرست » ان له « كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر » ، وقد ضاع الكتاب نفسه ، ولكن الجاحظ احتفظ بفقرات منه في كتابه « الحيوان » . وكان خلف شاعرا ويروي ياقوت في كتابه « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » : « ان له ديوان شعر حمله عنه ابو نواس » ، ويكثر قول الشعر في وصف الحيات ، واراجيزه في ذلك كثيرة ، وما وصلنا من شعره يعكس مقدرة فائقة على النظم ، ولا يدل على موهبة شعرية حقيقية ، والابيات التي رواها له ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ، لون من الفكاهة المستملحة في ذم جماعة من الحجاج البخلاء :

سقى حجاجنا نوء الثريا
على ما كان من بخل ومطل

هم جمعوا النعال واحرزوها
وشدوا دونها بابا بقفل

فان اهديت فاكهة وجديا
وعشر دجائج بعثوا بنعل

ومسواكين قدرهما ذراع
وعشر من ردي المقل خشل (1)

اناس تائهون لهم رواء
تغيم سماؤهم من غير وبل (2)

اذا انتسبوا ففرع من قريش
ولكن الفعال فعال عكل (3)

وقد مر خلف بالازمة النفسية التي مر بها استاذه، ابو عمرو بن العلاء ، من قبل ، فنسك وتقرا في اواخر حياته ، وكان يختم القرءان في كل يوم وليلة ، « وبذل له بعض الملوك مالا عظيما خطيرا على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه فابى ذلك ، وقال : قد مضى لي في هذا مالا احتاج الى ان ازيد فيه » .

اتهم خلف ، كما اتهم غيره ، بالوضع والنحل ، فقيل انه كان يعمل على السنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، وانه وضع على شعراء عبد القيس شعرا موضوعا كثيرا ، وعلى غيرهم ، عبثا بهم ، وانه نحل ابا دواد الايادي اربعين قصيدة ، وكان يأخذ من حماد الراوية الصحيح من اشعار العرب ويعطيه المنحول، « فيقبل ذلك مني ويدخله في اشعارها، وكان فيه حمق » ، وانه نظم لامية العرب المشهورة ، التي اولها :

اقيموا بني امي صدور مطيكم
فاني الى قوم سواكم لاميل

ثم نسبها الى الشنفري كما صنع القصيدة التي مطلعها :

---

1) المقل : حمل الدوم ، والدوم : شجرة معروفة النخيل .
الخشل : الرديء من كل شيء ، وقيل ، هو رطب المقل وصفاره الذي لا يؤكل .
2) الرواء : المنظر الحسن . الوبل : المطر الشديد .
3) عكل : « قبيلة فيهم غباوة وقلة فهم ، ولذلك يقال لكل من فيه غفلة ويستحق عكلي »

ان بالشعب الى جنب سلع
لقتيلا دمه ما يطل

ونحلها ابن اخت تابط شرا . « فلما تقرا ونسك خرج الى أهل الكوفة ، فعرفهم الاشعار التي قد ادخلها في اشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت اوثق منك الساعة . فبقى ذلك في دواوينهم الى اليوم » .

هذه الفقرة الاخيرة تكشف في جلاء قيمة الروايات التي ترمي خلفا بالوضع ، وتنزع القناع عن الاسباب التي وراءها ، فليس خلف هدفا في ذاته انما الهدف المدرسة الكوفية وعلماؤها ، فما داموا قد تلقوا عنه ، وسمعوا منه ، فلا بد ان يكون وضاعا ، ويصبح ما بين يدى الكوفيين من روايات موضع شك ومطعونا في صحته . والرواية تفضح نفسها بنفسها ، فمن العجيب ان يمضي عالم الى قوم اخذوا عنه ، فيدلهم ، حقا او افتراضا ، على ما زل منه عفوا او قصدا ، فيرفضوا تصحيحه ، ويعرضوا عن اعترافه ، ويبقوا على زيفهم ، « ويصير ذلك في دواوينهم الى اليوم » ! (1) .

اكثر تلاميذ أبي عمرو بن العلاء ثقة وشهرة هو الاصمعي ، عبد الملك بن قريب ، من اصل عربي ينتسب في باهلة ، الضاربة في الجنوب الشرقي من البصرة ، ولد عام 122 هـ — 739 م ، وتوفى عن تسعين عاما في 215 هـ — 831 م ، نقل عن فصحاء الاعراب الذين كانوا يفدون الى البصرة ، واكثر الخروج الى البادية ، وشافه الاعراب ونقل عنهم ، وربما استغرقت رحلته اليها سنوات ، وامضى جانبا من حياته في الحجاز وبغداد ، فاكسبه ذلك علما واسعا بالجاهلية ، لغاتها واخبارها واشعارها ، فاكتسب مكانة ممتازة في الاوساط الادبية كأستاذ وعالم ، وكان موضع اجلال الخليفة هارون الرشيد . وكافاه مرة بعشرة آلاف درهم لانه اجاد في وصف فرس له ، مستدلا على كل صفة ببيت من شعر جرير بن عطية الخطفي الشاعر المشهور (2) . وتميز عن سابقيه بتقواه العظيمة ، شديد الاحتراز في تفسير القرءان والحديث، فاذا سئل عن شيء منهما يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا اعلم المراد منه في الكتاب والسنة ، وخلال فتنة خلق القرءان ، اعتزل الناس وقبع في بيته، وحرص المامون على ان يصير اليه ، فاحتج بضعفه وكبر سنه ، فكان المامون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها اليه ليجيب عنها . ورئى بعد ذلك راكبا حمارا دميما ، فقيل له : « أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال : هذا واملك دينى احب الي من ذاك مع فقده » .

كتب الاصمعي كثيرا ، في مجالات مختلفة ، وتبلغ مؤلفاته اثنين واربعين مصنفا ، بينها كتاب خلق الانسان ، وكتاب الاجناس ، وكتاب الخيل ، وكتاب النوادر ، وكتاب معاني الشعر ، وكتاب الاراجيز ، واغلبها غير مطبوع ، ورويت عنه دواوين كثيرة ، منها ديوان امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة ، وعلقمة الفحل ، وله مجموعة مختارة من الشعر القديم تحمل اسمه « الاصمعيات » ، وقد طبعت اخيرا ، وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة .

في الجانب الاخر كان حماد راس مدرسة الكوفة، واسمه حماد بن سابور ، وشهرته حماد الراية ، واليه وحده تتجه كلمة « الراوية » اذا ارسلت . من اصل فارسي ، وقع ابوه سابور اسيرا في الحرب ، وينتمي الى اسرة محاربة من الديلم . وقد ولد حماد في الكوفة في عام 95 هـ — 713 م ، وتوفى فيها معمورا عام 156 هـ 774 م ، وعبر التاريخين امضى حياة عاصفة مضطربة ، فكان في بدء حياته لصا يتشطر ، فنقب بيتا على رجل فاخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الانصار، فلما قراه استحلاه وحفظه ، ثم ترك التشطر ، واقبل على الادب والشعر والاخبار ولغات العرب . وكان مع حماد عجرد الشاعر ، وحماد بن الزبرقان النحوي يكونون في الكوفة ثالوثا مزعجا ، يعيش حياة لاهية ، منطلقة غير مسئولة ، يتنادمون ويتعاشرون وكانهم نفس واحدة ، ويرمون جميعا بالزندقة ، وتثير حياتهم نقمة الطبقة المحافظة ، وكثيرا ما كان يلقى بهم في السجن فلا يبرحونه الا بعد شفاعة من كبير يمدحونه ،

---

1) ناقش الدكتور ناصر الدين الاسد الروايات التي تتهم خلفا بالوضع مناقشة علمية مفصلة في كتابه « مصادر الشعر الجاهلي وحقيقتها التاريخية » ص 451 وما بعدها ، وانتهى الى شجب هذه الاخبار رغم أن رواتها بصريون ، ليسوا مظنة تعصب ، ولكنهم — فيما يرى — اتخذوا خلفا « معبرا يجتازونه ليصلوا منه الى اتهام علماء الكوفة ورواتها » .

2) تفصيلات الوصف في : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، الجزء الاول ، ص 166 وما بعدها ، الطبعة الثانية ، بتحقيق احمد أمين وآخرين ، القاهرة 1367 هـ 1948 م .

وكانوا مع يحيى بن زياد الحارثي ، ومطيع بن اياس يتهاجون ويتغزلون ، ويقولون شعرا لا يخلو من رقة وساطة .

كان حماد يتمتع بذاكرة قوية حافظة ، تعجبه الاسطورة ، ويهوى النادرة ، يستطيع ان يسترجع مئات القصائد المطولة من الشعر الجاهلي ، وان يميز بينها وينسبها الى قائلها ، و « المعلقات » التي بين ايدينا من روايته ، وكان الى جانب ذلك شاعرا ممتازا ، وروى له الاصمعي شيئا من شعره ، واحيانا عامدا او ناسيا يخلط شعره بشعر غيره ، ومن المؤكد أن طبيعة العبث فيه كانت تتجاوز حياته الخاصة الى نشاطه العلمي ، فأصبحت نزاهته موضع شك كبير وجدال عنيف .

كان المفضل الضبي (ت 170 هـ ـ 786 م) ، وهو كوفي مثله ، يقول عنه في مرارة : لقد سلط على الشعر من حماد الراوية ما افسده فلا يصلح ابدا ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ ايخطيء في روايته ام يلحن ؟

قال : ليته كان كذلك ، فان اهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، لا ... ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل عنه ذلك في الآفاق ، فتختلط اشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ويقول ابن سلام « فيطبقات فحول الشعراء » : « كان اول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها : حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الاشعار » . ويضيف ابن سلام . « وسمعت يونس (ابن حبيب) يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر » .

ولكن الحملة على حماد ، رغم كل شيء ، يجب ان تأخذ في حذر شديد ، ونحن « نميل الى ان نعد اكثر ما اتهم به حماد موضوعا ، دعت الى وضعه عوامل عدة منها : هذه العصبية التي كانت متأججة بين البصرة والكوفة ؛ ومنها تلك المنافسات والخصومات الشخصية كالتي كانت بين المفضل وحماد ؛ ومنها العصبية السياسية ، فقد كان حماد اموي الهوى والنزعة ، وكانت دولة بني أمية قد ولت واقبلت دولة جديدة تناصبها العداء ، وتريد ان تمحو محاسنها وآثارها ، وتحط من قيمة من اشتهر فيها او نال لديها حظوة ؛ ومنها : ان حمادا كان ـ باعتراف الرواة ـ كثير الرواية واسع الحفظ ، فكان يروي مالا يعرفه غيره ، ويحفظ ما لا يحفظون ، فاتهموه بالتزيد والوضع . وقد ساعد على كل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه انه كان ماجنا مستهترا بالشراب مفضوح الحال » (1) .

الرجل الثاني في مدرسة الكوفة ، ويلي حمادا الراوية في العلم ، ويسبقه في الثقة ، هو المفضل الضبي ابو عبد الرحمن المفضل بن محمد بن يعلى ، من اصل عربي ، ولد في فارس حيث كان ابوه من موظفي الديوان ، وشارك في ثورة العلوي ابراهيم بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ضد الخليفة المنصور ، واجاره في بيته زمنا ، وقد سجن ثم اخلى سبيله فيما بعد ، واصبح استاذا للمهدي ابن الخليفة . كان عالما بأخبار الجاهلية وانسابها ، رواية للشعر وايام العرب ، قال عنه ابن سلام : « اعلم من ورد علينا من غير اهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » ، وتتلمذ عليه جلة من كبار رواة عصره وعلمائه ، فكان من تلاميذه : ابو عمر اسحاق بن مرار الشيباني ، وابن العربي ، والفراء ، وخلف الاحمر ، وابو زيد الانصاري البصري وغيرهم . وترك لنا كتابين : الاول «المفضليات» مجموعة رائعة من الشعر الجاهلي ، والثاني « كتاب الامثال » ، والراجح انهما من روايته ، وان الذي تولى عملية الجمع والتدوين هم تلاميذه من بعده . وقد توفي المفضل في الكوفة في بدء خلافة هارون الرشيد ، حوالي عام 170 هـ ـ 786 م .

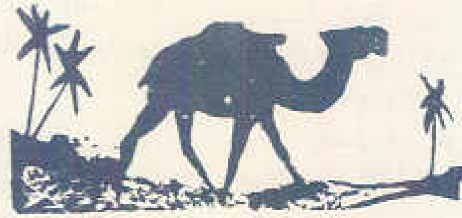
كان هؤلاء هم الطبقة الاولى من العلماء الرواة ، وقفوا جهدهم على رواية التراث العربي ، حين لم تكن الكتابة اداة حفظه الاولى ، يجمعون ما تبعثر من خبره ، ويتحاون ما اختلط من امره ، واليهم تستند روايته ، وهم يذيعونه بين تلاميذهم في حلق الدرس ، ويجادلون حوله في مجالس السمر ، فصنعوا الطبقة الثانية ، تسمع منهم ، وتعي عنهم ، وتحفظ مأثورهم وتقيده احيانا ، فاذا اقتربنا من نهاية القرن الثاني الهجري ، وتجاوزناه الى الثالث ، القرن التاسع الميلادي ، ظهرت لدينا طبقة ثالثة ، على راسها ابن الكلبي (ابو المنذر هشام ابن محمد ت 206 هـ ـ 821 م) ، والهيثم بن عدي (ابو عبد الرحمن ت 207 هـ ـ 822 م) ، وابو عمر الشيباني (اسحاق بن مرار ت 213 هـ ـ 828 م) ،

---

1) الدكتور ناصر الدين الاسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، ص 450 .

وابن الاعرابي (ابو عبد الله محمد بن زياد ت 225 هـ ـ 839 م) ، وابن حبيب (ابو جعفر محمد ت 245 هـ ـ 859 م) ، وابن السكيت (ابو يوسف يعقوب ت 245هـ ـ 859 م) ، والطوسى (ابو الحسن علي ابن عبد الله ت 250 هـ ـ 864 م) ، والسكري (ابو سعيد الحسن ابن الحسين ت 275 هـ ـ 888 م) ، وابن الانباري (ابو بكر محمد بن القاسم ت 271 هـ ـ 885 م) ، وثعلب (ابو العباس احمد بن يحيى ت 291 هـ ـ 904 م) وهي طبقة جعلت همها الاول ترتيب واكمال وتدوين ما انتهى اليهم من علماء الطبقتين الاولى والثانية ، ومعهم بدا التخصص فى الدرس يعرف طريقه ، وبهم بدا التدوين يصبح محور الثقافة واداتها .

الدكتور طاهر أحمد مكي



زيارة الوفد المغربي للاتحاد السوفياتي

للأستاذ محمد بنعبد الله

(1)

حينما استدعت حكومة الاتحاد السوفياتي الوفد الاسلامي المغربي منذ شهور بعيدة لزيارة اقطار الاتحاد السوفياتي وجمهورياته الاسلامية ، رأى سماحة الشيخ السيد ضياء الدين بباخانوف ان تقع هذه الزيارة فى اعقاب فصل الشتاء ، واوائل الايام الجميلة لفصل الربيع حيث تكون الطبيعة الانيقة الفناء تنعم بالصفاء والبهاء والدفء ، والنسيم الفاتر العاطر ينفح الجسوم ، والجو المنعش الرائق يملأ الصدور .

وقد تم ذلك بعد الرغبة الكريمة والاذن المولوي السامي ...

وهكذا غادر الوفد الاسلامي المغرب متوجها الى موسكو فى اليوم العشرين من شهر ماي الماضي حيث وصلها فى اليوم التالي فى الساعة السادسة مساء بعد ان قضى ليلة بمدينة بروكسيل العاصمة البلجيكية .

وتراس الوفد معالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية السيد احمد بركاش وعضوية السادة الاساتذة : عبد الرحمن الدكالي ، وعبد الله كنون ، وعبد الكبير الفاسي ، ومحمد بنعبد الله .

ولدى وصوله وجد فى استقباله بالمطار سعادة سفيرنا بموسكو الاستاذ السيد عبد الهادي الصبيحي، وسماحة الشيخ السيد ضياء الدين باباخانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان ، وممثلي الحكومة ، وفى مقدمتهم السيد بارمينكوف الكس القائم باعمال الرئيس لمجلس الشؤون الدينية لدى رئاسة الحكومة ، والسيد ماكارتسف بوطر نائب رئيس المجلس فى الشؤون الدينة للاتحاد السوفياتي والسيد شويدوف رئيس قسم افريقيا بوزارة الخارجية الذي كان سفيرا لبلاده فى المملكة المغربية ، والسيد ميراغطوف مير صالح عضو المجلس الديني ووكيله فى جمهورية اوزبكستان ، والسيد كادوكوف ميخائيل من موظفي المجلس ، والسيد تشيمودين مراسل وكالة نوفوستي وامام مسجد موسكو وعضو لهيئة الادارة الدينية لمسلمي اوربا وسيبريا السيد احمد جان مصطفى ...

وبعد تبادل التحايا بين اعضاء الوفد ومستقبليه غادر مطار موسكو العظيم ممتطيا سيارات خاصة ، متوجها الى النزل الذي اعد لاقامة اعضائه .

كان الجو صحوا ، وشمس الاصيل تنفض تبرها على سطوح المنازل ، وحواشي الافق ، والطبيعة الفناء ترقص فرحة ضاحكة بعد ما اجهدها فصل قارس البرد شديد الزمهرير ، يخترق الثياب الى اللحم فالعظم .

وموسكو المتفتحة ، تستقبلك ببشاشة وبشر وحبور وانشراح ، وقد تبدت فى حلة رائعة اضفاها عليها فصل الربيع الجميل الضاحك الذي يملأ الجو عطرا ، والعيون سحرا ، والقلوب فتنة وبهاء .

لقد دبت الحياة فى هذا الفصل فى كل شيء ، فانتعشت الغصون الذابلة التي كان يجللها الثلج ، وتفتحت الافنان السليبة وقد اخذت تتضوع بعبير الخمائل ، وتنتشي بمرح الطيور ، وتسكر برياحين الرياض والغياض .

هكذا استقبلتنا موسكو الضاحكة ، التي طاب نسيمها ، ورق هواؤها فى فصل الزهور والرياحين ..

وهكذا وجدنا مستقبلينا الذين اظهروا من الحفاوة والاكرام ، والبشاشة والترحيب ما سيبقى عالقا بنفوسنا وهو يحمل اجمل الذكريات ...

وقد رافق الوفد فى جميع تنقلاته داخل الاتحاد السوفياتي شخصيات مرموقة ، لها مقام معلوم ، ومكانة فى بلادها ، كالمفتي السيد ضياء الدين والسيد ميراكزاموف « صالح » ممثل مجلس الشؤون الدينية لدى المجلس الوزاري للاتحاد السوفياتي ، والسيد شاكروف « يوسف » مترجم ، والسيد تشيمودين مراسل وكالة الاخبار بنفوستى ، والسيد اكاميتشين ممثل الادارة الدينية الاسلامية بموسكو ، وثلاث صحفيين لاخذ المعلومات والاقلام عن حركات الوفد المغربي وتنقلاته فى رحلته عبر اقطار الاتحاد السوفياتي .

وكان اول عمل قام به اعضاء الوفد فى اليوم التالي هو زيارتهم للمجلس الاعلى للشؤون الدينية بمدينة موسكو ، حيث كان فى استقباله السيد بارمينكوف اليكس الذي رحب بهم ، وتمنى لهم اقامة طيبة فى الاتحاد السوفياتي وجمهورياته الاسلامية راجيا من اعضائه ان يطلعوا على الحرية التي يمارس المسلمون بها شعائرهم الدينية فى الاتحاد السوفياتي فى امن وسلام ، ويقفوا فى عين المكان على الجهود التي تبذلها الحكومة الاتحادية لاسعاد المواطنين المسلمين .

وبعدها تناول رئيس الوفد المغربي الكلمة فشكر حكومة الاتحاد السوفياتي والادارة المركزية للشؤون الدينية على دعوتها الكريمة ، وحفاوتها البالغة بالوفد المغربي الذي عينه صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني نصره الله بمجرد بلوغ الدعوة الى الحكومة المغربية ، وذكر لهم الروابط القديمة والحديثة التي تربط المغرب بالاتحاد السوفياتي ، والتي توجت بالرحلة الملكية الميمونة التي قام بها صاحب الجلالة نصره الله فى عام 1966 ، كما تمتنت بالاتفاقيات الاقتصادية والثقافية المبرمة بين البلدين ...

وبعد هذه الزيارة التي قام بها الوفد المغربي للمجلس الاعلى للشؤون الدينية بمدينة موسكو اقام هذا المجلس حفلة غذاء تكريما للوفد المغربي ، وقد تبودلت أثناء هذا الغذاء كلمات بين السيد باباخانوف ورئيس الوفد المغربي ، حيث اشاد السيد باباخانوف بالروابط الاسلامية التي تربط المسلمين المغاربة وبين اخوانهم مسلمي آسيا الوسطى ، كما نوه بعناية صاحب الجلالة الملك المعظم مولانا الحسن الثاني نصره الله وأيده بالوفد الاسلامي للاتحاد السوفياتي لدى زيارته فى شهر رمضان المعظم بمناسبة ذكرى نزول القرءان الكريم ، وتمنى للوفد المغربي اقامة طيبة حتى يحملوا معهم الى بلادهم ارتسامات لطافا وصورا حية عن اخوانهم المسلمين بالاتحاد السوفياتي ...

وقد اجابه السيد رئيس الوفد المغربي الذي تحدث عن مبادىء الاسلام السمحة ، ومبادئه السامية، واصوله العامة مشيدا بالمواقف البطولية الفذة التي نهض بها الاسلام عبر القرون ، فى حدود لا اكراه في الدين ، لان الاسلام دين عام خالد، وقد بلغهم عناية صاحب الجلالة بالمسلمين وتحياته السامية ، واثنى على جهود سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين بباخانوف لخير الاسلام والمسلمين الذي يعتبرونه نقطة اتصال بين مسلمي آسيا الوسطى والجمهوريات الاسلامية ، وبين العالم الاسلامي .

* * *

ومعلوم ان الاتحاد السوفياتي يضم ست جمهوريات اسلامية ، فيها اغلبية كثيرة من المسلمين، وهذه الجمهوريات هي : عزبكستان ، وتاجيكستان ، وتركمانستان واذربيجان ، وقازاكستان وقرغستان . وهذه المناطق تعد من الاقطار التي للمسلمين فيها الغلبة العددية . غير انها فى الواقع لا تعدو ان تكون مجرد مقاطعات خاضعة لموسكو ...

ومعلوم ــ ايضا ــ ان الدستور السوفياتي افرد بابا خاصا لتنظيم الشؤون الدينية ، وبيان موقف الدولة منها . اذ ليس للاتحاد السوفياتي دين رسمي ، اذ كل بيوت العبادة فيه تتمتع بحقوق متساوية .

فالمادة 124 من الدستور تقضي بانفصال الكنيسة عن الدولة ، وانفصال المدرسة عن الكنيسة ، بمعنى انه لا يسوغ للكنيسة ان تتدخل فى النشاط السياسي للدولة ، وليس للدولة ان تتدخل في شؤون الكنيسة او المسجد ، ولا تمولهما بنقود ، بل ان المسلمين هم الذين يتبرعون باخراج الصدقات ، وما أفاء الله عليهم من مال لمساعدة العلماء والائمة



السيد ضياء الدين بباخانوف وهيئة الاستقبال بمطار موسكـو في انتظار الوفد المغربـي



اعضـــاء الوفد المغربـي لدى نزولهم الطائرة ومغـادرتهـم مطـار مـوسكـــو

لاحياء الدين الاسلامي ، واقامة شعائره في ارجاء الاتحاد السوفياتي ، ولا سيما بعد تأميم الاوقاف من قبل الحكومة السوفياتية .

وقد اشار الدستور السوفياتي ـ ايضا ـ الى ان الدولة لا تفرق بين المواطنين بسبب دينهم ، ولا يسوغ ان يثبت دين المواطنين في الوثائق الرسمية . .

فالديانة مسالة شخصية تخص المواطن وحده وترجع أولا واخيرا الى ضميره وعقيدته . ويتجلى ذلك بصفة خاصة في حياتهم العملية ، فقد ادلى الرئيس السابق السيد خروتشوف بتصريح اثناء زيارته للهند في احتفال اقامه السيد غلام محمد رئيس وزراء كشمير يقول فيه :

« ان مسالة العقيدة هي مسالة تتعلق بضمير هذا الشخص او ذاك ، وهذه او تلك ، ووفدنا هذا يضم بين اعضائه ، جابر رسولوف ، وزهرة رحيمبابيفا ، وشرف رشيدوف ، وهم يمثلون ازبكستان ، وتاجيكستان ، وشعوب هذه البلاد تعتنق الاسلام . . »

غير اننا نجد مادة في نص دستورهم تقول :

« لكي يتمتع المواطنون بحرية الضمير تفصل الكنيسة في الاتحاد السوفياتي عن الدولة ، والمدرسة عن الكنيسة ، وتكفل لجميع المواطنين حرية العبادة الدينية ، كما تكفل لهم حرية الدعوة ضد الدين » .

ويتضح من هذا النص الصريح ان الملحدين قد وجدوا ضالتهم المنشودة ، لحمل سلاح مشروع لشن حملاتهم المتوالية ضد الاديان في ظل القانون ورعايته !!

* * *

والاغلبية الساحقة من المسلمين في الاتحاد السوفياتي من اهل السنة ، ويوجد عدد كبير من الشيعة في جمهورية اذربيجان ، وفي الجمهوريات الاسيوية الوسطى ، وفي انحاء متعددة من الاتحاد السوفياتي .

وقد انشات الحكومة الاتحادية مجلسا لمسائل الطقوس الدينية ، وهذه المجالس تساعد الهيئات الدينية على حل المسائل التي يحتاج حلها الى تدخل السلطات او المنشئات الحكومية، وتراعي هذه المجالس التطبيق الصحيح لحرية العقيدة ، وحرية العبادة كما نص عليها الدستور .

والادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان تعتبر اليوم مركزا روحيا للمسلمين ، يقوم بتوجيه وتسيير الامور الدينية . وتنتخب هيئة رياستها العليا من قبل ممثلي جميع مناطق آسيا الوسطى وقازاغستان في المؤتمر الذي ينعقد في كل خمسة اعوام ، وهي عبارة عن احد عشر عضوا بلقب الرئيس بالمفتي ، وهو اليوم الشيخ ضياء الدين بباخانوف ونائبه بمعاون الرئيس ، وهو الشيخ اسماعيل المخدوم الذي حج هذه السنة على راس وفد كبير من المسلمين ، والباقون بالاعضاء ، وهم يعملون في مناطقهم بالوكالة عن رئاسة الادارة الدينية .

ففي كل جمهورية عضو ممثل دائم يشرف على شؤون الاسلام في نطاق الجمهورية ، ويبلغ المسلمين الارشادات والفتاوي الدينية التي يتلقاها من المركز ، كما يقوم بالقاء الخطب الدينية في المساجد تختلف مواضعها حسب توجيهات الآيات القرءانية، والاحاديث النبوية ، ويرسل التعليمات الى خطباء الجوامع والمساجد في تلكم الجمهوريات ، ففي جمهورية قازاغستان يشغل وظيفة ممثل الادارة فضيلة الشيخ مقصود حاجي ابن نظربيك . وفي تركمانستان الشيخ آتاجان بن عبد الله . . .

كما ان للادارة الدينية دستور عمل خاص يسمى « بميثاق الادارة » ، وتتخذ جميع تدابيرها المتعلقة بشؤون الدين وغيرها حسب مواد هذا الميثاق .

والهيئة العليا للادارة الدينية مكونة من ثلاثة اشخاص ، رئيس ، وعضوين ، هذه الهيئة تجتمع كل ثلاثة اشهر لبحث القضايا المتعلقة بشؤون الدين ، وكثيرا ما يشترك في جلسات الهيئة جميع ممثلي الادارة في الجمهوريات الستة ، واعضاء لجنة التفتيش الذين يستمعون الى تقريرات رئيس الادارة عن اعمالها ومشاريعها ، وهم من جهتهم ايضا يقدمون التقريرات عن اعمالهم واحوال المساجد والجوامع وطلبات المسلمين عامة . .

وفي مستهل كل سنة تجتمع الهيئة لجلستها الرئيسية التي تصادق عادة على الميزانية السنوية ويحضرها الاعضاء ، وفي كل سنتين على الاقل يعقد اجتماع عام لاعضاء الهيئة العليا والممثلين ومندوبي المسلمين من الجوامع ، ويتناولون البحث في تحسين شؤون وامور المساجد وعمرانها ، وشؤون التعليم والتدريس في المعهد الديني والوعظ والارشاد وغير ذلك . . .

وحسب ميثاق الادارة الدينية ، فان جميع خطباء الجوامع وائمتها يختارون من قبل الادارة الدينية ، وهي التي تقرر صلاحية اولئك الرجال لاداء المهام الدينية ، وتعزلهم عن وظيفتهم اذا تبين عدم صلاحيتهم لتلك الوظائف . .



السيد الوزير مع رئيس قسم افريقيا بوزارة الخارجية للاتحاد السوفياتي



السيد الوزير بين السيد ضياء الدين ، والوزير للشؤون الدينية بالاتحاد السوفياتي في قاعة الانتظار بمطار موسكو

ولدى الادارة الدينية معهد لتدريس العلوم الدينية ، واعداد رجال العلم لتغطية حاجات الوعظ والارشاد ، ونشر علوم الدين بين عامة المسلمين في أرجاء بلاد آسيا الوسطى وقازاغستان المترامية الاطراف .

وسماحة المفتي ونائبه وسائر مسؤولي الادارة الدينية يقومون ، بانتظام ، برحلات الى المدن والقرى للتفتيش في اعمال المساجد والجوامع ودراسة حاجاتها وامكانيات اصلاحها وغيرها ، ويجرون المقابلات ، ويقيمون الحفلات الدينية في تلك المناطق .

والنظارة الدينية الاسلامية التي يشرف عليها السيد المفتي ضياء الدين توجد بطشقند عاصمة الجمهورية الازبكية ، وهي تخدم مصالح المسلمين ، وما ذكر من المراسم الدينية والاحوال الشخصية ، ولديها من الموظفين ما يبلغ عدده اكثر من ستمائة موظف ديني من النواب والقضاة والمفتشين والائمة الكبار .

ويمكن تقسيم المراكز الدينية الاسلامية كما يأتي:

1) المركز الديني الاسلامي في الاول والقديم ، وهو مركز النظارة الدينية للمسلمين في بلاد سيبريا والقسم الاوربي ، ورئاسته للسيد احمد جان مصطفى خطيب المسجد الجامع بموسكو .

2) المركز الثاني بآسيا الوسطى ، وبها خمس جمهوريات : عزبكستان . تاجيكستان . وقازاغستان وقرغستان وتوركمانستان ، والمركز الديني الاسلامي في طشقند عاصمة اوزبكستان ، وهذه الجمهورية تضم كثيرا من البلدان الاسلامية والمؤسسات العليا للعلم والعرفان في مختلف العصور كسمرقند . وبخارى وفرغانة ، وترمذ ، ونسف ، وخوارزم ..

3) المركز الثالث للادارة الروحية للمسلمين فيما وراء القوقاز باذربيجان ، والمذهب الشائع في هذه المناطق شيعي جعفري ، وفي البلاد التابعة لهذا المركز الثالث كثير من السنيين . وللشيعة شيخ الاسلام ، وهو اليوم السيد علي آغا سليمان زاده .

ولاهل السنة مفتي اسلام وهو السيد احمد افندي.

ومقر ادارة هذا المركز مدينة باكو العظيمة التي تشرف على بحر الخزر او قزوين بالجمهورية الاذرية .

4) المركز الرابع للادارة الدينية الاسلامية للمسلمين في مقاطعات داغستان والقرم ...

* * *

هذه المراكز تقع كلها في آسيا الوسطى .. وآسيا الوسطى عبارة عن اربع جمهوريات داخلة ضمن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية التي تبلغ خمسة عشر جمهورية وثلاث مقاطعات ...

وقد كانت آسيا الوسطى تعرف فيما قبل بالتركستان ، وهي بلدة اسلامية صميمة خالصة ، ومساحتها تقدر بنحو 5.988.000 كلم2 وهي شرقية وغربية ، اما الشرقية فهي تئن تحت نير الاستعمار الصيني ، واما الغربية فهي ضمن الاتحاد السوفياتي.

كانت التركستان مهدا لرجال الدين والعلم ، ومركزا للفن والادب ، وموطنا للدول المستقلة الحرة والامبراطوريات الذائعة الصيت في العصور المتعاقبة قبل الاسلام وبعده .

وقد دفع العرب المسلمين الذين فتحوا تلك البلاد الشاسعة الاطراف ايمانهم الصادق وعقيدتهم الراسخة الى ان يتجشموا تلك المخاطر، ويركبوا المخاوف غير مبالين في سبيل نشر العقيدة الاسلامية ، بتلك الصحاري المجدبة ، والاجزاء الماحلة ، والقفار الواسعة، يحفزهم الى ذلك شرف المقصد ، وبعد الهمة ، ونبل الغاية ، واعلاء كلمة الله ، ونشر العقيدة ، واخراج الناس من الظلمات الى النور .

فقد فتحوا بلاد ما وراء النهر بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي الذي وجهه الحجاج بن يوسف الثقفي في عام 65 — 671 م فقد خاض حربا عوانا لنشر عقيدة الاسلام ، وبث الدعوة المحمدية بين السكان .

وفي هذه الحملة الاسلامية ، كتب الشاعر عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، اعشى همدان قصيدة عن احداث هذه السنة ، لانه كان جنديا في الجيش الذي وجهه الحجاج لفتح بلاد ما وراء النهر .

ومن توافق الصدف أن اقدم (مصور جغرافي) في العربية يعود الى هذا الجيش ، فعندما استبطأ الحجاج حصار قائده لبخارى ، ارسل اليه يطلب منه (مصورا جغرافيا) للمنطقة ، وعندما تلقى هذا (المصور) درس الوضع الحربي في ضوئه ، وارسل الى القائد بتعليماته .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك فتحوا الطاغستان عام 105 ، ووطد اخوه مسلمة الحكم العربي في تلك الديار ، وكانت ثغرا من ثغور العرب ، ومنها انتشر الاسلام في تلك الاقطار بعدما كان الاهالي من قبل وثنيين ويهودا ونصارى .

ولما اجتاح المغول بلدانهم كان اكثر هؤلاء صاروا مسلمين من اشد انصار الاسلام ، واحمسهم في بث دعوته ، ونشر عقيدته ، وان اكثر اشراف الطاغستان يدعون انهم من اصل عربي ، وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك .

وان صفحة الامة التركستانية في ميدان الحضارة والمجد ، والبطولة والعز لهي صفحة مشرقة القسمات تنبض بالحيوية والحماس ، وتتحدث اليك سطورها عن جنودها الابطال ، وابنائها الغر الميامين من حكماء وعلماء الذين نبغوا في شتى العلوم والمجالات ، والذين ما برحت اسماؤهم اغرودة حلوة عذبة لكل من يتغنى ويشدو بمفاخر الاسلام ، وعظمته الاولى ...

والتركستان تعتبر اليوم من أغنى بلاد العالم ، بثروتها المعدنية ، بخصوبة ارضها ، بوفرة مياهها ، بجمال طبيعتها ، بعبقرية رجالها ، بما فيها من البترول والاورانيوم ، والحديد ، والبلاتين ، والفحم والذهب وغيرها من المعادن ، كما يزرع في ربوعها القطن والقمح، لذلك كانت عرضة لهجومات متوالية ...

هذه الامة التركستانية ذات التاريخ الامجد والعز الاقعس ، والسناء الاسنع ظل مسلموها يقاومون الظلم ، ويناضلون الطغيان الى آخر رمق ، والى آخر نقطة ، والى آخر لحظة في سبيل المحافظة على عقيدتهم وديانتهم ورسالة السماء .

عدد المسلمين بالاتحاد السوفياتي :

من الصعب جدا ان يظفر السائل بعدد المسلمين بالاتحاد السوفياتي . فالاحصائيات الرسمية بالاتحاد لا تعطي العدد المضبوط للمسلمين لانها لا تقوم على أساس الدين ، لانه غير معترف به كوسيلة لتكوين قطاع اجتماعي ، ولان الاديان لم تعد عناصر مميزة بين السكان ، ولهذا فمن العسير ان يحدد ضبط تعداد المسلمين داخل الحدود السوفياتية ، اذ ان الاحصائيات الوحيدة التي يمكن الاستناد اليها ترجع الى عهد القياصرة في عام 1897 ، فقد دلت وقتئذ على وجود نحو خمسة عشر مليونا من المسلمين .

والعجيب انه طبع أخيرا كتاب عن حياة المسلمين في الاتحاد السوفياتي صدر عن الادارة الدينية لمسلمي قسم الاتحاد السوفياتي الاوربي وسيبريا ، ذكر بان عدد القاطنين من المسلمين في الاتحاد في الوقت الحاضر يبلغ أكثر من 15 مليون مسلم .

مع انه قد اجريت احصائيات خلال عامي 1926 ـ 1939 لم يراع الدين فيها ، وانما روعيت التبعية العنصرية ، وقد اتضح من هاتين الاحصائيتين ان عدد المسلمين قد صار من 18 الى 21 مليونا في مختلف انحاء الامبراطورية السوفياتية .

ويسود الاعتقاد عند آخرين بان عدد المسلمين في العقد الاخير يبلغ نحو 25 مليون نسمة ، اي ان نسبتهم تبلغ 12 ٪ من مجموع عدد الرعايا السوفياتين

ونحن نعتقد بان عدد المسلمين يربو على اربعين مليون نسمة .

فمنذ سنة 1921 سأل امير البيان شكيب ارسلان الذي ذهب الى موسكو لتفحص الاحوال عن قرب الشيخ عبد الودود فتاح الدين قاضي المسلمين في موسكو وبتروغراد عما يقال عن عدد المسلمين بالاتحاد السوفياتي كله : فقال له : « في ولايات قازان ، واورنبورغ ، واوفا ، وتوابعها مع الباشقرد 5 ملايين . والقرغيز 5 ملايين ، وتتر سيبريا نصف مليون ، وولايات تركستان ، طشقند ، سمرقند ، وخوقند 12 مليون ، وبخارى مليونان ، وخيوة مليون واحد ، فهذه 25 مليونا ونصف مليون ...

قال امير البيان لمحدثه : « وفي القوقاز ثلاثة ملايين الى اربعة طاغستانيون وجركس ، وثلاثة ملايين في اذبيجان وكرجستان ، ونصف مليون او اكثر في القريم ، فهذه نحو 33 مليونا .

فوافق السيد عبد الودود الامير شكيب على هذا القول .

ثم سأل امير البيان المجاهد غير الشيخ عبد الودود حتى ممن كانوا اذذاك من اعضاء مجلس الدوما الروسي ، فقال ان عدد المسلمين نحو 35 مليون نسمة

هذه لمحة سريعة عن حياة المسلمين بالاتحاد السوفياتي وعددهم ، وقد اتينا بها قبل زيارة الاماكن والبلدان التي سنتحدث عنها في اعدادنا المقبلة حتى يكون القارىء الكريم على بصيرة من حياة المسلمين في هذه الاقطار الشاسعة الاطراف المترامية الاجزاء .

زيارة سريعة لمعالم مدينة موسكو

قام الوفد المغربي بزيارة سريعة في يومه الاول لمعالم المدينة الباسمة التي كانت سماؤها في ذلك اليوم صافية الاديم ونسيمها فاتر عاطر ، وقد بدت على

سكانها امارات البهجة والانشراح ، وتالقت وجوههم ببسمات الغبطة والانبساط ، لانهم استقبلوا شمسا جميلة منعشة ، وسماء حافلة بالسحر والجمال ، وجوا ضاحكا تنتشر فيه سكينة الدفء فهم يذرعون في نشوة وزينة شوارعها الفسيحة ، واحياءها العصرية الرائعة التي تمتاز بعمارات جديدة لا تغلو في الارتفاع ، وانما الى الحد الضروري الذي يقدر بقدره ، ويبقي للمدينة بهاءها ورواءها ، وتفتحها واشراقها ، وقد فرشت ارضها او كادت ، بالكلا الاخضر الناضر الذي ينم عن انه ارتوى حتى طفح .. تتخلله اشجار ذات اوراق يانعة ، ورياحين يتضوع اريجها عطرا وشذى مما يترك الانسان يهيم في الجمال والفتون ...

والحق ان هذه المدينة لا توحي بالجهامة والقتامة كغيرها من العواصم الاوربية ، وانما تحتضنك وانت داخلها في وداعة واحتفاء ، وشوق وبشاشة ...

عرجنا على جامعة موسكو ، ولم تتيسر لنا — لضيق الوقت — زيارتها ، وانما علمنا بان بناءها ابتدا في عام 1948 ، وانتهى عام 1953 ، وهي تضم 288.000 غرفة على الطراز العصري الحديث ، وبها مغاربة يتلقون دراساتهم العليا ...

ثم توجهنا الى بنوراما ، وهي عبارة عن معرض ذي منظر عجيب عملاق ، وفن ينم عن العبقرية الانسانية، ومدى ما وصلت اليه رهافة الذوق وفرط الاحساس مما ينتزع الدهش والاعجاب من الانسان .

وقد افتتح هذا المعرض العظيم الرائع في سنة 1962 بمناسبة ذكرى مرور 100 سنة على الحرب الوطنية لسنة 1862 التي تشخص معركة بروديتو المشهورة التي وقعت عن بعد 120 كلم من موسكو بين الشعب الروسي وجيوش الامبراطور الفرنسي نابليون الذي غزا تقريبا كل اقطار اوربا الغربية .

وقد كانت هذه المعركة اهم حدث تاريخي في هذه الحرب حيث لقبها نابليون ب « صراع العمالقة » ، وكتب عنها في مذكراته : « ان معركة موسكو كانت اصعب المعارك التي خضناها رغم المجهود الجبار الذي بذلناه فيها » .

فلا غرو اذا اصبحت حقول قرية بروديتو فخر حرب روسيا .

بنى معرض « بنوراما » من قبل مشروع المهندسين اللامعين ، واهم شيء فيه يثير الاعجاب والدهش هو المنظر العملاق لمعركة بروديتو الذي انجزه الرسام الشهير الذائع الصيت « فرانتز الكسفش روبو » .

هذا المنظر الرائع الذي رسم في قماش (محيطه 15 مترا ، طوله 115 مترا) تتجد فيه كل الاشياء التي وقعت في المعركة ، وكانك — اطال الله حياتك — في صميمها ، فكل الصور فيه تنبض بالحياة تحكي ساعاتها الخالدة ، فيبدو لك وكانك تعيش تلك اللحظات المروعة ، والساعات الحرجة التي اضبع عليها الرسام « روبو » لونا من عبقريته وعظمته . انه ينقل اليك بامانة وصدق ، تلك اللحظات الحرجة من معركة بروديتو التي ابتدات في ساعة مبكرة .

انك حقا تشاهد الجناح الايسر من الجيوش الروسية ، التي تحمي قرية سميتوفسكايا المسرح الاساسي لهجومات الفرنسيين ، والتي كانت تحت قيادة الجنرال بكراسيون .

ما هي احداث هذه اللوحة التي تسجل هذه الحقبة التاريخية من حياة الشعب الروسي اذذاك ..؟

حوالي الساعة الثانية عشرة زوالا قاوم الروس سبع هجومات من هجومات العدو ، غير ان الهجوم الثامن اضعف الجيوش الروسية ، فتراجعوا الى الوراء ، بعد خسائر فادحة في الارواح والعتاد ، وجروح خطيرة لحقت بالجنرال باكراسيون ..

لقد كان التراجع في انتظام الى ما وراء حافة سيميتوفسكي .

وفي الصباح هاجم الفرنسيون قلب الجيوش الروسية ، فتكسرت هجماتهم ، وقضي على اول هجوم في الساعة العاشرة صباحا ...

ثم هاجم الفرنسيون هذه الوحدة مرة ثانية ، واستطاعوا ان يصلوا اليها ، لكن الروس ولوهم الادبار بعد عراك عنيف ...

هاجم المشاة الاشداء ، بالمدافع الثقيلة قرية سيميتوفسكايا ، لكن المدفعية الروسية التي بعثت من طرف الكومندار الروسي الكبير كوتوزوف باغتت الجيوش الفرنسية من الوراء .

وجم نابليون من شدة هذه الضربة المفاجئة واحتار في امره حتى انه اوقف لمدة ساعتين فصول هذه المعركة الدامية .



اعضاء الوفد المغربي ينزلون من الطائرة وهم السادة الاساتذة : عبد الكبير الفاسـي ، عبد الرحمن الدكالـي ، عبد الله كنـون ، محمد بن عبـد اللـه

في هذه اللحظة جمع كوتوزوف جموعا جديدة لحماية الوحدة وقرية سيمينوفسكايا .

حوالي الثانية زوالا استأنفت الحرب بشـدة ودامت حتى الليل ، وكان عدد القتلى والجرحى 5800 رجل في مدة خمسة عشر ساعة . ووجد نابليون نفسه مكرها على الرجوع بعساكره الى نقطة الانطـلاق والجيش قد وقع في غماء ، فلا يعرف له قائـد ، ولا علم . وقد جمدهم الصقيع ، وغشاهم البرد .

وربحت المعركة من طرف الجيوش الروسية .

هذه اللحظات العصيبة من المعركة هي التـي صورها الرسام روبو في لوحته ...

وان المرء ليقف مشدوها واجما امام هذا المنظر الرائع ، الذي يخيل اليك وانت تراه ، انك تحضـر المعارك الحية ، وتغشى صفوف المقاتلين ، وتتخطى الاشلاء والاعضاء في صمت واعتبار .

والحق انه قد يكون ترك الوصف ابلغ من الوصف لهذه اللوحة الرائعة في معرض بنوراما .

الى لينينغراد :

(يتبـع)

الرباط : محمد بنعبد الله

وجه آخر من وجوه التداخل بين العلم والقانون :

عمليات زرع الأعضاء من زاوية أخلاقية وحقوقية

للأستاذ : المهدي البرجالي

التوسع فى البحث القانوني ظاهرة من ظواهر العصر ، مثل ما هو الحال ايضا بالنسبة الى التوسع الهائل ، الذي يعرفه العلم المادي، والتقنولوجيا الناشئة عنه .

وقد تعرضنا فى فصول سابقة ــ ضمن « دعوة الحق » ــ الى اوجه مختلفة من ظاهرة التوسع القانوني هذا ، وبالاخص ما يتعلق من ذلك بموضوع الارتياد الفضائي ، وتطورات وسائل الاعلام الحديثة ، وفي هذين الموضوعين ، لايزال البحث بكرا الى حد ما ، وما فتئت المسائل من هذا القبيل ، موضوع توسع فى البحث والنظر قبل ان تنال درجة كافية من الرسوخ والاصالة

ونتعرض فى الفصل الحاضر الى قضية أخرى من قضايا التوسع القانوني الحديث هي من احدث القضايا من هذا القبيل ، ومن اكثرها اخذا بالاهتمامات العامة فى الوقت الراهن ، ونريد بذلك ، حالة زرع القلوب ، او ابدال القلوب ، وهذه الحالة قد فرضت نفسها على مدار الاهتمام القانوني ، بعد ان تكررت بقدر غير يسير ، وتعددت الاحوال والصور التي ظهرت بها ، واختلفت النتائج التي استقرت عنها . وما تزال مع ذلك فى البداية ، وحقيقة التطور تدفع بها ــ ولا شك ــ الى توسع متزايد .

فما هي الاوجه القانونية التي تبدو بها قضية « زرع القلوب » ؟ وعلى ماذا تقوم هذه الاوجه القانونية، والى اي مدى تذهب اليه ؟

فى الثالث من شهر دجنبر من السنة المنصرمة ، توصل الدكتور « برنارد » الى تحقيق المأثرة الطبية ، التي اصبحت شهيرة الان فى تاريخ الطب ، والتي تعرف عند البعض باسم « عملية مدينة الراس » .

لقد بدت القضية فى اول امرها مدهشة الى حد لا يقارن الا بشعور العجب والمباغتة الذي احدثه في العالم ، اطلاق اول كوكب فضائي فى اكتوبر من سنة 1957 ! وبطبيعة الحال ، فان الاثارة التي احدثتها « عملية مدينة الراس » قد فقدت حدتها فيما بعد ، وبمرور بضعة اسابيع فقط ، والان فان انباء زرع القلوب او ابدالها قد غدت من بين الانباء المألوفة جدا ، لدى عموم الناس ، فلم يعد من شأنها ان تثير عجبا ! والامر كذلك طبعا بالنسبة الى موضوع الفضاء واطلاق الاقمار الاصطناعية ! فقد فقد كل ذلك ــ او كاد ــ اثارته الاولى ، واضحى من المألوفات التي يغدو الناس عليها ويروحون ، وربما يصير الامر من الابتذال عند الناس ، الا يثير دهشتهم نزول انساني محتمل على ظهر القمر ، يوم يتحقق هذا النزول ، اذ ان الاقمار الاصطناعية المرسلة اليه لحد الان ، قد حققت فيه من الاتصالات مع الارض ، ما غدا معه امر القمر الطبيعي ، مألوفا عند الناس بقدر كبير .

وفى موضوع القلوب ، حدثت اخفاقات عديدة اكثر مما تحقق من نجاح ، الا ان الموضوع من اساسه موضوع زرع القلوب ، قد اصبح من جملة القضايا الجارية ، وتعود الناس على تصور ان يعيش الطبيب الذي كان موضوع العملية الثانية فى تاريخ طب زرع

القلوب ، تعودوا على تصور ان يعيش هذا الطبيب، بقلبه المستعار ، وان يواصل حياة عادية كما يؤكده المحيطون به ، ومن الجائز ان يفضي علم زرع القلوب الذي لا يزال في بدايته الان ــ من الجائز ان يفضي الى تطور متسلسل ، يكون من نتائجه انشاء ابناك للقلوب، مثل ما هنالك من ابناك لبعض الاجهزة والمواد الجسمية الاخرى التي امكن ان تنشأ لها ابناك ، على انه اذا كان من السهل ، ان يتلقى المرء نجاح هذه المآثر او تلك ، ثم يتعود ذلك فلا يعود يلقى اليه بالا فيما بعد ، فليس من السهل بنفسه المقدار ـ حل جميع المشاكل الانسانية التي يحدثها التقدم العلمي من هذا القبيل ، وهي مشاكل عديدة ومتنوعة ، ولها من الاوجه ما يذهب في مجال التشعب الى حد كبير ، ومن الجائز القول ــ بهذا الصدد ــ ان علم زرع القلوب ــ اذا كانت له جوانبه العلمية الطبية ، فان له ايضا جوانب اخرى ، لا تقل اهمية عن غيرها ، والمراد بذلك ، الجوانب الفكرية والسيكولوجية والاجتماعية التي تتصل بهذا الموضوع على نحو او آخر ، وتتبلور من خلالها مشاكل كثيرة تتعلق بها صورة او غيرها ، فهناك اذن ــ على هذه الحال ــ تقنيتان ، تدخلان في موضوع القلوب هذا ، احداهما لها صبغة تأسيسية ، وهي التقنية الطبية المتعلقة بعملية الاقسال نفسها ، والثانية من هاتين التقنيتين لها صبغة فرعية ، وهي التقنية القانونية في الموضوع اي مجموع السبل والوسائل الفكرية التي تتخذ بشكل او بآخر للتغلب على المشاكل الاخلاقية ، التي يحدثها طب الاقسال هذا ، سواء اكانت هذه المشاكل متعلقة بالافراد ، كل على حدة ، او بالجماعة في عمومها ! وهذا الجانب من الموضوع ، الجانب القانوني هو الذي يعني بطبيعة الحال الحقوقيين والمشرعين ورجال الفكر بصورة اعم ، اولئك الذين يدخل في حسبانهم ــ على الخصوص قضية الحق والكرامة والمشروعية في حياة الناس ، وعلاقة بعضهم ببعض ، ويلح عليهم اكثر ما يلح ، ان تسير الاشياء باتجاه منطقي متوازن ، او ما يبدو انه كذلك .

على ان هنالك مداخلة اخرى تتصل بالموضوع ، موضوع زرع القلوب وقد لا يكون للحقوقيين والانسانيين فيها تدخل مباشر ، لان لها اتصالا بعالم الطب والعلاج اكثر مما لها من ارتباط بأمر الحقوق ، وما يدخل في ضمن ذلك من قضية العلائق بين الناس وتنسيق المصالح القائمة فيما بينهم ، هذه المداخلة التي نشير اليها ، تتعلق بأمر العواقب النفسية التي قد تنشأ عن عمليات زرع القلوب في الامد البعيد ، اي ما يمكن ان ينتج عن حالة تداخل الاجسام الغريبة بعضها مع بعض من آثار محتملة على نفسية الفرد الذي يتحمل جسمه هذا التداخل ، ويتحمل بالتالي النتائج القريبة والبعيدة ، المترتبة على ذلك .

وعلى الرغم من اهمية الجانب النفسي في موضوع من هذا القبيل ، فان هذا الجانب لا يشغل من الاهتمامات ، مقدار ما تشغله الجوانب الاخرى من امر زرع القلوب ، ولعل مرجع ذلك ، هو ان الملابسات النفسية في قضية زرع الاعضاء ، لا تبدو ذات أهمية ملحة في الوقت الحاضر ، بل ولا يظهر لهذه الملابسات الان وجود موضوعي يبرز العناية بها مثل ما تنصرف العناية الى الجوانب الجراحية والقانونية في هذا المجال والعملية الجراحية هذه ــ كما اسلفنا ـ اساس جوهري في الامر ، ومن عوامل الاهتمام بها ، ان الجراحة على هذا النحو ، هي من احدث ما عرفه الطب من انواع الجراحة ، ومن ثم ، فمن الضروري ان تتركز الانظار العلمية حول طبيعة هذه الجراحة بالذات ، واي الطرق انجع واشد فاعلية في هذا المضمار ، ومن الضروري ايضا ان تتركز الانظار ــ وبما بقدر اقل ــ ولكنها تتركز على اي حال في موضوع الحق الانساني الذي تمسه القضية من جانب او آخر ، حق الفرد الذي ينتزع منه العضو ، وايضا حق الفرد الذي ينقل اليه ، فالانسان محور العملية من اساسها ومن ثم ، فان القيم والمثل التي تتحقق منها انسانيته ، توجد هي من جهتها ــ محورا رئيسيا في الامر ، اضف الى ذلك ، ان الموضوع بهذا الشأن ــ غير منحصر في النطاق المثالي ، وما يندرج فيه من مبادىء ومثل ، بل انه يمس كذلك ــ وبصورة اكثر ــ جانب الحياة العملية ، حياة الناس اليومية ، اذ ان عمليات زرع القلوب ــ اذا ما ترسخت في تقاليد الطب وصارت عملية مألوفة من عملياته ، فانها ستدخل بذلك طابعا شديد الالحاح على واقع الحياة اليومية ، وبالنتيجة لذلك ، فان المجال الذي تفتحه ــ مجال الاحتكاك بين مصالح الناس ، لا بد ان يتسع ــ بسبب هذا ــ اكثر فاكثر ، وتتسع معه جملة المسائل القضائية وغيرها مما قد يثيره ذلك على صورة او غيرها ، وكل هذه الاعتبارات وكثير غيرها ، قد البست موضوع زرع الاعضاء اهميته القانونية المتزايدة ، وجعلت الموضوع، في اوربا مثلا مجالا لكثير من الاخذ والرد الفلسفي والقانوني بل ونقلت القضية في اطارها الحقوقي هذا الى المحافل السياسية والقانونية العليا في عدد من اقطار الغرب ، كبريطانيا وفرنسا وايطاليا وغير هذه

الاقطار ، ففي انجلترا ، عرضت قوانين بشأن افسال الاعضاء وخاصة القانون المتعلق بنقل الكلى من اجسام المرضى الذين تدركهم الوفاة فى المستشفيات ، وفي الولايات المتحدة ، يتوالى نشاط قانوني من اجل تقعيد الاحوال التي يتم فيها نقل القلوب بين الاجسام، واعطائها اطارا قانونيا قارا تتحدد به الحقوق والواجبات بهذا الصدد .

وفى ايطاليا ، وفى الدانيمارك ، وفى غير هذه الاقطار ، يشتد الاهتمام بمثل هذه القضايا ، وليس من شك فى ان هذا الاهتمام ، لا يعود الى مجرد الرغبة فى تقعيد حالة قانونية ناشئة ، بل يؤول — اكثر من ذلك — الى حرص مشروع على تلافي مشاكل ، يجب تلافيها قبل ان تصير اكثر تعقيدا .

* * *

الافكار القانونية التي تدور حول موضوع زرع الاعضاء ، ليس مرجعها هذه الشهور الاخيرة ، اي حينما نشطت حركة افسال القلوب، كما يتصور، فالامر سواء من ناحيتيه الطبية والحقوقية ، يعود — بطبيعة الحال — الى عهد اقدم ، فالعملية التي اجريت في « مدينة الرأس » اواخر السنة الماضية ، لم يكن لها لتحدث ، لو لم يقع التمهيد لها بابحاث طويلة فى هذا المجال ، ولو لم تحدث فى مضمار ذلك تطورات متلاحقة، بلغت قمتها بعملية دجنبر الشهيرة ! وكذلك الامر بالنسبة لموضوع الصلة بين عمليات زرع القلوب من جهة ، والملابسات القانونية المتعلقة بذلك من جهة اخرى ، فالتفكير فى هذا الامر ، وبروز النظريات في موضوعه — وان كان قد اتخذ صبغته الواسعة فى اثناء الشهور الاخيرة، — غداة اجراء عملية«مدينة الرأس»— الا ان هذا التفكير كان مع ذلك موجودا منذ عهد غير قصير ، وقد برزت فى السنوات الاخيرة عدة اشهادات بهذا الشان ، يعتبر بعضها ذا صبغة وثائقية ، ويعود الامر فى ذلك الى ان الموضوع ، كما فكر فيه اربابه من قبل — لم يكن منحصرا بالضرورة فى قضية زرع القلوب التي كانت لم تدخل بعد فى حيز التطبيق ، بل ان الموضوع كان دائما موضوعا عاما يتعلق بنقل الاعضاء عموما من اجسام الى اخرى .

ومن المعلوم ان الاعضاء التي يجري عليها مثل هذا ، هي عديدة ، ومنها الكلى ، وغير ذلك ! ويحاول الان زرع الكبد والبنكرياس وسواهما ! فالموضوع كما نراه هو اوسع بكثير من موضوع القلب الذي تركزت حوله الانظار غداة عملية يوم 3 دجنبر 1967 ، ومن ثم فان المسالة القانونية القائمة اليوم ، هي مسالة زرع الاعضاء ، لا زرع القلب فقط ، والاطار الذي يدخل فيه مفهوم زرع الاعضاء ، اطار واسع جدا ، ومن المنتظر ان يزداد توسعا كنتيجة مباشرة ، للمزيد من التطورات التي يمكن ان تحققها الجراحة الحديثة بهذا الشان !

* * *

هنالك حالتان تعرضان فى موضوع الاستعارة من الاجسام ، (الحالة الاولى) وهي التي تتمثل في استعارة مادة جسمية يمكن للمعطي ان يعوضها فى فترة تقل او تكثر ، وبهذا ، فان الامر لا يؤدي به الى حد حرمان نهائي من العضو او المادة التي منحها من جسمه الى جسم آخر ، والمثال البارز هنا ، هو مثال تحاقن الدم ، حيث يتنازل شخص من الاشخاص عن جزء من دمه ، فيقبل ان يعتصر منه ، لينقل الى جسم شخص آخر ، اما شخص معين فى حاجة الى دم لم يجده ، واما الى اي شخص ، وفى هذه الحالة يكون الدم المعطى هبة للعموم ، ولا يسال المعطي عادة عمن سينتقل اليه ذلك الدم، وسواء كان الدم معطى لشخص معين ، او هبة الى العموم ، فان هذه الحالة ، حالة تحاقن الدم ، هي من اشيع حالات التعاطي بين الاجسام ، ولا تثير اليوم اعتراضات حقوقية مبدئية ، الا اذا كانت هنا احوال خاصة ، يمكن ان تقوم فى مضمونها ملابسات قانونية خاصة ايضا ، وهذه الحالات الخاصة لا يعتد بها ، لان الاساس القانوني والطبي الذي يقوم عليه تحاقن الدم اساس راسخ بالقدر الكافي ، وله الان تقاليده التي لا يجادل فيها احد .

(الحالة الثانية) ، هي الحالة التي لا يستطيع المعطي فيها ان يعوض لنفسه العضو او المادة التي منحها لغيره ، وهذه الحالة كما نرى ، تختلف فى عواقبها بالنسبة للمعطي عن العواقب الناشئة عن اعطاء الدم ، ان المعطي فى هذه الحالة ، يتعرض لحرمان حقيقي ودائم ، حرمان من العضو او المادة التي فقدها بتنازله عنها لغيره ، ومثال اعطاء الكلية واضح فى هذا السياق ، فالكلية اذ تنتزع من جسم لتنقل الى جسم آخر ، فان الجسم المعطي اياها ، لا يمكن ان يسترد بديلا لها عن طريق التفاعلات الحيوية داخل الاجسام كما هو الشان بالنسبة للدم مثلا ، فالفرق هنا هو اذن فرق شاسع ، ولا يمكن بهذا مقارنة الحالة التي تنجم

عن اعطاء الدم ، بالحالة الاخرى الناتجة عن اعطاء عضو ، لا يعوض كالكلية مثلا ، وهنا مدخل للناظر في الموضوع من الناحية القانونية ، وثمت مدخل آخر تعرض لنا فيه ايضا حالتان من حالات نقل الاعضاء بين الاجسام (الحالة الاولى) موافقة المعطي او المنقول منه على مجموع العملية التي سيكون طرفا فيها ، (الحالة الثانية) موافقة المنقول اليه العضو ، وهو السبب الاصلي او السبب المؤسس لمبدا العملية ومداخلها وما قد ينتج عنها من عواقب ؛ اما موافقة المعطي فهي حجر زاوية في القضية من اساسها ، فالحالة التي يتعرض لها المعطي — فضلا عن كون جسمه لا يفيد منها شيئا في الغالب ، فان هذا الجسم قد يتعرض — اكثر من ذلك — الى عواقب محتملة في الحال او المآل ، ان المعطي هو في كثير من الاحوال ، شخص انساني النزعة ، او المفروض فيه كذلك اذ ان القضية التي يجعل من نفسه طرفا فيها ، وتسبب له حرمانا عضويا لا يعوض — علاوة على الالام المحتملة التي قد يتحملها — هذه القضية ، يقحم نفسه فيها ، بينما هو غير ملزم بهذا الاقتحام من الناحية الفسيولوجية او البيولوجية ، اي انه ليس هناك دواع جسمية تتعلق بذاته ، تجعل منه هذا الطرف المقحم في قضية طبية عويصة ، كقضية عطب كلية شخص آخر ، وافتقارها بسبب ذلك للتعويض ، وقد يتصور احدنا ان يكون هناك مصلحة للمعطي احد اعضائه الى آخر ، مصلحة مادية مثلا ، كأن تكتسي القضية صبغة صفقة تجارية ، فيكون اعطاء العضو اذن مقابل مقدار مالي او ما في حكمه متفق عليه بين طرفين ، والواقع ان مثل هذا الاحتمال ، مما قد يترجح في ذهن البعض من الناس ! لكن النظرة القانونية الى الموضوع تختلف عن هذا في التطبيق ، اختلافها عنه في المبدا ! فالروح القانونية ليس المفروض فيها ان تسمح دائما بتبادل الاعضاء عن طريق البيع والشراء ! وبعض التقنيات الحديثة — في اوربا — تعبر عن معارضة صارمة لمثل هذا السلوك ، بل وتنص على عقوبات بدنية ومالية في نطاق ردعه ، والمغزى الذي يرمي اليه القانون بهذا الصدد من الوضوح بدرجة كبيرة ، وهو مغزى اخلاقي بالدرجة الاولى ، ومغزى اجتماعي كذلك ، ومن ثم فانه لا يبقى دافع في هذه الحالة للمعطي ، يحثه على منح احد اعضائه لشخص آخر ، الا الدافع الاخلاقي او العاطفي او ما هو من نوع ذلك ، وقد تتدخل الدوافع المصلحية في الامر ، ولكنها في كثير من الاحيان ، تكون ممزوجة بنسب من العاطفة تقل او تكثر ، كالزوج الذي يعير عضوا له الى زوجه بغية انقاذها من الموت او من عطب دائم ! وهي سنده في الحياة والقائمة على شؤون اولاده ، وهكذا مثل هذه الصور ، التي تتمازج فيها العاطفة بالمصلحة ! الا ان المصلحة هنا مصلحة نبيلة في الغالب ، وذات ملابسات اخلاقية ايجابية في المحط الاول .

ومن مجمل كل هذا تبدو عملية منح الاعضاء كقضية تضحية وايثار من جانب المعطي ، اكثر مما هي اي شيء آخر ! وتتأكد جلية العوامل الاخلاقية والعاطفية التي تتدخل في مثل هذا الامر وتقوم فيه بدور الحافز الاساسي ، لكن الاخلاقية هنا اذا كانت محورا تدور به او حوله الاعتبارات القائمة في هذا الموضوع ، فان هذه الاخلاقية ، لا بد ان يكون لها نطاق شامل في مجموع العملية بمختلف الاطراف المشاركة فيها ، اي ان هذه الاخلاقية اذا كانت دافعة للجانب المعطي على ان يعطي لصالح الجانب المستفيد ، فلا ينبغي اخلاقيا كذلك أن يكون هذا الجانب المعطي مجرد ضحية تغرير به لصالح الجانب المستفيد ، وذلك بان يستدرج المعطي الى التنازل عن عضو من اعضائه ، لا لانه يتقبل ذلك عن طواعية ، وتحمس ، مع علمه بتفاصيل كل ذلك وتبعاته ، بل لانه فقط لا يدري اهمية ما يقدم عليه ، وما قد ينشا عن ذلك من عواقب واحتمالات بالنسبة اليه شخصيا ، اما في المستقبل القريب او البعيد ! مثل هذه الحالة ، حالة غير معقولة ومرفوضة مقدما من الناحية الاخلاقية ؛ اذ ان الاخلاقية التي تتمثل في ضرورة الانقاذ ، انقاذ الجانب المستفيد، تنتفي — من ناحية اخرى — بالنسبة الى الجانب المعطي نظرا الى ما يحصل لهذا الجانب الاخير من غبن كنتيجة لعدم علمه العلم الكافي بمدى ما يقدم عليه، والابعاد التي تمتد عليها مبادرته ؛ والاخلاقية — كما نسلم به جميعا — هي كل لا يتجزا ! فلا يمكن ان تتحقق اخلاقية حالة من الحالات على اساس اعتماد الاخلاقية في نفس الحالة ، وانطلاقا من هذه الاعتبارات وما في حكمها ، يذهب القانون الى التشدد في موضوع مصادقة الطرف المعطي للعضو ، ويقتضي وجود هذه المصادقة في اكثر صورها تدقيقا وتثبتا ، محترزا في ذلك احترازا يتناسب مع اهمية الحياة في نظر القانون ، وحرصه على الحفاظ عليها ، اكثر ما تمكن المحافظة ، وهذه الناحية من موضوع تدخل القانون في الطب ، اي الناحية المتعلقة بمصادقة الجانب المعطي ، مصادقة واعية ، متثبتة ، اختيارية حرة ، هذه الناحية تنشا عنها قضايا وملابسات مهمة يتدخل فيها القانون كذلك

وعلى نحو تتزايد تشعباته بمقدار ازدياد التقدم التقني الذي تحققه جراحة نقل الاعضاء بين الاجسام ، وسنفحص بعضا من ذلك في الفصل القادم بحول الله .

ولننظر الان ـ كتتمة ـ لموضوع المصادقة من الناحية المبدئية ، ننظر في مصادقة الطرف الثاني الذي يعنيه الامر ايضا ، ونريد الطرف المنقول اليه العضو ، او الطرف المستفيد من عملية نقل العضو! فهذا الطرف له ايضا اعتباره ـ الذي يمكن ان نصفه بـ « المهم » ـ اعتباره في موضوع المصادقة التي تقتضيها الاخلاق ، وتلح عليها ، كشرط اجرائي اساسي ، قبل محاولة اية عملية لنقل الاعضاء بين الاشخاص ! وقد يرى البعض في اشتراط موافقة المستفيد انه من قبيل الترتيبات الشكلية التي لا تسندها اعتبارات اخلاقية ملحة كالاعتبارات الاخلاقية التي توجب موافقة الشخص المعطي للعضو ، وتوجب ذلك باشد ما يكون من الالحاح ، وينبني نظر من يذهب الى قول كهذا ـ ينبني على اساس الاعتقاد بان العملية في مجموعها هي عبارة عن تضحية يتضرر منها الطرف المعطي ، بينما الطرف المستفيد هو مستفيد فقط ، لا يتحمل تضحية في الامر ، ولا يمسه منه سوء محتمل ، بل ان مصلحته في هذا الامر هي كل شيء ، وهي مبدأ الامر ومآله ! فليس هناك ـ بهذا الاعتبار ـ تعادل في الحالة بين الطرفين ! فهل يجب لذلك ـ العناية باتخاذ نفس الاجراءات الاحتياطية بالنسبة الى كلا الطرفين ، والحال انهما لا يعترضان الى نفس المحذور ، وبالتالي، فان « الضغط الاخلاقي » الذي يخلقه كل منهما ، مؤثرا به على ضمائرنا ـ لا يجب أن يكون في نفس المستوى وداعيا الى اتخاذ نفس الاحتياطات ؟ وابادر ـ اولا ـ الى القول ، ان هذه النقطة الاخيرة ، المتعلقة بامر المستفيد ، ووضعيته داخل مشتبك العملية الجراحية المتعلقة بنقل الاعضاء بين شخصين ، هذه النقطة ، توجد موضوع نظر وتامل ، واحيانا موضوع نقاش وجدل ، ويتركز الاهتمام في ذلك حول الاعتبارات النظرية ربما اكثر مما يتركز في النطاق التقني الذي تتشكل به المسالك الاجرائية بصدد نقل الاعضاء ولكن اهمية النظريات التي تروج في الموضوع ليست في مجرد صبغتها النظرية الاكاديمية ، بل بما لها من تعلق بالاعتبارات القانونية الاكثر اتصالا بالحياة وما يمكن ان تؤدي اليه من تقنيات تتعلق باحقاق الحقوق ، وتحديدها في موضوع نقل الاعضاء بين الاجسام ، اما القول ، بان المستفيد في اية عملية للنقل العضوي هو مستفيد على اي حال ، ولا يتحمل من التضحيات ما يتحمله المعطي للعضو ، ومن ثم وجب ان تكون الاحتياطات الاجرائية المتخذة في حق المعطي اشد صرامة ، واوفى نطاقا من اية احتياطات اخرى، تتخذ في نطاق اجراء عملية نقل العضو ـ القول بهذا ، لا شك انه منبني على جهل او تجاهل المشاكل الواسعة التي تحدث لـ « المستفيد » نفسه بسبب نقل عضو من جسم آخر الى جسمه هو ، اي جسم المستفيد ، ان الجسم المنقول اليه العضو ، هو مستفيد من ناحية مبدئية كما هو ظاهر بالبداهة ، لكن هذه الاستفادة ، ليست دائما مأمونة العواقب ، كما يلحظه حتى المراقب من بعيد لانباء عمليات نقل الاعضاء بين الاجسام ! فهناك لحد الان نجاحات عملية بسيطة ، تحققت ، في هذا المدار ، بالنسبة الى الانفاقات الكثيرة التي اودت بحياة الكثيرين او بالاصح ، انتهت بهم الى نفس النهاية التي كانت متوقعة لهم ، قبل اجراء عمليات نقل الاعضاء المعارة لهم ! وقد يقال ، ان هذه مرحلة موقتة من مراحل تطور التقنية الطبية بصدد موضوع نقل الاعضاء ! ولابد ان يؤدي التقدم المستمر في هذا المجال ، الى تقليل نسبة الخطورة التي يتعرض لها المستفيد ، وتوفير اكبر حظوظ النجاح للعمليات الاستبدالية التي تجري في المستقبل ! وقد يقال ايضا انه حتى في هذه الظروف الاولية ، التي تقع فيها عمليات نقل الاعضاء في الوقت الحاضر فان حظ المريض الذي ينقل اليه العضو هو على اي حال ـ احسن من حظه ـ فيما لو ترك على حالة مرضه المزمنة ، وبعضوه الاصلي المعطوب ، وهو عضو يعتبر عمله الفسيولوجي او البيولوجي في حكم المنتهي او يكاد يكون كذلك ! كل هذا وغيره وارد ، بصدد النظر في موضوع حالة المستفيد من نقل الاعضاء ! الا ان ما يرد منه مثل هذه الاقوال ، لا يغير من المشاكل القائمة في هذا الموضوع ، وان كان يدخل على النظريات المدلى بها في هذا المجال بعض التنويع الهامشي ! ذلك ان مشكلة الاحتمالات في مصير المريض ، المستفيد من نقل العضو ستبقى قائمة ، بكل ما تنطوي عليه من خطورة ، الى ان يتم هذا التقدم العلمي الذي يزيل غالب الاحتمالات السلبية في عمليات الاقفال ويوفر بهذا للمستفيد حظوظا افضل ، وفي انتظار ذلك ، فان « الضمير » القانوني لا يستطيع ان يتغاضى عن الاحتمالات التي يتعرض لها هذا الجيل من المرضى الذين يعيشون فترة التجربة العلمية التي تجتازها تقنيات نقل الاعضاء اليوم ، وهي احتمالات ماساوية في كثير من الحالات ، كما نلحظه اليوم ، وحتى عندما تتقدم التقنية الطبية في هذا المضمار ، وتصبح العمليات الاستبدالية مأمونة بقدر كبير ، فان ذلك لا يرفع

نهائيا احتمالات الخطورة التي هي لازمة من لوازم مثل هذه العمليات الدقيقة .

ويتساءل من جهة اخرى عن حتمية عملية الاستبدالات اذا كان يقدم عليها احيانا دون ان يكون ذلك ضروري ، ضرورة مطلقة لا خيار فيها ، ولا بديل عنها على اية صورة اخرى يكون البديل ! فالمريض الذي ينقل اليه العضو البديل ، ليس من شأن جسمه ان يتلاءم مع ذلك العضو المستعار ويتكيف بكيفه ، الا بعد ان يجتاز المريض من اجل ذلك فترة امتحان عسيرة، قد لا يكون اعسر منها في حالة علاجيةمشابهة، وكل هذا يفرض على الضمير القانوني اعتبارات احتياطية مهمة بالنسبة للمستفيد ، بقدر ما هنالك من اعتبارات احتياطية تتعلق بالمعطي ، ومن ذلك استحمال المصادقة ، مصادقة المستفيد ، مثل ما هو ضروري ايضا الحصول على مصادقة الشخص المتطوع باعطاء العضو المنقول ، وبطبيعة الحال، فاننا نتصور المصادقة في اطار التسليم بان المعطي للعضو يكون في حالة قدرة على ادراك ما يقدم عليه ، ليمكنه المصادقة على ذلك او رفضه ، ويعني ذلك انه حيا في حالة اعرابه عن الموافقة ، وينتج عن ذلك في كثير من الاحيان، انه سيبقى حيا — كما هو المفروض — بعد استئصال العضو المنقول من مثل ما هو الامر بالنسبة الى نزع الكلية ! لكن ما الامر اذا كان « المعطي » فاقدا الادراك في حالة اقدام الطب على انتزاع العضو المنشود منه ، وما الامر ايضا اذا كان المفروض في المعطي ان يفارق الحياة اثناء أو على اثر انتزاع عضوه منه ؟ .

ذلك افق آخر من البحث في هذا الموضوع سنحاول النظر فيه — بحول الله — في الفصل القادم .

سلا : المهدي البرجالي



بين مرهقين في إفريقيا

للأستاذ عبد اللطيف خالص

منذ ست سنوات قمت بجولة عبر افريقيا زرت فيها السنغال وليبيريا وغانا وساحل العاج ونجيريا وسيراليون التي منعنا من دخولها رفقة اعضاء وفد مؤتمر العالم الاسلامي قصد الدعاية للقضية الفلسطينية والحصول على تأييد الشعوب الافريقية وحكوماتها لجانب الحق والعدل . وكان الوفد يتركب من السادة: موسى ابي السعود وهو فلسطيني الاصل وعضو في الهيئة العربية العليا لفلسطين ؛ ورياض العابد وهو سوري الاصل وكان يعمل محاميا في دمشق وكاتب هذه السطور وقد كنت في ذلك الوقت رئيسا لمصلحة الاذاعة والتلفزة التربوية بوزارة التربية الوطنية . وقد قمنا بهذه الجولة آنذاك والشعوب الافريقية التي زرناها لم يكن مر بعد على حصولها على الاستقلال الا سنة او سنتان باستثناء غانا التي كانت استقلت منذ اربع سنوات . ومعنى هذا ان الشعوب الافريقية في ذلك الحين لم تكن استكملت بعد استقلالها ولكنها كانت ما تزال تخضع في الميادين الاقتصادية والادارية والعسكرية للنفوذ الاجنبي الذي كان يفرض عليها سيادته بواسطة المساعدات المادية والتقنية . وكان معظم حكام هذه الاقطار التي حظيت بالاستقلال دون بذل الارواح وتقديم الضحايا في مقاومة الاحتلال الاجنبي يعملون تحت تأثير السلطات الاستعمارية التي تكرمت على بلدانهم باستقلال صوري بعدما احتفظت لنفسها بالسيطرة الفعلية على اهم اجهزة هذه الدول حتى توجهها حسب مشيئتها ووفق ادارتها . ولم يكن غالبية الافارقة آنذاك يتمتعون بوعي سياسي يجعلهم يدركون قيمة وزنهم في الميدان الدولي ويفرضون رأيهم في المنظمات العالمية بل كانوا كما قال الشاعر :

« خليفة » في قفص
بين وصيف وبغا
يقول ما قيل له
كما تقول الببغا

كانت فكرة الوحدة الافريقية ما زالت غريبة عن اسماع رؤسائهم ومرؤوسيهم وكان اهتمامهم بالقضايا الدولية بسيطا جدا ؛ فلم يكونوا يعرفون عن مشكلة فلسطين اي شيء ولم تكن حرب الفيتنام لتشغلهم ولا حصار كوبا يهمهم ولا السباق نحو التسلح يزعجهم . ولعل من القضايا التي كانت تثير بعض الاهتمام عندهم قضية الميز العنصري الذي كان آخذا في الاستفحال في افريقيا وامريكا ، ومشكل الكونغو الذي تأزم واحتد بعد فشل الامم المتحدة .

اما عن قضية فلسطين المقدسة فلم يكن الافارقة يلمون بها البتة لانهم كانوا يعيشون تحت ضغط الاستعمار المتستر وراء المساعدات والمستشارين التقنيين كما كانوا متأثرين بالدعايات الاسرائيلية التي كانت متعددة الوجوه ومتنوعة الاشكال . فقد جعلت اسرائيل رهن الشعوب الافريقية كامل امكانياتها البشرية والمادية فكانت تمدها بالمساعدات المالية والفنية والتجهيزات الاساسية . كانت اسرائيل آنذاك تدرب جيش ساحل العاج وتجهزه كما كانت

تبني العمارات الادارية الشاهقة والفنادق العظيمة والمعاهد والكليات الضخمة ، كانت تبعث بالمدرسين والمعلمين وتوزع المنح الدراسية بسخاء على ابناء افريقيا حتى يقبلوا على مدارسها للدراسة والتحصيل والتخصص . وكانت تقوم بدعوة رؤساء الدول الافريقية ووزرائها ومختلف اطاراتها واعضاء مجالس النواب فيها وارباب المهن الحرة لزيارة اسرائيل وقضاء اسبوع على الاقل في ربوعها حيث يلقى الجميع الاستقبال الحار والحفاوة الفائقة والاكرام المتناهي ، وليت الامر انحصر عند هذه الاشياء ولكنه كان يتجاوزها الى حد بعيد حيث تلبى جميع الرغبات والشهوات مهما كان نوعها فتعرض المشروبات الشهية وتنظم السهرات الممتعة التي يجد فيها الزائر جميع ما لذ وطاب . واي دولة غير اسرائيل يمكنها ان تقدم لزوارها وضيوفها ما يرغبون وما لا يرغبون فيه من ملذات وان كان ذلك على حساب الاعراض والاخلاق ؟ واذكر ان غالبية رؤساء الدول الافريقية آنذاك كانوا زاروا اسرائيل بدعوة من حكومتها ، كما كان رئيس دولة الصهاينة وبعض مساعديه يستعدون للقيام بجولة عبر كثير من الاقطار الافريقية لرد الزيارة واحترام قواعد الضيافة والمجاملة . واذكر ان رئيسا افريقيا واحدا لم يكن زار دولة عربية ما في ذلك الوقت او كان حدد موعدا لزيارتها ، اللهم ما كان من الدول الاعضاء في منظمة دول افريقيا الثورية التي كان رؤساؤها زاروا بلادنا للحضور في مؤتمري الدار البيضاء الاول والثاني ومؤتمر القاهرة .

الم يكن من المعقول مع هذا ان تكون ميول الدول الافريقية تسير في اتجاه السياسة الاسرائيلية وان يكون المسؤولون الافارقة يحبذون موقف اسرائيل التي كانت السباقة الى شرح وجهة نظرها والمسرعة للحصول على رضاهم وموافقتهم نظرا للجهود التي بذلتها والمساعدات التي قدمتها ؟ الم يكن من المعقول ان يتخذ رؤساء الدول الافريقية وشعوبهم مثل هذا الموقف بعدما تقاعس العرب ولم يتفضل احد منهم للتعريف بقضيتهم وعرضها على انظار الافارقة حتى يدركوا الحقيقة ويستطيعوا اتخاذ موقف مناسب بعد دراسة مقارنة لنظريتين متعارضتين وموقفين متباينين؟ الم يكن من المعقول ان تسير الدول الافريقية ورؤساؤها في ركاب اسرائيل بعد ما سمع معظم هؤلاء القادة الافريقيين بعض الاذاعات العربية تسبهم وتنعتهم بعملاء الاستعمار الجديد في افريقيا وتخص بالذكر منهم هو فويت بوانيي وسنغور وحماني ديوري ؟ .

ان آفة الامة العربية في الماضي وطامتها العظمى في الحاضر ونرجو ان لا تظل آفاتها في المستقبل هي ضعف اجهزة الاعلام والدعاية العربية التي لا تعتمد على الطرق العلمية والواقعية لكسب المؤيدين والمناصرين وربح الموافقين والمعضدين والتي تبني برامجها الضحلة الفجة على اسس من العواطف الهوج والمشاعر الكاذبة والافتراءات الفارغة في هذه الظروف القاسية التي لا تتلاءم مع موقف الاقطار العربية قام وفد مؤتمر العالم الاسلامي بمهمته في سنة 1962 . وقد اقتصرت هذه المهمة على اتصال برؤساء الدول الافريقية التي تمكن اعضاء الوفد من زيارتها وبعض القادة الشعبيين وشيوخ الطرق والزوايا والجاليات العربية التي تعيش في الاقطار الافريقية والتي كانت تقضي حياتها في عراك مرير ونزاع اليم وخلافات قوية بسبب التيارات السياسية التي كانت تهز العالم العربي والمذاهب المتنازعة في سبيل البقاء والانتصار في الشرق الادنى . فقد كان من بين اعضاء هذه الجالية من يناصر القومية العربية التي كانت قوية الشوكة آنذاك ، كما كان من بينهم من يناصر الاتجاه العربي المتحرر .

اما فيما يتعلق بفلسطين فقد كان من بين افراد هذه الجالية من يجاهر بعدائه لمفتي فلسطين الشيخ الحاج امين الحسيني ويؤيد الفئات التي قامت ضده كما كان فيهم من يرى ان مفتي فلسطين قد ابلى البلاء الحسن في الدفاع عن الحق العربي في فلسطين وأن اخفاق مساعيه يرجع لتكالب قوى الشر والعدوان ضده وضد العرب . وقد وجدنا آنذاك من افراد الجالية العربية من كان يتعاون مع اسرائيل داخل الشركات التجارية والمؤسسات الصناعية التي كانت تشرف عليها اسرائيل بصفة مباشرة او غير مباشرة .

واذا كان من المعقول ان لا يصل وفد مؤتمر العالم الاسلامي الى نتائج ايجابية نظرا لهذه الظروف الصعبة والعوامل المعاكسة فان من باب الصدع بالحق ان نؤكد ان الوفد لم يكن مستعدا للقيام بمأموريته السامية على الوجه الاكمل رغم نوايا اعضائه الحسنة واستعداداتهم الطيبة . ويرجع هذا الى العقلية العربية السائدة في الشرق والتي ما زلت بعيدة عن التنظيم العملي والحياة الواقعية وتقدير المسؤوليات. كان أول خطأ ارتكبه الوفد هو عدم الاضطلاع بالمهمة الى نهايتها ؛ فقد اكتفى بزيارة بعض الاقطار وفضل العودة دون ان يزور بلدانا اخرى كان من المقرر الوصول اليها والاتصال بالمسؤولين فيها . فقد بلغ الجهد

والعياء من اعضاء الوفد مبلغا كبيرا حتى فضلوا الرجوع الى ديارهم راضين من الغنية بالاياب كما يقول امرؤ القيس . والواقع ان المقام في افريقيا صعب فقد كانت معظم الاقطار لا تتوفر على فنادق صالحة للاقامة كما كانت وسائل المواصلات وما زالت عسيرة وقليلة الشيء الذي جعل المقام يطول دون الوصول الى اية فائدة . ومن الاخطاء التي ارتكبها الوفد آنذاك توجيه الخطاب للافارقة بلغة حماسية لا تعتمد على الواقع والمعقول وعدم عرض القضية في اطار سياسي واسلامي يجعلها مقبولة في الاسماع ، وانما كانت ترتكز على اذكاء الحماس وانتزاع التأييد انتزاعا من الاخوان الافريقيين وبلهجة قوية لا تخلو من السب والشتم والتحطيم . ومع ذلك فقد وجد الوفد نوعا من التأييد بلغ درجة الحماس في بعض الاحيان ، كما نجح الوفد في تبليغ الاخوة العربية وطرح قضية فلسطين في ربوع الاقطار الافريقية لاول مرة رغم التغلغل الاسرائيلي الذي كان قوي الشوكة ثابت الدعائم ، والعملية في حد ذاتها خطوة ايجابية كان من اللازم ان تتلوها خطوات اخرى لتركيز الفكرة وشغل الافكار بها وتركها تختمر في نفوس ابناء افريقيا مدة من الزمن قبل الاقدام على المطالبة بالتأييد المطلق والمناصرة التامة .

وقد جاءت مهمة الوفد المغربي لمؤتمر العالم الاسلامي هذه السنة لتربط الحلقة بالمهمة السابقة وتحقق نفس الرسالة . واذا كان مؤتمر العالم الاسلامي قد قرر في دورة عادية عقدها في العراق سنة 1962 ارسال بعثات لمختلف الاقطار للدعاية للقضية الفلسطينية فان المؤتمر عقد هذه المرة دورة استثنائية في عمان على اثر العدوان الصهيوني الغاشم على الاراضي العربية والبقاع المقدسة واتخذ ، بعد دراسة الاوضاع التي نتجت عن هذا العدوان الاثيم في العالم الاسلامي وما تركه احتلال المسجد الاقصى في نفوس المسلمين من عواطف الالم والحراسة ، قرارا بتوجيه وفود عنه الى مختلف البلدان الاسلامية للاتصال برؤسائها وشعوبها وقادة الراي والدين فيها وعرض قضية البقاع المقدسة عليهم ومطالبة جميع المسلمين بالعمل المتواصل والسعي المستمر لتحرير المسجد الاقصى والاماكن الاسلامية الطاهرة من دنس اليهود وعبث الصهاينة الآثمين .

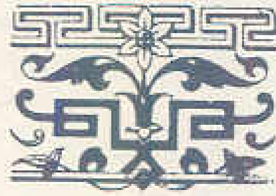
وقد انتدب ممثل المملكة المغربية في مؤتمر العالم الاسلامي اخونا الاستاذ أبو بكر القادري للاضطلاع بهذه المهمة النبيلة في القارة الافريقية كما تقبلت الحكومة المغربية وعلى راسها صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني هذا التكليف بفرح عظيم وحماس كبير . فما ان اشعر اخونا الاستاذ ابو بكر القادري بالمأمورية الملقاة على عاتقه حتى رفع الامر الى صاحب الجلالة الذي شجعه على القيام بهذه المهمة السامية وبذل له المساعدات اللازمة لاتمامها على الوجه الاكمل. وكان من جملة هذه المساعدات تعيين عضوين آخرين في الوفد لمؤازرة الاستاذ القادري في رحلته وتكليف سفارات المملكة المغربية في الاقطار الافريقية بتيسير مهمة وفد مؤتمر العالم الاسلامي وتزويد اعضاء البعثة بنسخ عديدة من القرآن الكريم قامت بطبعها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بامر من صاحب الجلالة بمناسبة احتفال المغرب بذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن . وسوف لا اعدو الواقع اذا قلت بان هذا المصحف الجليل لعب دورا كبيرا في نجاح مساعي البعثة ، وقد كان اخونا ابوبكر القادري ملهما عندما فكر في اخذ هذه النسخ وحملها معه الى القارة الافريقية . فقد اثر هذا المصحف تاثيرا عظيما في نفوس اخواننا الافريقيين الذين كانوا يتلهفون شوقا للحصول عليه ويتسابقون للتبرك به ويتهللون بشرا وانشراحا كلما تمكنوا من حيازته ، كما كان لهذا المصحف مفعول عجيب في تعزيز اواصر الاخوة الاسلامية وتقوية معنوية المسلمين الافارقة الذين اعتبروه اجل هدية يمكن ان يقدمها وفد اسلامي بين يديه . ورغم ان الوفد لم يكن يحمل صبغة رسمية فان جنسية اعضائه كان لها أكبر الاثر نظرا للروابط العديدة التي تجمع بين المملكة المغربية وغالبية الاقطار الافريقية والتقدير الكبير الذي يحظى به صاحب الجلالة والمهابة الملك المعظم الحسن الثاني ايده الله ونصره لدى قادة هذه الاقطار وشعوبها بسبب العطف المكين الذي يكنه جلالته لهذه البلدان والرعاية الفائقة التي يوليها لابنائها .

وهكذا فقد تمكن وفد مؤتمر العالم الاسلامي الذي كان يترأسه هذه السنة اخونا الاستاذ ابو بكر القادري عضو المؤتمر والذي كان يتركب من السيد عبد الكريم حجي رئيس مصلحة اللاجئين بوزارة الشؤون الخارجية وكاتب هذه السطور من الاضطلاع بالمأمورية النبيلة الملقاة على عاتق اعضائه واداء الامانة الجليلة التي نيطت بافراده . وقد قام الوفد بزيارة الجمهورية السنغالية وطاف بين مختلف ربوعها وارجائها خصوصا تواون وطوبى وكولخ وسان لوي ،

كما قام بزيارة كامبيا وسيراليون وغينيا وساحل العاج وفولتا العليا والنيجير ومالي ، حيث ربط اتصالات مهمة مع رجالاتها وقادتها وعقد اجتماعات مفيدة مع منظماتها السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية . وقد عرض الوفد قضية فلسطين في اطارها الاسلامي والسياسي وبسط العواقب الوخيمة التي نتجت عن الاعتداء الصهيوني على بيت المقدس والاقطار العربية المجاورة لاسرائيل ، كما بين الواجب الذي فرضه الدين والحق على المسلمين لانتشال هذه البقاع الطاهرة من ايدي المعتدين . فكيف كان رد الفعل لدى هذه الاقطار الافريقية ؟ وما هي الاصداء والآثار التي خلفتها زيارة وفد مؤتمر العالم الاسلامي عند قادتها وشعوبها ؟ وكيف تلقى اخواننا المسلمون في افريقيا هذه البعثة ؟ وهل عرفت قضية فلسطين تطورا ما بعد هذه الجولة ؟ وما هي النتائج الايجابية التي توصل اليها الوفد بعد اداء مهمته ؟ ذلك ما سنحاول ان نقف عليه في الحلقة المقبلة بحول الله .

(يتبع)

الرباط : عبد اللطيف أحمد خالص



من أعلام القوقاز في مجال البطولة :

الشيخ عبد القادر شامل بطل الثورة القوقازية

(1798 - 1871)

للأستاذ عبد القادر القادري

ولادتــه ونشـاتــه :

ولد عام 1798 م ببلدة نبحورخان شورا من بلاد داغشتان التي تعد اليوم احدى الجمهوريات الاسلامية الداخلة فى الاتحاد السوفياتي والتي فتحها العرب في خلافة هشام بن عبد المالك .

نشا في بيت علم وصلاح وتقوى وزهد فخرج من مشيخة الطريقة النقشبندية التي اسسها محمد البخاري نقشبند في القرن الرابع عشر الميلادي (1317 م ـ 1383 م) ـ الى الامارة وتناول السيف من طريق القلم .

عصــره :

ما كاد ينهي دراسته حتى وجد ابناء جلدته يقاومون جيوش قيصر روسيا ايما مقاومة بقيادة زعيمهم العظيم غازي محمد فترك القلم وانضم الى صفوف المجاهدين .

جهــاده :

لما احيط فى 29 شتنبر 1832 م بعد جهاد طويل بغازي محمد فى قرية جيموى واستشهد فى معمعة القتال رحمه الله خلفه حمزة بك الذي استشهد ايضا رحمه الله بالقرب من غنزاق بعد ذلك بسنتين تولى زعامة الثورة الشيخ عبد القادر شامل المقصود بهذه الترجمة .

وهو يقول ـ الامير شكيب ارسلان ـ فى تعليقاته على حاضر العالم الاسلامي : « على نمط الامير عبد القادر الجزائري خرج من المشيخة الى الامارة وتناول السيف من طريق القلم ، ولم يكن الشيخ شامل اعلم سلفيه ولكنه كان احسن منهم ادرة للامور وبصيرة بالحروب فشمر عن ساق الجهاد والتف ذلك الشعب الابى من حوله فذب عن حوض ملته نحو 35 سنة ظفر فيها بالروس فى وقائع عديدة والقى الرعب فى قلوبهم وجلاهم عن جميع البلاد الا بعض مواقع تبثوا فيها من الناحية الجنوبية ، وكانت اعظم ولاية التي ولاها عليهم هي فى سنتي 1843 و 1844 حيث افتتح جميع الحصون التي كانت لهم فى الجبال ، وغنم منهم 35 مدفعا واعتادا حربية ومؤنا وافرة واخذ عددا كبيرا من الاسرى فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشا جرارة ونادت هي بالجهاد فى الطاغستان ، ونظم شعراء الروس القصائد فى وصف تلك المعارك ، وما زالت توالي الزحوف حتى تمكنت من البلاد ، ولكن بقي الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال فى الجهات الغربية من الجبال ، ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس الا فى شتنبر 1859 م » فاعتقل اولا فى سان بطر سبورغ التي اصبحت اليوم تدعى لينغراد ثم في كالوجا فمكث فيهما زهاء خمس سنين سمح له بعدها قيصر الروسيا اسكندر الثاني عام 1863 م بالذهاب الى مكة المكرمة . فلقى هذا البطل القوقازي فى عبوره قنال السويس الامير عبد القادر الجزائري .

وفى مجلة الرسالة المصرية عدد 758 من بحث عن رسائل شامل مكتوبة بالعربية التي كان يحسنها مع



الزعيم القوقازي الشيخ شامل زعيم القوقاز المسلمين وقد توفى بالمدينة عـام 1871 .
وتراه في الصـورة يتوسـط نجليـه غازي محمـد وشـافـع

لغته وفيها « ان سليم دانوفل مدرس العربية في جامعة بطرسبورغ كان الترجمان بينه وبين القيصر اسكندر الثاني » .

تنويه الصحافة الاوربية وعظيم انجليزي وشاعر مغربي فيه :

قد نوهت به الصحافة الاوربية ايما تنويه حتى اطلقت عليه اسم « عبد القادر القوقاز » .

وقال عنه المرشال سولت الانجليزي عام 1243 : هناك ثلاثة رجال على قيد الحياة اليوم يمكن ان يطلق عليهم عظماء : عبد القادر الجزائري ومحمد علي وشامل .

وقال فيه الشاعر المغربي المدني الحمراوي هذه القصيدة :

اذكروا « شاملا » فقد كان يردى
دولة «الروس» في حروب الجبال

بطل «القوقز» الذي قاتل القيـ
ـصر كي تستقل ارض «الهلال»

فقضى خمسة وعشرين عاما
حاملا في الوغى لواء النضال

انه الشهم قد سعى لعظيم
يتخطى مراقي الامال

قام في دولة الصليب جهازا
يتحدى بالحق كل ضلال

قام يحيى للمسلمين بعزم
دولة ذات صولة ومعال

ترك الشيخ شامل حلقة الذكـ
ـر الى حومة الوغى والنزال

ترك الدرس والمحابر دهرا
وارتمى في معامع الاهوال

انها همة الرجال اذا ما
صمموا لايرادهم اي حال

وفاته :

توفى بالمدينة المنورة عام 1871 م ودفن فيها رحمه الله .

بطولات أهل القوقاز :

لقد اشاد كارل ماركس نفسه ببطولة المسلمين في القوقاز واستبسالهم الدفاع عن اوطانهم . ومن عباراته المأثورة في ذلك نداؤه للشعوب المستضعفة بقوله :

« يا شعوب العالم : ليكن قتال القوقازيين من اجل حرياتهم درسا لكم تعلموا منهم الدفاع عن الحرية القومية » .

والمؤرخ الروسي فاديف Fadiev نفسه لم يتردد في القول بان الحرب في القوقاز (1832 ــ 1859) شلت حركات الجزء الاكبر من الجيوش الروسية بعض الوقت كما اضطر الى الاعتراف بانه لولا الحرب القوقازية التي عاقت تقدمنا لاستطاعت الجيوش الروسية ان تحتل الشرق بأجمعه : من مصر الى اليابان ؛ وهي تسير على نغمات فرقها الموسيقية ولم يكد يستتب الامر لروسيا القيصرية في القوقاز حتى اخذت تسير جيوشها نحو التركستان وغيرها من البلاد الاسلامية في آسيا الوسطى وما وراء القوقاز » .

وقد شارك القصاص الروسي الشهير ليوتولستوى في حرب القوقاز برتبة ضابط في فرقة الكوساك Les Cosaques ودون الانطباعات التي تكونت لديه في تلك الفترة في روايته « الكوساك » وفي قصته حاجي مراد Hadji Mourad والغارة . وتجدر الاشارة الى ان احدى الشركات السينمائية الامريكية اخرجت قصة حاجي مراد في شريط عرض في الرباط منذ سبع سنوات باحدى قاعات العرض .

ومن العجب ان جميع قصص ليوتولستوى ترجمت الى اللغة العربية ما عدا قصة حاجي مراد ولعل ابد اجنبية خفية تعمل على عدم ترجمتها الى اللغة العربية ؛ لانها تصور كفاح اهل القوقاز في الدفاع عن حوزة وطنهم .

هذا الشيخ عبد القادر شامل احد اعلام آسيا الوسطى الاسلامية الذي غفل عن ذكره العرب والمسلمون حتى ان الاستاذ فريد وجدي لم يذكره في دائرة معارفه ولا الاستاذ جورجي زيدان في كتابه مشاهير الشرق ، ولا امير الشعراء احمد شوقي في دواوينه ؛ ولا شاعر النيل حافظ ابراهيم في ديوانه ، ولا شاعر القطرين خليل مطران في ديوانه . اللهم الا الشاعر المغربي المدني الحمراوي في مجلة دعوة الحق في العدد التاسع والعاشر لشهر يوليوز وغشت 1965 .

فلعل وعسى يهتم الكتاب والشعراء العرب والمسلمون بهذا البطل القوقازي ، فيعملون على التعريف به نثرا وشعرا ؛ والله ولي التوفيق .

الرباط : عبد القادر القادري

تأملات في استعمال اللغة العربية ونحوها

للأستاذ الراجي التهامي الهاشمي

1 ــ فاعــل ومفعــول

كلما تدبرت هذه اللغة التي يشرفني انني من الناطقين بها ازددت يقينا على انها لغة صالحة لكل عصر ، ولكل مكان ومقال ، وبقدر ما هي مضبوطة، واضحة ، بقدر ما هم (واعني المنتسبين اليها) غامضون في حديثهم مضطربون في استعمالهم لها .

هؤلاء قوم من الله عليهم بلغة عجيبة ، مدروسة، مقننة ، فاهملوا هذه النعمة وجعلوها وراء ظهورهم ، فانقلبت نقمة عليهم وصارت عارا في جبينهم ، عوض ان تكون مفخرة يباهون بها غيرهم .

قل لي بربك انت الذي اتقنت اللغة الفرنسية كيف تسمون من يبالغ في فعل ما ، عفوا ، نسيت أن اللغة الفرنسية لا يمكنها ان تضع الصيغة للشيء قبل ذكره بمادته الحقيقية لانها لا تعرف هذه الطريقة الموجزة بل لابد لها ان تذكر الشيء بصيغة خاصة به ، ولا تنسج على منواله ابدا ، قل لي اذن كيف تسمون من يضحك كثيرا ، وقل لي كيف تسمون من يضحك عليه كثيرا .

لا شك انك ستأتي بكلمة او بجمل تعتقد انها صحيحة لكنك عندما تتدبر ما ساقوله لك وتحاول تطبيقه ، ستلاحظ او انك مضطر ان تلاحظ ان بين ما قلت لي في اللغة الفرنسية وبين ما ذكرت لك في اللغة العربية بون شاسع ، الاولى مضطربة غير واضحة، لا تعتمد على قانون ثابت ، والثانية مضبوطة ، واضحة، مقننة الى درجة انها تثير الاستغراب .

الذي يبالغ في الضحك نسميه ضحكه ، على وزن فعلة ، بضم الضاد وفتح العين والذي يضحك عليه كثيرا نسميه ضحكة بضم الضاد وسكون الحاء ، وليس هذا خاصا بالضحك بل هو قياس مطرد ، فكلما اردت ان تعبر عن من يفعل الشيء ويبالغ فيه قلت فعله ، وكلما اردت ان تعبر عن من يقع عليه الفعل بكثرة قلت فيه فعلة ، وهكذا تقول في الذي يتعاطى كثيرا اللعب لعبة وتقول في الشيء الذي يلعب به الطفل ، طيلة يومه وجزءا من ليله ، لعبة ، كما تقول همزة وهمزة ولمزة ولمزة وسخرة وسخرة .

حاول الان ان تترجم هذه الاشياء الى اللغة الفرنسية ، تر انك في حاجة الى جملة طويلة لتترجم مفردة واحدة جمعت فأوعت ، ولم تجمع المعنى فقط ، وانما حوت ايضا معنى الفاعل حين فتح العين ومعنى المفعولية حين سكونها . تامل رحمك الله ، هذا الضبط وع ذلــك .

وبعد هذا يوجد منا او من غيرتنا من يدفعه جهله او تعصبه او سذاجته ، فيذكر لغته بسوء ويثني الثناء الحسن على لغات اجنبية هي منه براء لانها في غنى عن ثنائه .

هي منه براء لانها ليست منه وهي زيادة على ذلك غنية عن ثنائه ، والولد العاق لا ينفع نفسه كما لا ينفع غيره ، والولد البار مفيد لنفسه نافع لغيره ، فكن بارا بلغتك ، تجلب لنفسك ولغيرك من بني بجدتك العزة والفخر .

– 2 –

سألني احد طلبتي في المدرسة الوطنية الفلاحية: لماذا لا نستطيع ان نترجم تلك العبارات التي يكثر استعمالها في اللغة العربية مثل الحضرة والمقام والرفيع القدر وصاحب العزة وما الى ذلك من العبارات التي يأتي بها الكتاب عن قصد او عن غير قصد، في مناسبة أو في غير مناسبة. ولماذا لا يوجد مقابل هذه العبارات المتحجرة، عبارات فرنجية ؟

كنت اجبت هذا السائل ان هذه العبارات ليست متحجرة كما يظن، او بالاحرى لم تكن متحجرة ولا ميتة يوم دخلت الاستعمال، وتناقلتها الالسن خلفا عن سلف. ولم تتحجر الا بعد ان تغيرت الظروف التي ولدتها، وانمحت الاسباب التي انتجتها.

اما لماذا لا نستطيع ترجمتها الان الى اللغة الفرنسية او الاسبانية او الانجليزية فهذا عائد كما شرحت في احاديث سابقة الى ظروف الناطقين بهذه اللغة وبيئتهم وحضارتهم.

فاذا اردنا ان نعرف سر وجود هذه العبارات رجعنا الى وقت ظهورها ودرسناه من جميع جوانبه. آنذاك سيتضح لنا سبب استعمال هذه العبارات،وسر صعوبة نقلها الى لغة اخرى.

كان العرب قبل البعثة النبوية الشريفة يعيشون في الصحراء، بدو، رعاة ابل، يسيرون في كثير من الاحيان وراء الكلا حيث كان ينزلون؛ واين ظهر ونما يستقرون، ثم يرتحلون عنه كلما جف وندر. او بدو مقيمون حول مياه قليلة، لا تتعدى حضارتهم جماعات، ولا ينتشر صيتها، ويذاع امرها، الا في احايين نادرة جدا.

فلما ظهر الاسلام، غزوا وشرقوا، فرفع من قدرهم، ونزحوا من صحرائهم الى بلاد الله الواسعة الخصبة معتزين بعروبتهم، مفتخرين بانفسهم، فاخضعوا لامورهم شعوبا وقبائل اذلوها ولم يرفعوها الى منزلتهم؛ فبقيت، والحالة تلك، خاضعة، ذليلة حقيرة امام الاباة الاعزاء، حاملي دين الحق، وناطقين لسانا عربيا مبينا.

فكان لزاما – والحالة ما بينت – ان يجد هؤلاء الاذلاء المغلوبون على امرهم، الشاعرون بحقارة نسبهم، وضعة محتدهم، الفاظا يخاطبون بها هؤلاء السادة النبلاء النجداء الاعزاء. فبحثوا ووجدوا، فكانت الحضرة، والمقام الرفيع، وصاحب العزة، وصاحب المعالي، والكريم المحتد، الى آخر هذه العبارات التي كان يخاطب بها المولى سيده في كل صغيرة وكبيرة. والتي لا نستطيع نقلها الى اللغة الفرنسية لان هؤلاء لم يسموا بالشكل الذي سما اليه العرب ولم يخضعوا طيلة تاريخهم الطويل شعوبا مثل ما اخضع العرب.

رحم الله ذلك الزمان، يوم كان العربي يفتخر بعروبته ودينه، ويرفع راسه عاليا من اجلهما، واعادنا الله من هذا الزمان الذي صار العربي يخجل من انتسابه الى العروبة والاسلام.

واللهم ارحم اعزاء كرماء نبلاء ذلوا واهينوا، فانحطت لفتهم الدالة عليهم والمشيرة اليهم.

– 3 –

لم تفهم هذه الجماعة منا – غفر الله لها – التي تتعصب للغة الفرنسية او الانجليزية وتفضلهما على لغة امها في كل وقت وحين، ان اللغة العربية، التي يطيب لهم الطعن فيها والنيل من امرها، ليست من جنس الفرنسية ولا من جنس اللغة الانجليزية ولا من احدى مثيلاتهما في شيء، وكان على هذه الجماعة، التي تتبجح علينا بأنها نالت في المدارس والمعاهد والكليات العصرية التي مرت منها ثقافة عميقة صحيحة، ان تعرف ان اللغة العربية، كسائر اللغات متأثرة بالبيئة التي ولدت ونمت، وترعرعت فيها.

ومن الجهل بالامور ان يطالب المرء اللغة العربية بما يطالب به الفرنسية او الفرنسية بما يطالب به اللغة العربية، والعاقل اللبيب هو الذي يقدر لكل أمر قدره، وكل، – حتى في ميدان اللغات – ميسر لما خلق له.

واللغة العربية منشأها الصحراء واهلها الناطقون بها صحراويون بدو، رعاة ابل، وسكان وبر، وهم معتزون بهذه الحياة مقبلون عليها بفرح وسرور.

واللغة الفرنسية منشأها بلاد باردة شديدة البرودة، واهلها الناطقون بها سكان مدن وارياف، تغمرها المياه من كل جانب في جميع فصول السنة وتغطيها الثلوج في جزء مهم من فصل الشتاء، وبلاد اللغة العربية سهول واودية يغطيها في كثير من الاحيان رمال مختلف الالوان، لا يستقر على قرار؛ تتحكم في مصيره رياح حارة، عاصفة تذروه في كل اتجاه.

وبلاد اللغة الفرنسية سهول وجبال ووديان وخضر ، ينعشها ماء جار كثير ، وتفرد فيها طيور مختلفة الاشكال والالوان .

واثر كل ما تقدم باد لكل ذي عقل في اللغتين .

انت اذا اردت خيرا للعربي قلت له (أثلج الله صدرك) وهو يحب ذلك طبعا ، لان الجو عليه شديد الحرارة ، كما شرحت لك ، ودعاؤك يبرده عليه ، فهو دعاء عزيز عليه ، مناسب لبيئته ، عبرت عنه لغته بما يهوى .

اما اذا اردت نفس الدعاء تقدمه للفرنسي باللغة الفرنسية ، فحذار ان تترجم ذلك حرفيا ، حذار ان تقول له في لغته ، أثلج الله صدرك . فما ذا تريد ــ بالله عليك ــ ان يفعل بالبرودة في صدره ، وهو يرتعد من شدة البرد القارص طيلة السنة تقريبا ، قل له ، ويحك ، ادفأ الله صدرك ، ربما هو كلام لا تقبله اللغة العربية ولكن ترجمه الى اللغات الاوربية وقله للاوربي، ترى ، بحول الله ومعونته ما يسرك ، ولله في خلقه شؤون .

– 4 –

4 ــ وجها لوجه ، يدا بيد

كم من مرة رأينا الناس يتلذذون بالعبارة يسمعونها او يقرأونها ، ثم يحلو لهم بعد ذلك ان يطنبوا في التشهير بجمالها ورونقها . وقد يحملهم هذا الزهو الى محاولة مقارنة هذه العبارات الجميلة بما يخيل اليهم انهم يعرفونه في اللغات الاخرى . ويتفق ان هؤلاء الذين يستحلون هذه العبارات ، يستحلونها في اللغات الاجنبية على العموم والفرنسية على الخصوص وانهم يقارنونها بما في اللغة العربية التي يجهلون عنها الكثير ولم يقدر لهم ان يتعبوا انفسهم في معرفتها ، فضلا عن الغوص الى اعماقها . ولهذا يصلون حتما الى تفضيل اللغة الفرنسية على لغة الام . انا اعرف كما تعرف ويعرف الناس معنا ان من حقهم ان يقوموا اللغات ، ويفاضلوا بينها ، ثم يصدرون احكاما ينشرونها او يكتمونها . ولكنني مع ذلك لا اجهل كما لا تجهل وكما لا يجهل الناس معنا ان التحيز للغة ما ، عمل ممقوت رديء يحسن الترفع عنه . وانا ارى كما لا شك ترى معي ويرى الناس جميعهم معنا أن الحكم النزيه هو الذي يعتمد على المعرفة الصحيحة الشاملة الكاملة لجميع عناصر المسألة .

فالذي يعرف العبارة الفرنسية ولا يعرف غيرها، لم يتمكن من جميع العناصر ; ولهذا ستراه ، طبعا ، يميل الى اللغة الفرنسية ، تدفعه نحوها دوافع لا يستطيع ان يصفها ، ويفر من اللغة العربية يحمله على الفرار منها محامل يصعب تحديدها . فهو اذن يحب الاولى ويكره الثانية ، وهذه سنة الكون والذي يعرف العبارة العربية ويجهل مثيلاتها في اللغة الفرنسية يحترم الاولى ويقدرها ، ويبغض الثانية ويحتقرها ، وهو امر طبيعي يساير القانون البشري ولا يخالفه .

والعبارة التي احب ان احدثك عنها اليوم ، والتي كانت سبب هذا البيان اعلاه ، هي قول الفرنسية (En tête à tête) ولقد وجد بعض اصدقائي في هذه العبارة جمالا لا يوصف ، كما يقول . ولا اكتمكم ان قلت لكم ، انني ــ رغم محاولات مخلصة نزيهة ــ لم اجد فيها جمالا ، لا الذي يوصف ولا الذي لا يوصف رغم ان ثقافتي فرنسية لا عربية . ولا يمكن ان يكون فيها جمال ، وهي عبارة محرفة عن اصلها مستحدثة في اللغة الفرنسية لا لجمالها ; وانما اوحاها هذا التيار الجارف العاتي الذي بدا يهب على الفرنسية ايضا ، دون شفقة ولا رحمة ; يقلب الاستعمال على النحو لا يعبا بجمال ولا يحترم فنا .

ولا ادري هل صديقي الكريم المنوه بهذه العبارة يعرف انها كانت محاربة من طرف علماء اللغة الفرنسية وان العبارة الصحيحة المقبولة هي (Tête à tête) ام لا ؟ .

فليعلم ــ امتع الله به ــ ان هذه العبارة الفاسدة التي يحلو له ترديدها لم تظهر الا منذ حوالي قرنين من الزمن .

ان موليير لم يقل في روايته « المنافق الا » (Tête à tête) التي اترجمها بـ « وجها لوجه »
الآن جاز لنا ان نقارن بين العبارتين ، نفاضل بينهما ، نعارض هذه بتلك ، نبحث عن سهولة النطق وصعوبته ; وعذوبة الجرس ، وسلاسة الصوت في كلتيهما .

انا لا احب ان أؤثر في نتيجتك ، بل اتمنى ان تكون حرا في اختيارك ، واختيارك ، ولا شك سيكون مطابقا للذوق السليم . والذوق السليم هنا واضح بين .

ومثل هذه العبارة قولهم (En main propre) التي يقول فيها العرب : « يدا بيد » والتي يستنكف

شبابنا – عفا الله عنه – عن استعمالها . وحجته في هذا الصدد ان العبارة محملة دينا ، وان رائحة الفقه تعبق منها من بعيـد ، عفـا الله عن شبابنا وهـداه السبيـــل .

– 5 –

اللغة كما قال اكثر من مفكر « كائن حي » وهو كالكائن الحي ؛ تولد وتنمو وتشب وتهرم ثم تموت . تمر في حياتها بما يمر منه كل كائن حي . ولابد لكل كائن حي من مسببات ليولد، والولادة قد تكون عسيرة، وقد تكون صعبة ، والولد قد يكون معروف الوالدين، وقد يكون مجهولهما . وليس ثمة أي فرق بين الولد يولد من بطن الام ، بعد مخاض قد يطول وقد يقصر ، وبين الكلمة تولد في فم الناس .

ولابد لكل كان حي من مسببات ليموت ؛ والموت أصعب مما نظن ، يعرف علاماتها الاطباء ويشاركهم في بعضها عامة الناس . والالفاظ – لانها كائنات حيـة ايضا – تموت ؛ وعلامات قرب فنائهـا معروفة عنـد المهتمين بهذا الامر . ولا بأس بذكر بعضها هنا ؛ فقد يفيدنا ذلك في معرفة لغتنا ، وهي الغايـة التي نريـد الوصول اليها . واكرم بها من غاية ! يصيب اللفظة بعد الاستعمال الطويل عياء لا قبل لها به ؛ فتبدا اجزاؤها تتقلص وتسقط الواحدة تلو الاخرى ، وتشرف على خطر داهم يقودها الى نهايتها .

لكن لكل داء دواء ، فداء السل كان يميت الناس دون شفقة ولا رحمة ، فوجد الاطباء له علاجا بعـد بحث مضن ، متواصل ، وهم الان يبحثون عـن دواء لداء السرطان ، ولن تخيب جهودهم ابدا .

فحقن B.C.G. تقتـل مكـروب Koch الفتاك ، فتطيل عمر المصاب بداء السـل الى ان يشاء الله ، ولكنها لا تمنحه الابدية .

وعلماء اللغة توصلوا الى نفس النتيجـة التـي توصل اليها اخوانهم الاطباء . استطاعوا ان يجـدوا دواء للفظة التي اصيبت بداء فتاك كداء السل واطالوا بذلك عمرها الى ان يشاء الله ، ولكنهم لم يمنحوهـا ولن يمنحوها الازلية على كل حال ، وما هم بقادرين .

قلنا اعلاه ان اللفظة تولد وتموت كما يولد كـل حي ويموت ، وقلنـا ان للولادة اسبابـا ، وللمـوت اسبابا ، ولكننا لم نمثل لذلك بعد .

اما ولادة اللفظة فامر معروف لا يحتاج الى بيان، فكلما دعت الضرورة لتمتين شيء أوجـدوا لـه ، في احوال كثيرة ، لفظة تدل عليه ، اما كيفية ايجاد هذه اللفظة ، وتوليدها فامر يطول شرحه ولا تسمح بنشره الظروف الحالية .

اما فناء اللفظة فهو الذي سنبسط الكلام فيه ، لاسباب اهمها ان الناس لا يعرفون بعد ، ان اللفظـة تموت ، ولا يعرفـون تبعـا لذلـك علامات فنائهـا ، ويشرفني ان أكون في اللغة العربية من السـابقين لهذه الفكرة وليست هي على كل حال فكرة نهائية لا تقبل النقاش ، بل هو رأي اعتقدت انه صوابـا ؛ فاذا عـن لغيري عكس ما رايت ، فليتفضل مشكورا لارشادنا .

اشرت الى علامات قرب فناء اللفظة حين قلت « تبدا اجزاء اللفظة تتقلص الواحـدة تلو الاخـرى ، وتشرف على خطر داهم يقودها الى نهايتها ، واحسن مثال لذلك كلمة ، او على الاحرى عبارة « ايمن الله » فقد اصابها مرض عضال ، بـدا ينقص من اطرافهـا ، فسقط أولا النون من « ايمن » فصارت « أيم الله » ثم سقط الالف فصارت « يم الله » ثم سقطت الياء فصارت « م الله » آنذاك تدخل اطباء اللغة محاولين تمديد عمر هذه الكلمة فمنحوها دواء ناجعـا ، اطـال عمرها الى امد غير مسمى ، فقالوا انها صارت حرفا ، والحرف مبني ابدا . والبناء دواء فعال في مثل هذه الظروف ، لا يشك احد في فائدته ، نرجو لهذه المفردة المريضة ولمثيلتها طول العمر .

– 7 –

تموت الافراد لسبب من الاسباب ، ولكنها تقتل ايضا لجريمة ارتكبتها .

تحدثنا فيما سبق عن الموت الطبيعي يصيـب الافراد كما يصيب الالفاظ ، والان نتحدث عن القتل الذي تستحقه الفاظ اللغـة لجريمـة اقترفتها كمـا تستوجبه جميع الكائنـات الحية ، حيـن الاجـرام الكبيـــر .

وسبب قتل الكلمات نوعان : نـوع مدنـي ، ان صح هذا التعبير ، تفرضه الحياة التي نعيشها وعوائد الناس من ادب وحشمة ووقار وعفة ، ونوع دينـي يحتمه الدين الحنيف ، وتفرضه مبادىء الشريعـة السمحـــاء .

نضطر في الحياة اليومية التي نعيشها ان نسمي الاشياء باسمائها ، وليست كل الاسماء التي نتناولها

بالحديث اسماء عادية يستطيع ان يذكرها الكل للجميع ، دون حياء ؛ بل فيها كلمات يطلب الادب من الناس ان يترفعوا عن ذكرها مع الاخرين او اذا جاز الحديث بها مع الاجنبي ، كره الحديث بها مع فرد من افراد العائلة قريب او بعيد .

ومن بين هذه الكلمات المفردة التي وردت في بيت الشاعرة حاجة بنت الحفص الركونية للشاعر ابي جعفر ، والتي نطلق عليها حياء الخلاء .

ومن بين هذه الالفاظ التي نستحيي من ذكرها امام من نحترمه ، ما جاء في البيتين الشهيرين الذين وصف بهما ولادة بنت المستكفي الشاعر الاندلسي ، ابن زيدون حين قالت له :

ولقبت المسدس وهو نعت
تفارقك الحياة ولا يفارق

. . . .

وديوث وقرنان وسارق

أعوذ بالله من هذه الالفاظ ، تصدر من امراة عالمة نشأت في بيت الخلافة .

- 8 -

هذه الالفاظ ومثيلاتها التي مرت بنا آنفا ، لا لا نقولها بذاتها ، وانما نعبر عنها ، اما بما يشعر بها ، واما بوصف يقارب معناها ، كل حسب مداركه .

فهذه الالفاظ وامثالها كثيرةمقتولة غير مستعملة بذاتها ، وان كان القاموس العربي يشملها هي وشرحها .

وكثيرا ما تغير اللفظة التي توحي بفجور او مجون بلفظة « طاهرة » تدل على معناها ولكن هذه اللفظة « الطاهرة » تنزل مع الاستعمال ومع طول المدة الى الدرك الوسخ ، فتبدأ توحي بما كانت توحي به اللفظة القديمة التي سبقتها .

والامثلة على ذلك في اللغة العربية كثيرة جدا ؛ واخاف ان اقتصرت علىاللغة العربيةلم تعم الفائدةلاننا نقولها متأسفين لا نهتم بعد بتطور لغتنا،حتىنستطيعان ناخذ العبرة من امثلتها . ولذا اراني مضطرا ان أمثل باللغة الفرنسية وما يقال في لغة يقال في سائر اللغات . (1) كانوا يطلقون في اللغة الفرنسية على مكان الخلاء Cabinet ثم راوا انها كلمة ساقطة يجب الترفع عنها فقالوا w.c وهما الحرفان الاولان من كلمتين ساكسونيتين . لكن بعد استعمال طويل اتضح انهما صارتا بدورهما توحيان بما لا نحب ان نسمعه ؛ ولهذا نرى الان في عصرنا هذا الميل الى تغيير w.c بـ Toilette وهي مفردة لا زالت طاهرة ؛ واعتقد انها ستبقى طاهرة لمدة طويلة وبعد ذلك تقتل كما قتلت مثيلاتها . هذه هي نهاية كل كائن حي ؛ ولله الامر من قبل ومن بعد .

اكادير : **الراجي التهامي الهاسمي**

---

1) انظر شرح ذلك في مقالي جولة عبر الالفاظ (مجلة الايمان السنة الاولى العدد 6) .

الحمد لله وحده

من المعلوم جدا أن الحمدلة هذه كانت مما اختصت به الكتابة الموحدية ، فقد اتخذوها علامة لهم ، ووجدنا الشاعرة حفصة الركونية تخاطب عبد المومن بهذه الابيات :

يا سيد الناس يا من
يؤمل الناس رفده
امنن علي بصك
يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه
الحمد لله وحده

ويذكر بعض المؤرخين المعاصرين أن يوسف ابن عبد المومن هو الذي اتخذ علامته هذه .

والواقع ان هذه الحمدلة ، كانت معروفة فيما قبل بما يزيد على خمسين سنة ، على الاقل ، فقد عثرنا على وثيقة كتبت بصقلية عام 506 ، مفتتحة بهذه الحمدلة ، فيظهر أنها كانت معروفة هكذا ، وان الموحدين اتخذوها ـ متبنين لها ـ علامة لهم ؛ او ان ذلك كان من محض الصدف ، والوثيقة هي هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده

هذا ما اشترى زكري النصراني بن الشيخ سليمان العطار شرى وكالة للقايد غفور بن الشيخ الاروطو حرسه الله بامره وما له من الكاتب ارغيسة المعلم عبد الرحمن القرشي ومن والدته عايكة بنت الكاتب احمد بن .... التميمي اشترى منهما له باذن كل واحد منهما لصاحبه فى البيع والقبض والتسليم والابرا جميع حظهما ومبلغ ملكهما الذي بينهما نصفان بالسوا وذلك النصف يتبايعاه من جميع الفوار ذي القصب الفارسي الذي من رباع مدينة بلرم بقرب الدجاجين هو الذي نصفه الباقي من املاك القائد غفور المشتري له جميع هذا الفوار المبيع نصفه فى هذا الكتاب وتحيط به حدود اربع هي نهاياته وآخر غاياته فالحد القبلي منه ينتهي الى ...لعبد الحميد العلالي والحد الشرقي منه ينتهي الى الطريق الحاملة الى باب سور...ومنه مدخله ومخرجه والحد الغربي منه والدبور منه ينتهيان جميعا الى ربع سدوس فاشترى زكري بن سليمان المشترى المذكور من ارغيسة ووالدته عايكة البايعين المذكورين جميع حظهما ومبلغ ملكهما فى الفوار المذكور وهو النصف على المشاعة من جميعه بجميع ما لذلك من حق فى جميع حقوقه كلها ارضه وقصبه الفارسي الذي به وفى حدوده كلها وما يعد له وينسب اليه من جميع جهاته وساير امكانه وجنباته اشترا صحيحا جايزا لا شرط فى عقده يفسده ولا عدة تنقضه ولا خيار يبطله ولا على جهة رهن ولا تليجة سوى شروطه المذكورة فى هذا الكتاب بثمن جملته تسعون رباعيا دوقية جيازا حول بصقلية دفع زكري المشترى المذكور الى ارغيسة ووالدته عايكة البايعين

المذكورين الذي جملته تسعون رباعيا فقبضا ذلك منه وصار اليهما وتوزعاه بينهما شطرين بحسب اشتراكهما في المبيع المذكور وابرا في ذلك زكري والقائد غفور المشترين ابراة تامة براة قبض واستيفاء واذنا له في قبض النصف من الفوار المذكور فقبض ذلك منهما بامرهما قبض مثله وحازه باذنهما حوز شكله من الاجزاء المشاعة وصار ذلك اليه وفي يديه تامة للقايد المشترى به وابراهما بتسليمه اليه البراة التامة وتبايعوا جميعا جميع ما ذكر تبايعهم اليه في هذا الكتاب بعد اقرار ارغيسة وزكري المتبايعين المذكورين بالنظر الى جميع الفوار المذكور والوقوف عليه والتقليب فيه والاحاطة بجميع حقوقه كلها وقصبه الفارسي الذي به وبعد ان وصفه لعايكة البايعة المذكورة واوهي ثقة عارف صفة قام لها مقام العيان والمشاهدة فبعد الاحاطة منهم بذلك كله كما يحاط بمثله عقدوا بينهم التبايع من النصف المذكور فيه بما سمي ونسب عليهم وذلك بينهم بالابدان المتباينة وهي المعرفة التي لا خلاف بين العلماء في تمامها وما كان في هذا المبيع من درك يدرك القايد غفور المذكور المشترى له واجبا لجنبه يقدر ذلك وعهد به على ارغيسة ووالدته عايكة البايعين المذكورين ضمانا صحيحا واجبا عليهما لازما لاموالهما وذمتهما على ما يجب بيع الاسلام وعهدته وتقضي به احكامه وسنته واقر زكري المشتري المذكور اقرارا فرديا بجميع ما ولي اشتراه في هذا الكتاب للقايد غفور المذكور ومن ماله دفع الثمن المذكور وان اشهد معه عارفه في هذا الكتاب فيما يجب الاستشهاد عنه وانه ابراه من الثمن المذكور براة تامة وقبل لذلك منه في يده قبولا والذين شهدوا على عايكة بنت الكاتب احمد البايعة المذكورة بما سمي ونسب اليها في هذا الكتاب من البيع او القبض والتسليم من عرفها بحال الصحة وجواز الامر هما من البت ... في الفصل منهما، وشهد على شهادتهم بذلك كله ثم شهدوا اجمعون على معرفة ارغيسة عبد الرحمن الكاتب المعلم البايع المذكور وعلى معرفة زكري بن سليمان العطار النصراني المشتري المذكور وعلى اقرارهما واشهادهما على انفسهما بجميع ما سمي ونسب اليهما في هذا الكتاب من عرفها بحال الصحة وجواز الامر وذلك بتاريخ العشر الاول من رجب من سنة ست وخمسمائة شهد بذلك كله : مجاهد بن حسين الكندي محمد .. ابن محمد القيسي ، علي بن ابي الفتح بن ... محمد ابن ابي الفتح بن ...

تطوان : محمد بن تاويت



التوجهات

للاستاذ : عبد القادر زمامه

134 – لولا مصائب الدنيا ... !

تحدث الحافظ ابو نعيم الاصبهاني فى «الحلية» ج 10 ص 164 قال :

« حدثنا محمد بن الحسين ، قال سمعت محمد ابن عبد الله يقول : دخلت على ابراهيم المغربي ... ؟ وقد رفسته بغلة فكسرت رجله .. ! فقال :
لولا مصائب الدنيا لقدمنا على الله مفاليس .. !

135 – صلاح الدين .. وابو زكرياء المغربي ... ! ؟

تحدث العماد الكاتب الاصفهاني فى كتابه «الفتح القسي» ص 263 ... قائلا عن صلاح الدين الايوبي .. :

« وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي ابي زكرياء المغربي ... وهو مقيم فى مسجده . عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ... وقصده السلطان على فراسخ ... ولقي منه فى الحلم والوقار الطود الراسخ ... واهتدى بسجاياه ... ؛ واقتدى بوصاياه ... ! ! »

36 – مسك .. ! وكافور ... !

وجدت من شعر العلامة ابن عبد الله المسناوي الدلائي المتوفى سنة 1136 هـ ...
قالت :

ارى مسكة الليل البهيم غدت
كافورة اخلقتها راحة الزمن

فقلت : طيب بطيب ! . والتبدل في
روائح الطيب غير ممتهن

قالت : صدقت ولكن ليس ذاك كذا!
المسك للعرس..!والكافور للكفن .

137 – الجميلات ... قبل القبيحات

فى (الذخيرة السنية) ص 42 اثناء الحديث عن ابي العباس السبتي .

« وكان مذهبه رحمه الله ... ان اهل الجمال من النساء الفقيرات .. تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن ، وان القبيحات .. لايتصدق عليهن بشيء حتى يستفتي الملاح ... ! ! »

138 – فكانت مباركة ... !!

في (الذخيرة السنية) ص 66

« وفيها (سنة 641 هـ) نقض امير المومنين السعيد (الموحد) جامع حسان الذي برباط الفتح وصنع بخشبه الاجفان القزوانية .. ! فكانت مباركة ... ! فاحرقت بوادي ازمور ... ! ! !

139 ـ في مدتكم المباركة ... !

فى كتاب « الذخيرة السنية » ص 28

« يحكى ان السيد ابا ابراهيم (ابن والدين . الموحدي) لما وصل الى مدينة فاس مهزوما .. وقف بباب الفتوح ... ليتدارك به الناس ... فيدخل بهم البلد ... فبينما هو واقف هناك اذ اقبل عليه من اهل عسكره حفاة مستترين بالمشعلة (*) فقال لهم : ما هذا ... ؟

فقالوا له : فى مدتكم المباركة ... ! وتحت لوائكم المنصور ... !! »

140 ـ ويختار الودع ... !

وجدت فى ديوان الشاعر الفحل الفقيه سيدي محمد غريط :

بنى هذا الدهر من دهر به
كل من شب على الخفض ارتفع

فكأن الدهر زنجي غدا
يترك الدر .. ويختار الودع .. !

141 ـ الشاذلي « بضم الذال »

فى الرحلة الناصرية المطبوعة على الحجر بفاس ص 17 .

« **لطيفة** : وجدنا بسجلماسة فى حجة سنة ستة وتسعين فى كتاب « الاذكار » للمديوني . وهو كتاب جليل كبير ضبط سيدنا ابا الحسن الشاذلي بضم الذال المعجمة ... !! وعبارته الشاذلي بضم الذال ... !! »

والمعروف الجاري على الالسنة كسرها ...

142 ـ قد نزل العسل من السماء ... !!

فى كتاب (ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكي بلغة فاس) تاليف سيدي عبد السلام العلمي ... المطبوع على الحجر بفاس ...

(*) نبات معروف .

« **خشكنجبين** » : طل كالمن . وقد نزل يوما عندنا على الصوابر التي هي خارج باب الفتح احد ابواب فاس كالعسل فكانت الصبيان تاتي بعيدان الصابرة للمدينة وعليها ذلك العسل غير انه كالعسل المر ... اعني فيه طعم الصابرة ... وعامة الناس تقول :

قد نزل العسل من السماء .... !!! »

143 ـ العياشي .. وبردلة .. وابن الحاج ..

اجتمع هؤلاء الاعلام : ابو سالم العياشي المتوفى سنة 1090 هـ وابو حامد العربي بردلة المتوفى سنة 1133 هـ وابو العباس ابن الحاج المتوفى سنة 1109 هـ فى جنان الشيخ حمدون المزوار المتوفى 1088 هـ وهذا الجنان كان يسمى قصيبة ...

فانشد ابو سالم العياشي :

يا صاحبي . فما العمر باجمعه
وان تطاول من يوم السرور بدل

فاغتنما اليوم ببستان قصيبة
عشية هي للمشتاق اقصى امل

ما بين دوح وازهار منمقة
وجدول مثل دمع فى الخدود همل

فاجابه ابو حامد بردلة :

في فتية كبدور التم قد طلعت
اذا ارى حسنهم بدر السماء افل

فقال ابو سالم :

وغنت الطير والاغصان مطرقة
وقد كساها اصيل اليوم ثوب خجل

فقال بردلة :

فياله زمنا نلنا السرور به
وغاب عنا الاسى لو كان فيه مهل

ثم تتابعت المداعبات بينهم الى ان توجه ابو حامد بردلة الى ابن سالم العياشي قائلا :

لنا خليل لا يفي
بوعده اذا وعد

يرتـــاح للجـــــدوي اذا
كــان لوقتهـــا امــــــد

ثـم اذا استنجـزتـــــه
عنــد خلولهـــا جحــــــد

فأجابه أبو العباس ابن الحاج :

استغفر الله ولا تقل مقالا ينتقـــد
فمن وصفت لا يفي مثل وفائه احد

فقال ابو حامد بردلة :

بــل اتـــق اللـــه ولا
تشهـد شهـادة تــــرد
وقـــل بمـــا تعلمــــه
فقولـك الحـق اســــد

144 ـ « صلوات » الانفـــاس ... !!

من اغرب واطرف ما وجدت فى تحريف اسمـاء الكتب والمؤلفين ما ذكره الفيلسوف الوجودي الدكتور عبد الرحمن بدوي فى كتابه « التـراث اليونانـي فى الحضارة الاسلامية » الطبعـة الثانيـة ص 233 ... التعليق رقم ـ 1 ـ

« يروي الكتاني (كذا) فى صلوات الانفاس (كذا) طبعة فاس سنة 1314 هـ ج 2 ص 190 ... عن سيدي محمد بن الهاشمي المتوفى سنة 823 هـ ... انه لقب بصاحب النور المحمدي لانه كان اذا راى احدا يقول : اهلا بالنور المحمدي »

ولا شك انه يقصد : « الكتاني » كما يقصد كتابه الشهير « سلوة الانفاس »

145 ـ ودع العيـــــش ... !

وجدت من شعر المؤرخ الشاعر الفحل مـولاي احمد التميشي رحمه الله .. :

جس الطبيب يدي كي يدرك الالمـا
وصاح بالسمع نحو القلب فابتسما

وقال ماذا الذي تشكو ، فقلت لـه :
انت الطبيب الذي يشخص السقما

فقال لي:قد فحصت الجسم منك فما
الفيت ضرا به . ولم اجـد المـــا

فقلت : دائي عياء لســت تعرفــه
قد حار قبلك فى تشخيصه الحكمــا

دائي صدود الذي اهوى وجفوتــه
ووصله يذهب الاسقام والالمـــــا

فقال : داء عضال قد اصبـت بــه
فودع العيش وارقب بعده العدما.!

فاس : عبد القادر زمامة

الفدائيون الفلسطينيون

للشاعر اللبناني الأستاذ حسن الأمين

حييت طالعة الربيع وانما ... ازكى ربيعنا ربيع جهاد
شارت به يافا وهبت غزة ... وتصايح الاجناد بالاجناد
قومي ربيعهم السيوف وعيدهم ... في كل واد صرخة استشهاد
زانت دماؤهم الجبال ونضرت ... اشلاؤهم وجه التراب الصادي
سل عنهم ريا السهول وطيبها ... وغضارة الاغوار والانجاد
هل غير محمر الدماء زهورهم ... وغناؤهم غير الرصاص الشادي
اربيع طبت ففي نسيمك عبقة ... من صوت كل مناضل نواد
وعلى رياضك من جراحة يعرب ... في القدس طاقات من الاوراد
اربيع لن تهتاج غير حماستي ... بجمالك الزاهي وغير زيادي
يا منشدا غر القصائد هاتها ... من فيك شعرا ملهب الانشاد
حدث عن الابطال عن غزواتهم ... عن كل مقدام وكل جواد
حدث عن الوطن الذبيح واهله ... كم يستغيث ويرتجي وينادي
الناعمات الغيد بعد وجومها ... متضاحكات للنضال شوادي
يهتفن للحرب العوان ثوائرا ... ويهجن بأس الفتية الانجاد
فيجيبهن رصاص ابطال الحمى ... متتابع الابراق والارعاد
فتميد في البر المديد جباله ... ويسيل بالنيران قلب الوادي

* * *

صمتا فقد نطق الرصاص وحسبنا ... ان الرصاص الى القتال ينادي

في سفح نابلس لهيب معارك وعلى جبال القدس صوت جهاد
كل يلوذ بنخوة عربية كل يردد صرخة استنجاد

* * *

يا ثائرا بالنار يحمي ارضه ويذب عنها جاهدا ويفادى
لم يستكن للغاصبين ولم يدع علجا يدوس مراقد الاجداد
انشدتني لحن الرصاص وربما اشجاك في ليل الوغى انشادي
قد صغت فيك الشعر حرا ثائرا يذكي الجبان ويستهيج الهادي
ارنو اليك فمن لظاك قصائدي نظمت ومن قاني دماك مدادي
ردد على الاسماع انغام الظبى نارية الترجيع والترداد
قل للغفاة عن القتال الم تروا ماذا يراوح « قدسكم » ويغادي
يا نائمين على الحرير وما دروا انا ننام على فراش قتاد
متلفعين دم المعارك ما لنا الا الحصا في القفر ظهر وساد
نغدو على النيران يذكيها لنا غدر اللئام وخسة الاوغاد
ونبيت لا ندري انصبح بعدها ام ان عين الموت بالمرصاد
يا نائمين وما دروا انا هنا لسنا نذوق اليوم طعم رقاد

لبنان : حسن الامين

المحنة المنبهة

للشاعر المدني الحمراوي

روعت قلبا ساليا ... واسلت دمعا غاليا
واثرت شجوا فى الحشا ... يا مخبرا بل ناعيا
اودت فلسطين التي ... شغلت مدى آماليا
عاث اللصوص بقدسها ... وجنوا هناك مخازيا
كم قتلوا من نسوة ... فعلوا بهن مساويا
وامامهن – بغلظة – ... ذبحوا لهن ذراريا
بقروا بطون حوامل ... ورموا بهن عواريا
وعلى الشيوخ تجمعوا ... ضربا وقتلا ضاريا
وعلى ضعاف عالة ... صبوا جحيما حاميا
حسبوا التوحش مكسبا ... به يبلغون معاليا
لكنهم لو حققوا ... لراوه خزيا باقيا
وغدا يعود عليهمو ... بوباله متراميا
ما جار – قط – مسلط ... الا تدحرج هاويا
فليذكروا اجرامهم ... وليرقبوا به جازيا
والمسجد الاقصى الذي ... صبوا عليه دواهيا
وجنوا على حرماته ... واتو شنارا باغيا
سيحاسبون بقسوة ... ويرون يوما عاتيا

حتى تقول ذئابهم ... جاء القصاص مساويا

فلنمحقن غرورهم ... بالنار محقا قاسيا

ولنكتبن صحيفة ... ما ان ترى لها طاويا

ـمن بعد نصر ناله ... سلف سندرك ثانيا

لن نسلم الاقصى ولن ... نرضى عليه تغاضيا

سنذود عنه عصابة ... قد دنسته تعاميا

حتى يعود مطهرا ... منهم ويبقى ساميا

مسرى الرسول محمد ... ما ان ترى له ناسيا

كيف السكوت واحمد ... صلى هناك مناجيا !

ربط البراق ببابه ... حتى تعبد داعيا

ثم استقله صاعدا ... فى الجو يعرج ماضيا

هل بعد هذا رخصة ... تدع الموحد لاهيا ؟

كلا فان القدس لـ ... ـلاسلام كان مأويا

عمر أتاه مصليا ... وصلاح فكه تاليا

وغدا نعيد حرامه ... يوما قريبا آتيا

حتى يكون الحق يو ... م الفتح عنا راضيا

الرباط — المدني الحمراوي



أصداء في الأدب الموحدي

للأستاذ محمد بن تاويت

نريد بالادب الموحدي الشعر منه اكثر مما نريد النثر ، ونريده متصلا بهذه الدولة بالذات ، وهو بذلك شعر الامداح وما اليها من تهنيات ووصف انتصارات فيها او في بعضها

وليس بيدنا بعد ذلك شيء لو اردناه الا بعض القصائد لابن حبوس فابي حفص الاغماتي ثم ابي الربيع سليمان الموحدي .

كما انه ليس بيدنا ايضا من هذا الشعر قصائد في الرثاء والرثاء كما كانت الجمهرة تتصوره اخو المدح الا ما كان من ابي الربيع في بعض اخوته

اما رثاء الملوك والامراء من حيث انهم كذلك فهو باب في الادب العربي عامة باب ضيق جدا بقدر ما باب الامداح واسع جدا

فمن الاول الرائيين في الشرق البحتري في رائيته التي تحولت الى رثاء الايوان ، ولا نعلم على عهده وحتى في العهد الموحدي من رثى الملوك ممن مدحهم او غيرهم

ويبدو أن الرثاء لم يكن من طبيعة شعرائنا فاننا لا نجده في ذلك الوقت وحتى بعده بنحو قرنين من الزمان الا في اولئك الشعراء الذين اتصلوا بالاندلس فقلدوها كمثل أبي الربيع المذكور في القرن السادس وابن شهيد في القرن السابع

الى ان كان القرن العاشر فوجدنا بعض الرثاء لامراء سعديين مثل محمد الحراف

ولا يمكن ان يعلل هذا بعدم الوفاء بل بالطبيعة اولا وبالحرج الذي كان يحس به الشعراء ثانيا فاظهار اللوعة كان لابد ان يقترن بالفرحة وغالبا ما يكون هذا المطلوب مدعاة للكلفة التي تجعل صاحبها يضعف في شعره ازاء تصوير هذين الانفعالين كما سنجد قريبا في بعض مراثي ابن دراج

ثم ان هذه الاصداء التي نعنيها في الادب الموحدي لا يسمح لنا الوقت باستيعابها ودراستها كما يجب بل اننا نكتفي فيها الآن بنماذج قليلة تاركين القول الاخير فيها لمناسبة اطول من هذه هنا في بلدنا هذا او في بلدكم المغرب ان شاء الله

وبهذا فموضوعنا نماذج من اصداء في امداح الموحدين ثم في النهاية نومىء الى مصدر او مصدرين من هذه الاصداء في نثرهم ونكتفي بذلك

نهضت الدولة الموحدية على حلم عظيم ارادت ان تحققه بكل عزم وفي كل ميدان ، ذلكم الحلم هو الثورة على كل شيء ، الثورة على الاوضاع السياسية والاجتماعية ، الثورة على مناحي التفكير في العقائد والاحكام والعلوم عامة ، الثورة بالتجديد في كل شيء ، وباعادة صرح الدولة الاسلامية الكبرى قويا شامخا عظيما مهيبا .

فكانت الاطاحة بدولة الفاطميين ، بعد انتقاد المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، كما نعلم من مناظرة ابن تومرت وتصرفاته الاولى ، وكان نظام تفكير في العقيدة يختلف تمام الاختلاف عما كان عليه في المغرب

بل في العالم الاسلامي عامة ، تفكير قالوا انه اشعري ولكنه في الواقع لم تكن فيه بيزنطية الاشعري كما عهدنا في الشرق ، اذ كانت فيه عناصر عملية تنفجر بالاعتزال وآونة بالخارجية ان وجدت في هذا وذاك متنفسا لها ، وتنظر في مناهج العلوم ، فتجد المنهج الاولي منها يحتاج الى ثورة عارمة ، فيمهدون الى ابن مضاء ، واذا به يحمل راية الثورة على منهج النحاة ويؤلف كتابه المعروف ، وهذا الفقه كان قد وصل الى مرحلته الراكدة واغلق ابوابه على الفكر الاسلامي ثم اغلق نوافذه فاختنق به من كان على رمق من الحياة ، فجاء الموحدون ، وحطموا أو حاولوا ان يحطموا هذا السجن، وقالوا بالانطلاق،أجل،الانطلاق والعتق والتحرر من كل قول وكل مذهب ، والاعتصام بالمنبع الاول الكتاب والسنة ، فالفت التآليف العديدة ، ولم يكونوا كذلك في ظاهرية او حزمية بالحرف ، بل كانوا الى جانب الفكرة عمليين يربون النشء على هذا التحرر ، كما يربونه على الفتوة والجهاد في سبيل العقيدة والدين .

هذه مبادىء اجملها الناس فيما وسموا به ثورة ابن تومرت ، ولكن ابن تومرت وثورته بعد هذا في حاجات الى دراسات ودراسات لم ينتبه اليها الدارسون حتى الآن ، وكل ما يمكن أن يقال ان الرجل بدا بالعمل تلاه الظهور بالفكرة على عكس ما عهد في غيره

وعلى كل حال فالثورة الجذرية حاصلة ، وتدعيم الثورة لابد له من ايمان قوي وثقة عميقة وطاعة متفانية لهذا القائم بالثورة وبهذا الزعيم في الفداء ، وفي هذا الداعي الى خلق المعجزات ، فناخذ اذن بمذهب الشيعة ، القائم على الايمان بالحق الالهي والطاعة لمن تحقق بذلك ، والثقة بالمصير فهو خالد خلود الدهر وهو وارث الارض وهو الجبل الذي لا تنفصم عراه ، الا ان هولاء لم يركنوا الى التشيع ركونا نظريا يرجع الى الماضي فيحاسب عليه ويطمح الى المستقبل فيغرق في حلمه ، ويبقى بين الماضي وبين المستقبل يدفعه هذا ويجذبه ذاك ، وانما اراد ابن تومرت أن يرى للاصحاب هذه الحقيقة عيانا ، ففعل فيها ما فعل ووفق في فعلته القاسية ، فكان النصر حليفا وكانت دولة الموحدين ، تهدر بالعظمة وتجيش بالقوة ، فلا يحدها البحار الهائجة ولا الجبال الماردة ولا الصحاري الشاسعة

من المعلوم ان الدولة الموحدية كانت اول دولة مغربية ، حرصت على الشعر يقال فيها ، والمدح يسجل مفاخرها ، ولهذا وجدنا اول خلفائها ، عبد المومن ، يستدعي اليه الشعراء ، وقد حل بجبل الفتح ، فيقول فيه هؤلاء ما قالوا ، ويتولاه بالتعليق عليه استحسانا او استهجانا او استيثارا ، فيقول مثلا بهذا تمدح الخلفاء تعليقا على مدح الشريف الطليق ، وحينما يقول هذا : ما للعدا جنة اوقى من الهرب يرفع صوته بقوله:الى اين؟ الى اين؟ فيتم الشاعر بيته بقوله: اين المفر وخيل الله في الطلب ، ويقول معلقا على بيتي ابن سيد، غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل

وانظر الى الجبل الراسي على جبل
انى استقر به انى استقل بم
انى راى شخصه العالي فلم يزل
لقد تقلتنا يا رجل

نعم ، هذا ما كان من عبد المومن وهو ما كان من الخلفاء بعده ، حرصا متناهيا ، ونقدا بارعا ، تحلوا به منذ عبد المومن الى المامون على الخصوص

فما اللون الذي كان هؤلاء الخلفاء يحبونه في هذه الامداح ؟

لقد كان الموحدون مفتونين بالعظمة ماخوذين بها في كل شيء ، ومن تلك تسميتهم لانفسهم بالخلفاء ، كما راينا من عبد المومن ومن تلك العظمة الماثلة لنا حتى الآن في مبانيهم بالمغرب وغيره ، وكذلك وجدناهم مسحورين بهذه العظمة في تلك الامداح التي تصلصل باجراسها ، وتطفى بمعانيها ، طغيانا لا حد له ، ولكنه في ذوق يستسيغه وسياج من الحكمة يحيطه ، ولهذا رفض عبد المومن من الشاعر هذا الجبل الذي تعجب ان يستقر على جبل طارق وان يستقل به جبل طارق الذي راى شخص عبد المومن فلم يزل ... بينما نراه تقبل هذا الجبل من الشريف الطليق حينما قال :

وطود طارق قد حل الامام به
كالطور كان لموسى أيمن الرتب
لو يعرف الطود ما غشاه من كرم
لم يبسط النور فيه الكف للسحب
ولو تيقن بأسا حل ذروته
لفار كالعين من خوف ومن رهب

فانظروا الى الفرق بين تناول الشاعرين ، ولهذا كان التعليق عليهما مختلفا ، كما راينا

من ناحية المعاني اغراق في المبالغة ، ولكن التناول تناول الفنان البليد ، هو ابن سيد اللص ، وتناول الفنان اللبق هو الطليق

لا شك ان الشعراء المحترفين يجدون انفسهم مضطرين الى من يرفدهم في حرفتهم التي يتنفسون بانفاسها حتى الرمق الاخير ، ولهذا فاننا نجد صورهم تتكرر ، تكرر انفاس اطماعهم ؛ وقد يختنقون فيتنفسون تنفسا صناعيا يسعفهم غيرهم ؛ وما أشد ما يكون هؤلاء من رجال الاسعاف ، اذا ما شهروا بالقدرة والمهارة في عملهم ؛ بل كثيرا ما يكون اولئك الضعاف من الشعراء متنفسا لهؤلاء الاقوياء منهم ، كما نجد ذلك في اخبار ذي الرمة مع غيره من المستضعفين واخباره هو – مستضعفا – مع اولئك الفحول من نحو جرير وغيره .

وعلى كل حال ، كان شعراؤنا بالبلاط الموحدي يبحثون عن الاقوياء لينجدوهم ، وكانت ابصارهم تشخص غالبا الى الشرق والاندلس .

اما الذين آووا الى الشرق فالتمسوا بغيتهم في المتنبي ، واولهم محمد بن حبوس الفاسي ، الذي كان اول من انشد عبد المومن من الشعراء الذين اجتمعوا على بابه بالمناسبة الآنفة الذكر ، فقد انشده قصيدة، اولها كما في المعجب :

بلغ الزمان بهديكم ما املا
وتعلمت ايامه أن تعدلا

وبحسبه أن كان شيئا قابلا
وجد الهداية صورة فتشكلا

ومنها ابيات نجدها في نظم الجمان ، وهي :

بخليفة المهدي سيدنا اغتدى
نهج العلوم معبدا ومذللا

وتفجرت عين النباهة بعد ما
قد كان خاطرها اكل واجبلا

قد صير المعقول قلبا ماثلا
فمتى رميناه اصبنا المقتلا

ورعى جميع العلم في اوطانه
من كان يدي الضعف أن يتنقلا

وافيت حضرته المقدس تربها
فاذا الذي ابصرت لن يتخيلا

ووقفت وسط سماطه فوجدته
سوقا تقام على المعارف والعلا

لم الق الا عالما وازاءه
متعلما متكثرا متقللا

ومدارسا تسع الرياضة لو رأى
سقراط سيرتها لذم الهيكلا

وبصرت بالطوسي يفهق حوله
وأبي المعالي مجملا ومفصلا

لم الف الا مصقعا أو مفلقا
ومجادلا عن دينه ومرسلا

والكل في علم الامام مقصر
حسب المبرز منهم ان ليلا

فاترك عكاظا والوفود بسوقها
حذقا وسحبان الخطيب ودغفلا

يعشو لها الاعشى بنار محلق
ويضم علقمة اليها جرولا

والحق بحضرته السنية واستمع
للقول واحذر – ويك – ان تتقولا

فيها كمال الدين والدنيا معا
وسعادة الارواح في أن تكملا

فهذه القصيدة قدت على قصيدة معروفة مدح بها المتنبي ابن العميد على اول وفوده عليه ، ومطلعها:

باد هواك صبرت ام لم تصبرا
وبكاك ان لم يجر دمعك او جرى

ومن اغرب ما نجد في هذا الباب ، ان الشاعر ابن حبوس هذا ، اغار على بيتين في مطلع قصيدة للمتنبي ، يمدح بها سيف الدولة ، فجعلهما في مطلع قصيدة يمدح بها أحد الامراء فقال :

سر حل حيث تحله النوار
واراد فيك مرادك الاقدار

واذا ارتحلت فشيعتك غمامة
انى حللت وديمة مدرار

تنفي الهجير بظلها وتنيم بالر
رش القتام وكيف شئت تدار

وقضى الاله بأن تعود مظفرا
وقضت بسيفك نحبها الكفار

وكان المتنبي قد قال :

سر حل حيث تحله النوار
وأراد فيك مرادك المقدار

واذا ارتحلت فشيعتك سلامة
حيث اتجهت وديمة مدرار

وبهذا ترى شاعرنا ابن حبوس لم يغير الا تغييرا طفيفا لا يذكر ، ثم موه على ذلك كله بما نجده في ادراك العوام ، وهو ما في البيت الثالث

قال عبد الواحد المراكشي في هذا الشاعر : كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة ابن هانيء الاندلسي، في قصد الالفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وايثار التقعير ، وهذا قد يكون صحيحا في بعض قصائده المتصلة بهذه الدولة ، ولكننا وجدناه متصلا بالمتنبي فيما بايدنا من اشعار تتصل بالدولة .

وللشاعر اشعار وقصائد اخرى في اغراض خاصة لا تبدو عليها مسحة لا للمتنبي ولا لابن هانيء ، وكذلك القول في غيره من مثل الاغماتي وابي الربيع الموحدي ممن سيذكرون فيما بعد . ولهذا فهذا اللون كان مطلوبا من الدولة في عهود عظمتها الاولى قبل ان يكون صادرا عن سلائق الشعراء انفسهم .

ومن الشعراء الذين يعتبرون شعراء البلاط الموحدي ، شاعر كانت له مواقف مع ابي العباس الجراوي ، شاعر الخلافة كما قيل ، هذا الشاعر هو ابو حفص عمر الاغماتي ، الذي نجد من قصائده في الدولة قصيدة يفتتحها بقوله :

الا هكذا تبنى العلا والمآثر
وتسمو الى الامر الكبير الاكابر

ولا شك ان هذا المطلع نظر الى مطلع القصيدة التي شهرت جدا عن المتنبي في سيف الدولة :

على قدر اهل العزم تاتي العزائم
وتاتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

ومن الاسف ان ليس بيدنا من قصيدة الاغماتي الا مطلعها،والا لكنا لا محالة نستشف منها الوانا وصورا من فن المتنبي عموما او قصيدته تلك خصوصا .

وهذا الجراوي نفسه نجده في مدحه لابي يعقوب يوسف بن عبد المومن يقول :

ستملك ارض مصر والعراقا
وتجري نحوك الامم استباقا

اذا لم يتفق راي وراي
افادا في محبتك اتفاقا

صفا لك كل قلب غير صاف
وزحزح عن ضمائره النفاقا

وحقكم وحقكم عظيم
لقد حسن الزمان بكم وراقا

وقد بلغ الوجود بكم مناه
وقد امنت عصا الدين انشقاقا

تبادرت الفتوح اليك تجري
غرائبها وتستبق استباقا

امير المومنين ومن عليه
سنا الاسلام يأتلق ائتلاقا

ويا ملكا احنت كل ارض
الى ارض اقام بها اشتياقا

يحن اليك يوم غير ءات
ويشكو الذاهب الماضي الفراقا

شكوت فاي قلب غير شاك
واي العيش لم يمرر مذاقا

ولولا عطفة الابلال كنا
بنار الوجد نحترق احتراقا

فهذه القصيدة تنظر الى قصيدة المتنبي في سيف الدولة ومطلعها :

ايدري الربع اي دم اراقا
واي قلوب هذا الركب شاقا

فهو ايضا من هؤلاء الشعراء الذين رددوا اصداء المتنبي في امداحهم لهذه الدولة ، الا ان ما بيدنا من اشعاره ، يجعلنا نعتقد على عكس ابن حبوس انه كان يعتمد على ابن هانيء الاندلسي اكثر من اعتماده على المتنبي ، كما سنرى .

وهناك شاعر آخر اخذ بنصيبه من الشرق والاندلس وهو الامير ابو الربيع الموحدي حيث نجده في قصيدة قالها في المنصور بمناسبة شكوى الم به ومطلعها :

الم بالملك من آلامك الالم
ومال بالملوك الساق والقدم

يعتمد على قصيدتين للمتنبي في سيف الدولة مطلع احداهما :

واحر قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ومطلع الاخرى فيه :

المجـــد عوفي اذ عوفيت والكـــرم
وزال عنـــك الى اعدائـك الالـم

ولم يحاول ابو الربيع ان يخفي اخذه بل عمـــد فضمن من القصيدة شعره وقـــال :

قلنـا نترجم عن اخلاص حبكـم
اذا سلمت فكل الناس قد سلمــوا

فليهنا وجميع الخلق راحة مـــن
وجدان كـل حياة بعدكــم عـــدم

واراني في غنى ان اذكر حضراتكم هنا ببيتي المتنبـــي :

وما اخصـــك في بـــرء بتهنئـــة
اذا سلمت فكل الناس قد سلمـوا

يا مـــن يعـــز علينـــا ان نفارقهـم
وجداننـــا كل شيء بعدكم عـــدم

ويقول ابو بكر بن المنخل مادحا لعبد المومن بهذه المناسبة ، بقصيدة مطلعهـــا :

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا
فان نسيم النصر بالفتح قد هبـــا

باتيا قصيدته على قصيدة للمتنبـــي في مـــدح سيف الدولـــة :

فدیناك من ربـــع وان زدتنا كربـــا
فانك كنت الشرق للشمس والغربـا

ففيها نجد ابياتا كثيرة شديدة الاتصال بالتي للمتنبي ، وخصوصا في هذه :

وكيف التداذي بالاصائل والضحـى
اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبـــا

ويقول شاعرنا :

رميتم بها مثل السهـــام فاصبحت
كماتهم صرعـــى واموالهـم نهبـــا

وقـــول المتنبـــي :

سرایاك تترى والدمستق هـــارب
واصحابـــه قتلـــى وامواله نهبـــا

ويقـــول :

فلو لم تجزها السفن نحو عدوهـــا
لجازت اليه البحر تقطعــه وثبـــا

وقـــال المتنبـــي :

ذكرت به وصلا كأن لم افـــز بـــه
وعيشا كأنـــي كنت اقطعه وثبـــا

ويقـــول :

اتوكـــم يجرون الحديد سوابغـــا
كأنهـم البحر الغمالط قـــد عبـــا

ويقـــول المتنبي :

ويخشى عباب البحر والبحر ساكن
فكيف بمن يغشى البـلاد اذا عبـــا

ويقـــول :

اذا اجـدبت ارض نحاهـــا بجـــوده
فما اغزر السقيا وما اكثر الخصبا

ولو علـــم الناس الخفيات امـــره
لـمـا درسوا صحفا ولا صنفوا كتبـا

ويقـــول المتنبـــي :

فيا شوق ما ابقى وبالي من النـوى
ويا دمع ما اجرى ويا قلب ما اصبا

عليـــم باسـرار الديانات واللغـــى
له خطرات تفضح الناس والكتبـــا

ويقـــول :

فلمـــا تـلاقيـــم وبينت الوغـــى
تولوا وقد طـــارت قلوبهم رعبـــا

ويقـــول المتنبـــي :

كذا يترك الاعداء من يكـــره القنـــا
ويقفـــل مـــن كانت غنيمته رعبـــا

ويقـــول :

فما اعطت العرب القيـــاد طواعـــة
ولا اسمحت ودا ولا اذعنت حبـــا

ويقـــول المتنبـــي :

ولم تفترق عنـــه الاسنـــة رحمـــة
ولم تترك الشام الاعادي له حبـــا

ويقـــول :

ضمان عليكم ان تبيحـــوا حريمـــه
وان تكسـروا فيها التماثيل والصلبا

ويقـــول المتنبي :

وخلى الدارى والبطاريق والقـرى
وشعث النصارى والقرابين والصلبا

الى غير هذه الابيات التي شعر ابن المتخل فيها بالحرج ، فأراد ان يتخلص منه بلباقة في قوله :

ويستنشد البطريق في عرصاتكم
« فدیناك من ربع وان زدتنا كربـا »

فهو ياتي بهذا الابداع ليفهمنا انه قصد ما يشبه المعارضـــــة .

ويخاطب ابن سيد المالقي عبد المومـــن بقصيدة ذيل بها كتابا كان جوابا عن آخر ذيل بشعـــر كذلك، فيقـــول في مطلعهـــا :

هو الامـــر امر الله ليس لـــه رد
يؤيـــده ايـــد ويسمو بـــه جـــد

ناظرا فيها من بعيد الى قصيدة للمتنبي يمـدح بها علي بن سيار ومطلعها :

اقـــل فعالي بلـــه اكثـــره جـــد
وذا الجد فيه نلت او لم انل جـــد

وكذلك نجد اللامية التي مـدح بها اللص عبـد المومن بجبل الفتح ، تنظر الى قصيدتين للمتنبي فـي سيف الدولة ، مطلع احداهما :

اجاب دمعي وما الداعي سوى طلـــل
دعـــا فلبـــاه قبل الركب والابـــل

و مطلـــع الاخـــرى :

اعلى الممالك ما يبنـى على الاســـل
والطعـــن عند محبيهـــن كالقبـــل

ويمدحه عبيد الله بن صاحب الصلاة بقصيدة طويلـــة مطلعها :

تـــلالا من نـــور الخلافة بـــارق
اضاءت به الآفـــاق والليل غاســـق

ناظرا الى قصيدة للمتنبي في مدح الحسين بن اسحق التنوخـــي ومطلعهـــا :

هو البين حتى ما تأتـــى الحزائـــق
ويا قلب حتى انت ممـــن افـــارق

فنجد في هذه ابياتا تنظر الى اخـــرى قصيدة المتنبي ، منها هذه

يقـــول شاعرنا :

تكـــاد الربـــى تنحط عند لقائـــه
وتسرع نهضـــا للقـــاء السمالـــق

فلو شاء لم يركب جوادا بجحفـــل
ولا حملته في السفـــار الايانـــق

ويقـــول المتنبـــي :

وليـــل دجوجـــي كأنا جلت لنـــا
محيـــاك فيه فاهتدينا السمالـــق

فما زال لولا نـــور وجهك جنحـــه
ولا جابـــه الركبـــان لولا الايانـــق

ويقـــول :

ففي ظلـــه امن من الخـــوف مانـــع
وفي كفـــه بحـــر من الجـــود رازق

ويقـــول المتنبي :

فما ترزق الاقدار من انت حـــارم
ولا تحرم الاقـــدار من أنت رازق

ويقـــول :

فلولاك لم يقطـــع حسام لضارب
ولا فتـــق الخطـــي ما هو فاتـــق

ويقـــول المتنبي :

ولا تفتـــق الايام ما انـــت راتـــق
ولا ترتـــق الايام ما انـــت فاتـــق

ويقـــول :

اذا هـــم امرا لم يلـــج بحقيقـــة
وغـــاب دليل للتفهـــم صـــادق

بدا من ضياء العقـــل هدي يدلـــه
عليه ومن نـــور البصيرة سابـــق

ويقـــول :

فـــلا ذو يـــد الا لامـــرك ناصـــر
ولا ذو فـــم الا لشكـــرك ناطـــق

ويقـــول المتنبي :

يحاجي به ما ناطـــق وهـــو ساكت
يرى ساكتـــا والسيف فيه ناطـــق

ويقـــول :

تنومهم بيض الخدود نواعم
وتوقظهم سمر القنا والسوابق

وفي بعض الاحيان قد تكون المعاني غير واضحة القرابة الا ان اتساق القافية على وتر واحد يجعلنا نطمئن الى ان الشاعر كان ينظر اليها ، ويقال ان القرشي الطليق ، لما مدح عبد المومن ببائيته التي استحسنها ، فقال بهذا تمدح الخلفاء ، كان يعارض بها ، كما يقول المقري ، بائية ابي تمام في المعتصم ، والواقع انه كان ينظر الى بائية للمتنبي في رثاء اخت سيف الدولة ، ومطلعها :

يا اخت خير اخ يا بنت خير اب
كناية بهما عن اشرف النسب

اما قصيدة الطليق فمطلعها :

ما للعدا جنة اوقى من الهرب
اين المفر وخيل الله في الطلب

فهذا المطلع مأخوذ من :

وعاد في طلب المتروك تاركه
انا لنغفل والايام في الطلب

ويقول شاعرنا :

ان آب من غزوة افنت اعاديه
كان الاياب لاخرى اعظم النسب

ناظرا فيه الى مطلع المتنبي

ويقول :

جرت معارككم في الناس كلهم
جري الصقال على الهندية القضب

ويقول المتنبي :

فما تقلد بالياقوت مشبهها
ولا تقلد بالهندية القضب

ويقول :

وطود طارق قد حل الامام به
كالطور كان لموسى ايمن الرتب

وقال المتنبي :

اذا رأى ورآها راس لابسه
رأى المقانع اعلى منه في الرتب

وغير هذه ابيات ينظر فيها من بعيد الى المتنبي ، ولا علاقة للقصيدة مع بائية ابي تمام :

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

ولا شك ان التناول غير واضح تماما ولكنه على كل حال محسوس ، كما انه محسوس في ابيات اخرى للمتنبي اخذه فيها من بائية ابي تمام وان لم يتنبه لهذا احد على ما في علمي .

ويقول اسماعيل بن عمر الشواش قصيدة في تهنئة عبد المومن بعيد الفطر يستهلها بقوله :

بأمرك اسمع الداعي المهيب
وسعدك يسر الفتح القريب

ناظرا الى قصيدة للمتنبي في مدح سيف الدولة :

ابدري من ارابك من يريب
وهل ترقى الى الفلك الخطوب

وهذه قصيدة اخرى قالها صاحبها ـ وهو ابو عمر بن حربون ـ مهنئا يوسف بن عبد المومن بالبيعة يقول في مطلعها :

لكم بعد حمد الله تهدى المحامد
وفي وصف علياكم تصاغ القلائد

فقد نظر فيها من بعيد الى قصيدة للمتنبي في مدح سيف الدولة ومطلعها :

عواذل ذات الخال في حواسد
وان ضجيع الخود مني لماجد

وهذه قصيدة اخرى لعمر بن حربون ايضا يهنئه فيها بالاياب من جبل الفتح ويقول في مطلعها :

بأيمن طائر كان الاياب
وانجح مطلب بلغ الطلاب

فقد نظر فيها الى قصيدة للمتنبي في مدح سيف الدولة يقول في مطلعها :

بغيرك راعيا عبث الذئاب
وغيرك صارما ثلب الضراب

وهذه اخرى له في مدح الامير ابي حفص الموحدي ، اخي الخليفة يوسف ، يقول في مطلعها :

وجد النسيم تناءكم فتعطرا
ورأى الوشيح مضاءكم فتأطرا

نظر فيها الى لامية المتنبي في ابن العميد التي تقدم ذكرها

ويأمر من هذا الامير نظم قصيدة على لسانه يتشوق فيها الى اخيه الخليفة يقول في مطلعها :

سلام ايها الملك الهمام
على ناديك دام له السلام

فنظر فيها الى قصيدة للمتنبي في مدح المغيث بن علي العجلي ، ومطلعها :

فؤاد ما تسليه المدام
وعمر مثل ما تهب اللئام

ولابن حربون قصائد اخرى في الموحدين كان ينظر الى المتنبي في اغلبها

واما الذين اتجهوا الى الاندلس حيث ابن هانيء فابو العباس الجراوي السالف الذكر

لقد اشتهر الجراوي بالمدح كما اشتهر ابن هانيء به ، وكان مدحا قاصرا على الدولة الموحدية ؛ او ما حفظ لنا منه قاصر عليها ؛ كذلك ما حفظ لنا من مدح ابن هانيء يكاد يكون قاصرا على الدولة الفاطمية، الا ان هذا فيه قواد ورجال دولة الى جانب الخليفة المعز لدين الله ، بينما الذي حفظ لنا من مدح الجراوي قاصر على الخلفاء الاربعة ؛ الاول : عبد المومن فابنه يوسف فابن هذا يعقوب فابنه محمد الناصر ، ولهذا كان على حق من سمى هذا الشاعر بشاعر الخلافة الموحدية ؛ وكان ابن هانيء اثير لدى المعز لدين الله ، حتى انه قال عنه ، وقد بلغه نعيه : انا كنا نريد ان نباهي به المشرق . وكذلك كان الجراوي لدى عبد المومن ، فقال له : يا ابا العباس انا نباهي بك الاندلس . وكان الجراوي يعتمد في قصائده على قصيدة لابن هانيء قالها في انتصارات المعز على الروم بتخوم الشام مطلعها :

يوم عريض في الفخار طويل
ما تنقضي غرر له وحجول

وكان ذلك اواسط القرن الرابع

وفي منتصف القرن السادس كان الخليفة الاول عبد المومن الموحدي يسترجع المهدية من يد النصارى، واذا بالشاعر الجراوي ينظم قصيدته في هذا الحادث الجلل ، على وتيرة قصيدة ابن هانيء المذكورة واستهلها بقوله :

لمن الخيول كانهن سيول
غصت بهن سباسب وحجول

طويت لها الدنيا فابعد ما انتحت
دان وابطا سيرها تعجيل

يغزو اديم الارض من صهلانها
مثل اسمها حتى تكاد تزول

فصهيلها محض الثناء وان يكن
لا يفهم الاسماع منها صهيل

تثني على الملك الذي ايامه
ستر على هذا الورى مسدول

عم البسيطة ملكه فكانه
سيل على كل البلاد يسيل

جهل النصارى انه الملك الذي
يرث البلاد وعذرهم مقبول

اهل الجهالة هم فكيف الوهم
وعلمت ان الطبع ليس يحول

وكان ابن هانيء قد قال في قصيدته تلك :

انت الذي ترث البلاد لديهم
فالارض فال والسجود دليل

اهل الفرار فليت شعري عندهم
هل حدثوا ان الطباع تحول

وليسمعن صليلها في هامهم
ان كان يسمع للسيوف صليل

ووراءهم حيث اتحوا وامامهم
تطوى بهن تنائف وهجول

واستشعرت اجبالها لك هيبة
حتى حسبنا انها ستزول

ورعية هداب عدلك فوقها
ستر على مهجاتها مسدول

ومن اخفى فعله اخذه هذا البيت :

شهد البرية كلهم لك بالعلى
ان البرية شاهد مقبول

وقلبه في قوله :

جهل النصارى انه الملك الذي
يرث البلاد وعذرهم مقبول

على انه اخذ مما سبقه الوصف بـ « الذي يرث البلاد » كما انه اخذ من قصيدة اخرى في الموضوع ومطلعها :

الحـب حيث المعشـر الاعـداء
والصبـر حيث الكلة السـراء

قولــه :

جهــل البطارق انه الملك الـذي
اوصـى البنين بسلمـه الآبـاء
فتصرف في هذا الاخذ تصرفا بينا

والى جانب الادماج في قصيدتـه ، نـرى على العكس تفريقا ، كما في قوله السابق في المطلع :

لمـن الخيـول كانهـن سيول
غصـت بهـن سبائـب وهجـول

طويت لها الدنيـا فأبعد ما انتحت
دان وابطـا سيرهـا تعجيـل

اذ فرق فيهما البيت :

ووراءهم حيث انتحوا وامامهـم
تطـوى بهـن تنائـف وهجـول

كذلك نجد للجراوي قصيدة اخرى يقول فيها :

كانت محـل اناس قبلنا فخلـوا
عنهـا وآثارهم فيهـا مقيمـات

تالله لـو علمت مقـدار وارثهـا
هبت اليـك رباهـا والقـرارات

الى ان يقـول :

ومن يكـن من امير المومنيـن فقد
قامت على فضلـه منه الشهادات

اهتـا امام الهـدى فالعدل منبسط
والدين منتظم والكفـر اشتـات

اعيت مآثركم من ان تنـال وكـم
شنت عليهـا من الاقوال غـارات

وكم ارادت ولاة الشعـر تحصرها
فاخفقت دونهـا منهـم ارادات

هـذي ابيات عبـد مخلص لكـم
محض اعتقـاد وما تغني الابيـات

الامر اعظم مقدارا وارفـع مـن
ان قد تحيط بـه منـا مقامـات

ففي هذه نجد معاني من القصيدة التي استهلها ابن هانيء في المعز بقولـه :

مـا شئت لا ما شـاءت الاقـدار
فاحكـم فانت الواحـد القهـار

الى ان يقول في انتصاراته على الروم :

كانـت جنانـا ارضهم معروشـة
فاصابهـا مـن جيشـه اعصـار

امـوا عشاء عروبـة في غبطـة
فانـاخ بالمـوت الزؤام شيـار

واستقطع الخفقـان حب قلوبهـم
وجـلا الشرور وحلت الاذعـار

ويختم القصيدة بقولـه :

والبحر والتينـان شاهـدة بكـم
والشامخـات الشـم والاحجـار

والدو والظلمان والذئبـان والغـ
ـزلان حتـى خرنـق وفـرار

شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الـ
ـارزاق والآجـال والاعمـار

عطرت بك الافواه اذ عذبت لك الـ
ـامـواه حين صفت لك الاكـدار

جلـت صفاتك ان تحـد بمقـول
ما يصنـع المصـداق والمكثـار

والـلـه خصك بالقـرآن وفضلـه
واخجلتـي ما تبلـغ الاشعـار

وهذه قصيدة قالها الجراوي في عبد المومـن بمناسبة انتصاره على طاغية الروم بالاندلس ، ومطلعها :

اعليـت ديـن الواحـد القهـار
بالمشـرفيـة والقنـا الخطـار

فياخذ فيها من قصيدة لابن هانـيء في المعـز بمناسـبة انتصاره على الروم البزنطيين ومطلعها :

اقول دمى وهـي الحسان الرعابيب
ومن دون استار القبـاب محـارب

قباب واحباب وجلهمـة العـدى
وخيـل عراب فوقهـن اعـارب

فاخذ البيت وصيره في قولـه :

بعراب خيـل فوقهـن اعـارب
مـن كـل مقتحم على الاخطـار

بعد ما اخذ مطلع القصيدة من اخرى ، وهـي الهمزية التي سبقت الاشارة اليها ، قوله :

اعليت ديـن اللـه يا ابن نبيـه
فاليـوم فيـه تخمـط. وابـاء

وهذه قصيدة اخرى لـه قالها في المنصـور بمناسبة استرداد قفصة من ابن غانية استهلها بقوله:

عدوكم بخطوب البين مقصـود
وامركم باتصال النصـر موعـود

وملككم مستمـر ما لـه امـد
موقت دون يـوم الحشر محـدود

القى على كـل جبـار كلاكلـه
كانـه وهو في الاحيـاء مفقـود

الى ان يقـول :

القـى السلاح وولى يبتغي اصـدا
بنجبه وهو مروع القلب مفـؤود

ما مـر يوما بباب ظنـه سببـا
الى التخلص الا وهـو مسـدود

وهبه عـاش اليس الموت اروح من
عيـش يخالطـه هـم وتنكيـد

ويختمهـا بقولـه :

قـد ابهج الدين والدنيا مقامكـم
وكيف لا وهـو عند الله محمـود

جارى مناقبكم شعـري فقصر عن
بلـوغ ادنى مداها وهو مجهـود

من ليـس معتقدا ايجاب طاعتكـم
فليس يغنيـه ايمـان وتوحيـد

رضاكـم الدين والدنيا وعدلكـم
ظـل ظليـل على الايام ممـدود

دمتم حياة بني الدنيـا ودام لكـم
نصـر وفتـح وتمكين وتاييـد

ففي هذه القصيدة نجد ريحـا لقصيدة لابـن هانيء قالها في المعز بمناسبة ورود رسل الروم طالبين الصلـح ومطلعهـا :

الا طـرقتنـا والنجـوم ركـود
وفي الحي ايقاظ ونحـن هجـود

الى ان يقول في ملك الروم :

ومـا حلفـت الا الهجـوم وراءه
وان قال قـوم انهـن حشـود

ولكـن راى ذلا فهـانت منيتـه
وجـرب خطبانـا فلـدهيـد

وعرض يستجدي الحمـام لنفسه
وبعـض حمـام المستريح خلـود

الى ان يقـول في ممدوحـه :

من الخطل المعدود ان قيل ماجـد
وعادحـه المثني عليـه مجيـد

وهل يستوي وحي من الله منـزل
وقافيـة فـي الغابريـن شـرود

ولكن رايت الشعر سنة من خـلا
لـه رجـز ما ينقضي وقصيـد

شكـرت ودادا ان منـك سجيـة
تقبل شكـر العبـد وهـو ودود

فان يك تقصيـر فمني وان اقـل
سداد فمرمـى القائليـن سديـد

وان الذي سماك خيـر خليفـة
لمجري القضاء الحتمي حيث تريـد

اذا هجـروا الاوطـان ردهم الى
مصارعهـم ان ليس عنك محيـد

الى ان يقـول :

وملكـك ما ضمت عليـه تهائـم
وملكـك ما ضمت عليـه نجـود

ويختم القصيدة بقولـه :

اليك يفـر المسلمـون باسرهـم
وقـد وتروا وتـرا وانت مقيـد

وان اميـر المومنيـن كعهدهـم
وعنـد اميـر المومنيـن مزيـد

على ان الجراوي اخذ في قصيدته تلك بعض معان من غير ما ذكرنا كهذا البيت :

اذا حمى الاسـد الغضبان ناحيـة
لم يفتـرس ثعلب فيها ولا سيـد

من قول ابن هانيء في قصيدة سنذكرها بعد :

وهـل يرد الغيران مـاء وردتـه
اذا ورد الضرغـام لم يلغ الذئـب

وللجراوي قصيدة كان قد قالها في ابي يعقوب يوسف بن عبد المومن ، بمناسبة انتصاره على نصارى الاندلس استهلها بقولـه :

نظـر بكـل سـعـادة مقـرون
نالت بـه الدنيـا المنى والديـن

تقديـم من شهد الوجـود بانـه
ما زال بالتقديـم فيـه قميـن

ثـم يقـول :

تغـزو المهابـة عنه كل معانـد
ولو انـه اشتملت عليـه الصيـن

وتشب حيث توجهت عـزماتـه
حـرب كمـا وصفت لنا صفيـن

الى ان يقـول :

وكفاهـم ان كـان منهم مفخـرا
معنى الوجـود وسـره المكنـون

ملك اذا اضطرب الزمان مخافـة
لم يعيـه التسكيـن والتاميـن

ثـم يقـول :

وجرى الى الامـد الذي لم يجـره
ملك ولم تصعـد اليـه ظنـون

عـذرا ابا يعقـوب ان عـلاكـم
قـد افنت الامداح وهي فنـون

لا يبلـغ المنثـور الا بعـض ما
ترضـى لك العليـا ولا المـوزون

وكم مدحـة لك بعدهـا مذخورة
تـزن المدائـح كلهـا وتـزيـن

لو لم يسد الا نظيـرك لم يجـز
فيـه الامين مـدى ولا المامـون

قـد كـان ما نلت يرقب حينـه
حتى اتـى ولكـل شيء حيـن

ما زال امركم الذي هـو عصمـة
والعـز لا يعـدوه والتمكيـن

فهو في هذه القصيدة ينظر الى اخـرى لابن هانيء قالها في المعـز ، ويقال انها أول قصيدة لـه فيـه ، ومطلعهـا :

هـل من اعقـة عالـج يبريـن
ام منهما ما بقر الحـدوج العيـن

وفيهـا يقـول :

هـذا معـد والخلائـق كلهـا
هـذا المعـز متوجـا والديـن

هـذا ضمير النشأة الاولى التـي
بـدا الالـه وغيبهـا المكنـون

الى ان يقـول :

القت بايـدي الذل ملقى عمـرها
بالثـوب اذ فغـرت لها صفيـن

ثم يقـول :

اولم تشـن بهـا وقائعك التـي
جالت وراء الهنـد منهـا العيـن

بل لو سريت الى الخليج بعزمـة
سرت الكواكب فيه وهي سفيـن

ثـم يقـول :

قد جاء امـر الله واقترب المـدى
من كـل مطلع وحـان الحيـن

ورنا الى البلـد الاميـن بطرفـه
ملـك على سـر الالـه اميـن

وهـذه قصيدة له في المنصور يهنئه بسلامـة ايابـه مـن سفـر :

ايـاب الامـام حيـاة الامـم
توالـى السـرور بـه وانتظـم

فهـو في هذه القصيدة ينظر الى قصيدة لابن هانيء في مدح القائـد جعفـر بن علي الاندلسي ، ومطلعهـا :

امـا والمذاكـي يلكـن الشكـم
وضرب القـوانس فـوق البهـم

يقـول الجـراوي :

وجـاد بـه الارض صوب الحيـا
وجلـى الظلام بـه بـدر تـم

فشكـرا لخيـل وفلـك دنـت
بمستأصل الظلـم ماحـي الظلـم

اذا حـل في بلـدة امرعـت
فطاب جناهـا وفـاح المشـم

وقـال ابن هانـيء :

خلقت شهابا يضـيء الخطـوب
ولست شهـابا يضـيء الظلـم

فلـو كنت حيث نجـوم السمـاء
لما كـان في الارض رزق قسـم

كـرمت فكنت شجـى للكـرام
فلـم تتـرك القـر حتى لـؤم

واخرى قالها في ابي يوسف يعقوب المنصـور بمناسبة انتصاره على الفنصو التاسع في وقعة العقاب عـام 591 ، يقـول في اولها :

هو الفتح اعيا وصفه النظم والنثرا
وعمت جميع المسلمين بـه البشرى

الى ان يقول في المنصور :

معـز الهـدى معليه حامي ذماره
يجيـر على اعدائه البر والبحـر

ويقـول في اواخرهـا :

معـان بامـداد الملائـك منـزل
من المعقل الاسمـى مناوئه قسرا

يقصر فيه كـل مثـن وان عـلا
واجرى الى اقصى نهايته الفكـرا

ففي هذه كان على ذكر من قصيدة لابن هانـيء في المعز ، قالها عام 348 بمناسبة انتصار جوهر ببـلاد المغرب الاقصى ، ومطلعهـا :

الا هكذا فليهد من قـاد عسكـرا
واورد عـن راي الامـام واصدرا

الى ان يقـول :

اذا حـاربت عنه الملائكـة العـدى
مـلان سماء الله باسمك مشعـرا

ويقـول في اواخرهـا :

بلغت بك العليـا فلم ادن مادحـا
لاسال لكنـي دنـوت لاشكـرا

ودون هذا في الاخـذ من ابن هانيء قصيـدة لشاعرنـا قالها في الخليفـة الرابـع محمد الناصر بمناسبة بيعته ومطلعها ، صنع جميل جل عن ان يوصفا

وفيهـا يقـول :

هي بيعـة احيى الاله بهـا الورى
وحمى بها ديـن النبي المصطفـى

فابيات هذه القصيدة تذكرنا بقصيـدة لابـن هانيء في مدح المعز يستهلها بقوله :

هذا المعـز ابن النبي المصطفـى
سيذب عـن حرم النبي المصطفـى

وهناك قصائد اخرى للجراوي نحس فيها بنفس ابن هانيء ولا نستطيـع رجوعهـا الى قصيـدة او قصيدتين ومن تلك القصائد هذه التي قالها في مـدح المنصـور وافتتحها بقولـه :

لـواؤك منصور وسمرك غـالـب
وعزمك للاعـداء عنـك محـارب

لقـد ثكلت ام المناويء وغـررت
مبـاديء من احوالـه وعواقـب

سما لاستراق السمع من وهداتـه
ودون سمـاء الملك شهب ثواقـب

تـلاق عليه البر والبحر ترتمـي
سفيـن الى استيصالـه وكتائب

وفي الغيب من انجاد طائفة الهدى
ونصر اميـر المومنيـن غرائـب

وختمهـا بقولـه :

هو الامر امـر الله ليس يفوتـه
مناو ولا يثنى عليـه مناصـب

وما هارب منه ولـو بلـغ السهـا
بنـاج وهل ينجو من الله هـارب

بناصرها المنصـور تاهت خلافـة
تناسبـه في حسنـه وتناسـب

امـام له فضل على الخلق باهـر
ومرتبـة تنحط عنهـا المراتـب

مناقبـه مثل الكواكـب كثـرة
ونـورا الا لله تلـك المناقـب

هو الدوحة الشماء فى الارض اصلها
وقد زاحمت منها السماء الذوائب

لــه نسبــة قيسيــة قرشيــة
تقــر لهــا بالمعلومــات المناســب

حقيــق بميراث النبوة والهــدى
ولا عجــب ان المزايــا مواهــب

بقيتــم اميــر المومنين وسعدكــم
تهز قنا منه وتنضــى قواضــب

وبالجملــة فان شاعــر الخلافــة ابا العباس الجراوي لو انصف لقال قولة البحتري في أبي تمام « ما اكلت الخبــز الا بــه »

ومن الذين اخذوا بنصيبهم من الاندلس كمــا قلنا الامير سليمان الموحدي كما نجده فى قصيدة يمدح بها المنصور بمناسبة استرداده لقفصة كمــا سلف يستهلهــا بقولــه :

ضــاءت بنــور ايابــك الظلمــاء
وتباشــرت بقــدومك الارجــاء

وهــل البــلاد وانت الا روضــة
عطشانــة وسحــابــة هطــلاء

الى ان يقــول :

ومواكــب اردفتهــا بمــواكــب
ضــاء الفضــاء بها وغص المــاء

ثــم يقــول :

وارتــج بغــدان ومــاج بغــزه
ارض الشــام ومصــر والبلقــاء
ففي هذه استعان بقصيدة لعبد الحق ابن عطية

كان قد مدح بها الامير المرابطي عبد الله بن مزدلــي فقــال :

ضــاءت بنــور ايابــك الايــام
واعتــز تحت لوائــك الاســلام

الى أن قــال :

كــم صدمــة لك فيهم مشهــورة
غص العــراق بذكرهــا والشــام

واخيــرا نجد الى جانب هؤلاء من توجــه الى افريقية فى هذه الامداح كمــا حصــل من الشاعــر الاندلسي ابى بكر بن مجبر فى قصيدة مدح بها المنصور

وهي فى نفس المناسبة التي وجدنا فيهــا الجــراوي يستعين بابن هانيء وابى الربيع الموحدي بابن عطيــة وكان هذا يستعين بشاعر افريقي لم نعثر على اسمه بالعيــن وانما عثرنا على شعر قاله بمناسبة انتقــال عبيد الله الفاطمي الى المهدية يستهله بقولــه :

ليهنــك ايهــا الملــك الهمــام
قــدوم فيــه للدهر ابتســام

حططت الرحــل في بلد كريــم
رعتــه لــك الملائكــة الكــرام

لئــن عظم الحــرام وما يليــه
كمــا عظمت مشاهده العظــام

لقــد عظمت بأرض الغرب دار
بها الصلوات تقبــل والصيــام

هي المهديــة الحــرم الموقــى
كمــا بتهامــة البلد الحــرام

كــأن مقــام ابراهيــم فيــه
ثــرى قدميك ان عــدم المقــام

وان لثم الحجيج الركن اضحــى
لنــا بعــراص قصركــم التثــام

لئــن شاب الزمان وشاب ملك
دعائمــه اذا عجمــت حطــام

امــا ابن مجبــر فقــال :

اسائلكــم لمــن جيــش لهــام
طــلائعــه الملائكــة الكــرام

اتت كتب البشائــر عنــه تتــرى
كمــا يتحمــل الزهر الكمــام

تتــم ولــم تفــض ولا عجيــب
أيحجب نفحــة البدر الختــام

كان النصــر اضحكهــا ثغــورا
فللأيــام عنهــن ابتســام

وبالناس يرغــب عــن انــاس
لهــم بالدين والدنيــا قــوام

امامهــم اذا سلكــوا سبيــلا
كتــاب الله يتبعــه الامــام

يصاحبــه فيصحبــه امانــي
ويتبعــه فيتبعــه الانــام

هو الملك الكريم وما اصبنا
اذا قلنا هو الملك الهمام

فسل ما حل بالاعداء منه
وكيف استوصل الداء العقام

لقد برزت الى هون المنايا
وجوه كان يحجبها اللثام

وما اغنت قسي العز عنها
فليست تدفع القدر السهام

عدوا فوق الجياد وهم شخوص
وامسوا بالصعيد وهم رمام

هو الامر الرضى طوبى لنفس
يكون لها بعصمته اعتصام

حياة الدين دولته فدامت
لامر قد اتيح له الدوام

سلام الله عن قرب وبعد
عليه وحسبما نزل السلام

هذا ما يتصل بالناحية الفنية ، وهناك ناحية مذهبية أعني بها المذهب الشيعي ، ولا شك ان الشعراء في ذلك اعتمدوا كليا على ابن هانيء ولكن اعتمادهم لم يكن متطرفا ، كما اعتمدوا كذلك على مبادىءشيعية متطرفة الا انهم لم يفهموا خطر تطرفها او فهموه واخذوا بجانب منه دون الرجوع به الى اصل المذهب فيه ، فالشاعر الجراوي له قصائد تبدو فيها معالم التشيع كقوله فيها مادحا عبد المومن:

لو انها نصرت عليا لن ترد
خيل ابن حرب ساحة الانبار

هم اظهروه مع النبي وواجب
ان يتبعوا الاظهار بالاظهار

الى ان يقول :

اخليفة المهدي دمت مؤيدا
بالله منتقما من الكفار

ومن قصائده محمه في رثاء الحسن وهي لا تختلف عن تلك المراثي التي نعرفها للشيعة تقرا صبيحة يوم عاشوراء الا بهذا العبث حيث بنى اعجازها على اعجاز معلقة امريء القيس ونظمها للمنصور الموحدي فقال فيها :

الا يا رسول الله صدري توهجا
لمصرع سبط في الدماء تضرجا

فعطلت جيد اليأس من حلية الرجا
فتعسا لاقوام يريدون لي نجا
يقولون لا تهلك اسى وتجمل

ويقول :

اقول لحزن في الحسين تاكدا
تملك فؤادي منهما فيه منجدا

ولو غير هذا الرزء راح او اغتدى
لناديته قبل الوصول مرددا
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

ويقول :

وركب اذا جاراهم البرق يعثر
تذكرت فيهم كربلا فتحيروا

وغيداء لا تدري الاسى كيف يخطر
بثثت لها ما كنت بالطيف اضمر
فالهيتها عن ذي تمائم محول

ويقول :

اما لعهود الهاشميين حافظ
السبط يوم للرسالة غائظ

على ثكله قلب الكريم محافظ
فيا مهجتي اني على السبط فائظ
فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي

ويقول :

ابا فاسقا قاد الغرور شكائمه
فاورد في صدر الحسين صوارمه

تهيا ليوم الحشر تجرع علاقمه
فما لك منجى من خصومة فاطمة
وما ان ارى عنك العماية تنجلي

ولابي حفص الاغماتي قصائد كذلك ، حشر في بعضها مبدا خطيرا للتشيع فهو يقول في قصيدة :

الله حسبك والسبع الحواميم
تغزو بها سبعة وهي الاقاليم

سبع المثاني التي لله قمت بها
عليك من سرها معنى وتقويم

وانـت بالسور السبـع الطـوال
على كل الورى حاكم بالله محكـوم

وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقـة
بوعـد ربـك هيهات التناجيـم

تسمو بنفس على السبـع الشداد
فينـا وثم لها زلفـى وتحكيـم

ويختـم القصيدة بقولـه :

صل بالصلاة عليه صدق مدحتـه
ذاك رحيـق بهذا المسك مختـوم

فالعدد سبعة سر من اسرار الاسماعيلية ولهذا يقول عليك من سرها معنى وتقويم . فهناك آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد واخيرا محمد بـن اسماعيل المنسوب اليه المذهب الاسماعيلـي وبـه ـ كما يقولون ـ بلغت الفترة السادسة نهايتها وابتدات السابعة بابنه محمد الذي يعقبه كذلك سبعة من الائمة اولهم ابنه جعفر الصادق وثانيهم ابنه محمد الحبيب (ولد عبيد الله المهدي كما قيل)

ولهذه الدعائم فى التاويل الباطني امثال ، فالولاية مثلها آدم والطهارة مثلها نوح والصلاة مثلها ابراهيم والزكاة مثلها موسى والصوم مثله عيسى والحج مثله محمد والجهاد مثله سابع الايمة الذي هـو صاحب القيامـة .

ولا شك ان اعتقاد السبعة هذا خروج عن جادة الاسلام وان الاغماتي كغيره من رجال الدولة فى منأى عن هذا الاعتقاد الفاسد ، بل اننا نلحظ فى سبعته تلك روحا اسلاميا صرفا يحتمي بالقرءان « ولقد آتينـاك سبعا من المثاني » ويتبرأ من تاثير النجوم ضمنـا فـي قولـه :

وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقـة
بوعـد ربك هيهـات التناجيـم

لكننا مع هذا ما زلنا عند القول بأن الاغماتـي استغل السبعة الامامية وحولها ما امكن الى صراطها المستقيم ثم ختم قصيدته بالصلاة على الخليفة الامام كما يفعـل الشيعـة فقـال :

صلى بالصلاة عليه صدق مدحتـه
ذاك الرحيق بهذا المسك مختـوم

والواقع أن رسائل الموحدين تبدو عليها فكـرة المهدية صارخة اكثر مما تبدو على الاشعار المتصلـة بهذه الدولة وحسبنا ان نرجع الى مجموعة الرسائل الموحدية على عهد عبد المومن لنجد فيهـا ما قلنـا كما نجد ذلك ايضا فى خطبة الجمعة التي كانت فيهـا ادعية تقليدية لاتتغير وهي مثبتـة بكتاب المعجـب لعبد الواحد المراكشي .

واخيرا فمهارة كانت من اولئك الناس ان مازجوا بين انماط من الفكر ولاءموا بين امشاج من النزعـات فما وهنوا فيما صنعوا ولا ضاقوا بما سنوا الا فتـرة ثـار فيها المامون وحده وسرعان ما عادوا الى ما كانوا عليه وسجلوا للتاريخ موقفهم في المن بالامامة ولكـن النشاط الفكري تحول الى تونس مرة اخرى وتجددت الدولة بالحفصيين منها ولا نستبعد ان يكون ابن الابار كتب لهم درر السمط وهي آخر ومضة للتشيع فـي هذه الدولة الى ان كانت دولة السعديين فعاد المنصور الى هذه النغمة فى اشعار بلاطه التي ترددت فى مولديات الفشتالي وعبد الواحـد بن احمد الشريـف وابى الحسن الشياظمي . وقد جازى المنصـور سعيـد المالغـوس بالآلاف على شرحـه لـدرر السمـط وكـان للسياسة عملهـا .

تطوان : محمد بن تاويت

محمد بن الحسين العرائشي
شيخ الجماعة بمكناس

للأستاذ محمد المنوني

اسمه ونسبه – مولده ومتعلمه الاولي – أساتذته في العلوم – مسموعات واجازات – مكانته العلمية – اشتغاله بالتدريس – الاخذون عنه – اشتغالات اخرى للمترجم – اخلاقه وغيرته – مؤلفاته – وفاته ومدفنه وتابينه .

اسمه ونسبه

هو ابو عبد الله محمد بن الحسين العرائشي ، يرقى نسبه الى قاضي مكناس اثناء العهد الاسماعيلي: أبي محمد عبد الوهاب بن الحاج محمد المدعو حم العرائشي (1) وبتسلسل نسب المترجم اليه – حسب ابن زيدان (2) – هكذا : محمد بن الحسين بن الحاج عبد القادر بن علال بن اليمني بن علي بن القاضي عبد الوهاب المذكور ، وقد جاء ذكر فريق المترجم في طالعة « الديوان الاسماعيلي » الموضوع في بعض بيوتات مكناس (3) حسب الفقرة التالية :

العرائشيون من الذين وفدوا مع الولي الصالح سيدي عبد الله بن حمد ، واستوطنوا بالعرائش من ارض « تلاجدوت » بامر الولي المذكور ، حسبما برسوم ذلك – التي بأيديهم – القديمة » .

وقد كان المولى عبد الله بن حمد (4) انتقل الى سكنى مدينة مكناس حوالي أوائل القرن التاسع للهجرة ، وبهذا يكون قبيل المترجم وفد على مكناس في التاريخ المذكور ، وحسب الفقرة الانفة الذكر فقد استوطنوا – اولا – بالعرائش من أرض تلاجدوت ، وهذه – حسب الحوالة الاحمدية (5) – تقع بحارة « ورزيغة » أسفل المشهد المنسوب سيدي عبد العزيز (6) شمال المدينة على نحو 3 ك. م. ثم انتقلوا للسكنى بداخل مكناس في تاريخ غير مضبوط، غير انه من المؤكد انهم في العصر الاسماعيلي – كانوا قد استوطنوها ، حيث كان جد المترجم عبد الوهاب

---

1) ترجمة في « اتحاف اعلام الناس » لابن زيدان ج 5 ص 398 – 399 ، مع اضافة معلومات اخرى عنه في افتتاحية الحوالة الاحمدية بمكناس ، خ. ع. « فيلم » رقم 3 – لوحة 2 ، وترجمة والده هي الواردة في نفس المصدر الاول ج 4 ص 43 – 44 .

2) في « اعلام الحاضر والباد . بقطع اوداج من زعم ان الادب في ترك مديح صفوة العباد » ، السفر الاول ، مخطوطة المؤلف بالمكتبة الزيدانية تحت رقم 3174 ، بمناسبة تقديم قصيدة للمترجم ، مع اضافة يسيرة من فهرسة المترجم التي سيرد ذكرها بعد .

3) حسب النص الوارد في « المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف » لابن زيدان ، خ. ع. ج 595 ، ص 237 – 243 ، ومع الرجوع الى مخطوطة اخرى من نفس المصدر .

4) ترجمته ومراجعها في « اتحاف اعلام الناس » ج 4 ، ص 498 – 501 .

5) « الفيلم »السابق – الذكر – لوحة 246 .

6) لم اقف على ترجمته .

قاضيا بها ؛ كما كان القائد ابو العباس احمد بن الفقيه ابي يعزى العرائشي عاملا للسلطان ابي الفداء بهذه المدينة (7) ، ثم في اثناء القرن الثاني عشر ه يتصل عالم من فاس (8) بالجد الثالث للمترجم السيد اليمني كأحد طلبة مكناس ، التي لمع بها – اخيرا – اسم عمز المترجم : ابي العباس احمد بن الحاج عبد القادر العرائشي (9) آتي الذكر قريبا في عداد اشياخه ، وهكذا يتبين ان نسبة قبيل المترجم ليست للعرائش المدينة المعروفة شمال المغرب ، وانما هي للموضع المشار له بمقربة من مدينة مكناس .

مولده ومتعلمه الاولي

ولد في حدود عام 1280 ه \ 1863 – 1864 م ثم حفظ القرءان وتعلم بعض المبادىء الدينية على معلمه الاول :

1 – ابي العلاء ادريس بن محمد بن عبد الهادي الوالي الادريسي السجلماسي ثم المكناسي ، المتوفى عام 1335 ه \ 1916 – 1917 م . وقد كان كتابه يقع في حي « تيبربارين » ، في نفس مسجد هذا الحي الذي وقع تجديده أثناء العهد اليوسفي .

اساتذته في العلوم

وضع المترجم فهرسة سيرد ذكرها ضمن لائحة مؤلفاته ، وقد اورد فيها اسماء شيوخه في القرءان والعلوم ، وألم بتراجمهم مع مقروءاته عليهم ، وسنقتبس منها في موضوع اساتذة المترجم ، الذي تبتدىء دراسته للعلوم من عام 1295 ه او قبيلها ، وقد كان عمدته في هذه المرحلة هم الاعلام الذين سيرد ذكرهم حسب ترتيب وفياتهم :

2 – الطاهر بن الحاج الهادي بن العنابسة المشهور ببوحدو المكناسي المتوفى عام 1305ه\1888م، قرا عليه لامية الافعال لابن مالك مرتين ، والسلم للاخضري ، وبعض الخلاصة لابن مالك ، والعروض والقوافي ، وطرفا من أول جمع الجوامع للسبكي الى الكتابة .

3 – عم المترجم صنو والده للاب : ابو العباس احمد بن الحاج عبد القادر العرائشي المكناسي ، المتوفى عام 1318 ه \ 1901 م ، قرا عليه الربع الاول من الخلاصة ، وكشف الاسرار عن علم حروف الغبار، للقلصادي : من اوله الى فصل حل الاعداد الى ايمتها.

4 – محمد المفضل بن الهادي بن احمد بن المجذوب ابن عزوز المكناسي ، المتوفى عام 1319 ه \ 1901 م ، اخذ عنه المرشد المعين لابن عاشر من اوله الى آخره ، ومرة اخرى الى النصف ، والشمائل المحمدية للترمذي ، والنصف الاول من الخلاصة ، وطرفا كبيرا من الجامع الصحيح للبخاري ، وتدرب عليه في الفتوى .

5 – المفضل بن الحاج المكي بن احمد السوسي الاصل ، المكناسي الدار ، الفاسي الوفاة والاقبار ، عام 1320 ه \ 1902 م ، قرا عليه الرسالة القيروانية، والموطا ، والشفا ، وطرفا وافرا من الجامع الصحيح للبخاري ، وبعض المختصر الخليلي ، وشيئا من علم العروض ، والقصيدة الهمزية للبوصيري .

6 – ابو العباس احمد بن الطالب ابن سودة المري الفاسي ، قاضي مكناس ، المتوفى بفاس عام 1321 ه \ 1903 م ، سمع عليه صحيح البخاري بقراءة غيره ضمن جماعة ، سوى مجلسين لم يحضرهما لعذر وقرئا دون حضوره ، واخذ عنه شيئا من المختصر الخليلي من باب الشركة ، وقصيدتي البردة والهمزية.

7 – محمد السعدي بن الحاج محمد المنوني الحسني المكناسي ، المتوفى عام 1334 ه \ 1916 م ، اخذ عنه مطالب الربع المجيب ، وشرح له الرقوم المرسومة على رخامة الوقت بسطح مستودع المسجد الاعظم ، وغير ذلك ، وصار يستنيبه في توقيت هذا المسجد الى ان استقل به بعد .

8 – محمد بن عبد السلام بن الطيب بن الراضي بن حم الطاهري الحسني المكناسي قاضيها ، المتوفى عام 1339 ه \ 1921 م ، قرا عليه المقدمة الاجرومية مرتين ، والخلاصة ، والمرشد المعين ، ثم المختصر الخليلي وتحفة ابن عاصم الا قليلا في الاخيرين،

---

7) مقدمة الديوان الاسماعيلي الانف الذكر .

8) هو محمد التاودي ابن سودة المري ، الذي ذكر هذا اواخر فهرسته اثناء ترجمة الصالح السيد لحسن بن مبارك السوسي دفين حي حمام الحرة من مكناس ، « مخطوطة خاصة » .

9) ترجمته في فهرسة المترجم ، مع « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ، ص 455 – 456 .

مع السلم للاخضري ، وشيء من مقدمات جمع الجوامع للسبكي .

9 — قاسم بن عبد القادر الحسناوي النشواتي ثم المكناسي ، المتوفى عام 1342 هـ \ 1924 م ، اخذ عنه بعض مطالب الربع المجيب ، وعرفه ببعض النجوم التي تتوقف عليها هذه المطالب .

* * *

اما بقية اساتذة المترجم فهم حسب وفياتهم ايضا :

10 — ادريس بن شيخ جماعة القراء بمكناس السيد اليزيد اللنجري ثم المكناسي المتوفى عام 1295 هـ \ 1878 م ، قرا عليه المقدمة الاجرومية مرتين .

11 — محمد بن المجذوب ابن عزوز المكناسي ، عم الشيخ المفضل ابن عزوز سابق الذكر ، والمتوفى عام 1297 هـ \ 1880 م ، قرا عليه اول المقدمة الاجرومية .

12 — ابو الصفاء المختار بن الحبيب الاجراوي المكناسي ، المتوفى عام 1300 هـ \ 1883 م ، اخذ عنه المرشد المعين من اوله الى ءاخره .

13 — محمد بن محمد بن الجيلاني بن المعطي السقاط المكناسي ، المتوفى عام 1301 هـ \ 1884 م ، قرا عليه ابعاضا من الخلاصة من آخرها ، ومن جمع الجوامع للسبكي ، ومن الشمائل الترمذية .

14 — عبد السلام بن الحاج محمد ابن عمر الصنهاجي المكناسي الدار ، المتوفى عام 1320 هـ \ 1903 م ، اخذ عنه شيئا يسيرا من الخلاصة والمختصر الخليلي .

15 — محمد بن عبد السلام كنون دعي كنيون — بالتصغير — الفاسي ، المتوفى عام 1326 هـ \ 1908م ، سمع عليه الشمائل الترميذية بالزاوية التجانية ، حين زار مكناس لحضور المجالس السلطانية في صحيح البخاري في رجب وتاليبه ، وقد ختمها قبل رمضان .

16 — الحاج المعطي بن محمد بن الهادي ابن عبود المكناسي ، المتوفى عام 1330 هـ \ 1912 م ، قرا عليه بعض الخلاصة .

17 — الحاج المختار بن باشا فاس السيد عبد الله بن احماد السوسي ثم البخاري ، المكناسي الدار ، المتوفى عام 1335 هـ \ 1917 م ، حضر عنده اياما عديدة في المختصر الخليلي .

* * *

هؤلاء سبعة عشر استاذا من شيوخ المترجم بمكناس ، ولم يدرس بفاس ، وانما قام برحلات قصيرة لهذه المدينة حضر خلالها دروس بعض كبار علماء القرويين ، وهم :

18 — ابو عبد الله محمد بن المدني كنون الفاسي ، المتوفى عام 1302 هـ \ 1885 م ، حضر بعض مجالسه في التفسير بضريح سيدي قاسم ابن رحمون ، حيث وجده يقرئ في سورة المجادلة الى ان ختمها ، ثم صادفه في رحلة اخرى يقرئ بالقرويين جامع الشيخ خليل .

19 — محمد بن التهامي الوزاني ثم الفاسي ، المتوفى عام 1311 هـ \ 1894 م ، حضر بعض مجالسه في المختصر الخليلي عند باب الحوالة .

20 — محمد التهامي كنون اخ المذكور ءانفا ، والمتوفى عام 1331 هـ \ 1913 م ، حضر بعض مجالسه في جامع الصحيح لمسلم .

21 — محمد بن قاسم القادري الحسني الفاسي ، المتوفى عام 1331 هـ \ 1913 م ، حضر مجلسه في جمع الجوامع لابن السبكي عند قول المتن : تأخير البيان عن وقت الفعل غير واقع وان جاز الى آخر المسالة .

مسموعات واجازات

للمترجم سماع واجازات من بعض الاشياخ المغاربة وهم :

— ابو العباس ابن سودة المري سابق الذكر ، سمع عليه الجامع الصحيح للبخاري على ما تقدم ، وهذا يرويه من طريق المغاربة : عن شيخه بدر الدين الحمومي ، عن محمد التاودي ابن سودة بأسانيده ، كما يرويه عن مصطفى الكبابطي الجزائري ، عن علي ابن عبد القادر المعروف بابن الامين ، عن علي الصعيدي المصري بأسانيده .

22 — ابو العباس احمد بن محمد ابن الخياط ، الحسني الزكاري الفاسي ، المتوفى عام 1343 هـ \

1925 م ، كتب له بالاجازة العامة ، وبعث لـه بها من فاس في فهرسته الصغرى ، ثم زاره ـ بعـد هـذا ـ بداره قرب مدرسة الشراطين من نفس المدينة ، حيث سمع منه الاجازة مشافهة .

23 ـ محمد بن جعفر الكتاني الحسني ، المتوفى عام 1345 هـ \ 1927 م ، سمع منه ـ عـام 1323 هـ ـ حديث الرحمة المسلسل بالاولية ، من طريق شيخه الحاج محمد بن علي الحبشي ثم المصري، عن محمد بن محمد ـ مرتين ـ بن ابراهيم التاملي العثماني ثم السلوي ، عن محمد صالح الرضوي البخاري بأسانيده ، وروى عن ابن جعفر ـ ايضا بالاجازة ـ صحيح البخاري ، عن شيخه ابي العباس احمد بن احمد بناني المدعو كلا ، عن محمد بن احمد السنوسي ، عن محمد التاودي ابن سودة بأسانيده .

24 ـ محمد بن احمد بن ادريس بن الشريف العلوي الاسماعيلي الحسني ، الزرهوني ثم المكناسي قاضيها ، المتوفى بها عام 1367 هـ \ 1947 م ، سمع منه الاوائل العجلونية بمنزله من الزاوية الادريسية ، في عشية الجمعة رابع جمادى الاخرة عام 1342 هـ ، واسندها له من طريق الشيخين : عبد الكبير بن محمد، ومحمد جعفر : الكتانيين الحسنيين بسنديهما ، كما اجازه بالموجود من فهرسته ، وبفهرسة الفلاني ، وبغيرهما ، اجازة عامة بتاريخ ليلة السبت خامس جمادى الثانية عام 1342 هـ (10) ، ثم قرا عليه سورة البقرة بتفسير الجلالين وحاشية الصاوي ، في ليالي رمضان بالروض الزيداني من مكناس ، واستفاد منه فوائد نفيسة جليلة .

وسيكون هذا الشيخ آخر شيوخ المترجم الذين اخذ عنهم دراية او رواية ، مع الاشارة الى ان فهرسته لا تزال تحتفظ بأسانيد اخرى حديثة وصوفية ، تطول الترجمة بايرادها .

مكانتـه العلميـة

كان معدودا من كبار علماء مكناس ، ماهرا في النحو والتصرف ، عارفا بالفقه المالكي على العموم ، متضلعا في فقه العبادات ، مشاركا في علوم الحديث والتجويد والاصلين والبيان والمنطق والعروض والقوافي ، ملما بالحساب والتوقيت ، ملجأ للطلاب في تدريس مختلف العلوم ، مرجعا للعامة في امور دينهم ، وكان في اول امره يعاني قرض الشعر على قلة (11) ، كما كان يتعاطى الافتاء في بعض الاحيان ، واشتغل اخريات عمره ـ اكثر ـ بوضع مؤلفات في مواضيع متنوعة .

حلاه شيخ الجماعة الامام ابو العباس احمد ابن الخياط في اجازته له بـ « الفقيه العلامة ، المحقق الدراكة الفهامة ، المشارك المدرس النفاعة ... ذي التآليف العديدة ، والتحريرات المفيدة (12) ... » ، وعقد له العلامة الاديب الشهير ، ابو العباس احمد سكيرج : ترجمة مقتضبة في بعض رحلاته (13) عام 1329 هـ ، وقد جاء فيها :

« ولصاحب هذه الترجمة ذهن وقاد ، وقريحة تامة ، وله الباع الطويل في علم النحو . والبيان . والفقه ، والعروض ، الا انه قليل النظم » .

10) ورد نص هذه الاجازة في فهرسة المترجم ، وتحتفظ المكتبة الملكية بالرباط بأصل الاجازة المكتوب بخط المجيز على ظهر الاوائل العجلونية رقم 1196 ، ويوجد بنفس المكتبة اجازة اخرى صادرة للمترجم وبخط المجيز على ظهر فهرسة ابن غازي رقم 1203 ، مع اجازة ابي العباس ابن الخياط له في فهرسته الصغرى رقم 1205 .

11) ورد شعر المترجم في المديح النبوي عند ابن زيدان في اعلام الحاضر والباد : السفر والمخطوطة السالفي الذكر عند التعليق رقم 2 ، مع ذيل خاتمة « الشمائل الترميذية » لاستاذه الشيخ المفضل ابن عزوز ، في قصيدة بمناسبة ختم هذا الكتاب ، حسب مخطوطة خ. ع. د. 515 ، وعند ابي العباس احمد سكيرج في رحلتيه : « الرحلة الزيدانية » خ. ع. « فيلم » رقم 1030 ، ثم الرحلة الثانية : « غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود » خ. ع. « فيلم » رقم 1029 ـ لوحة 107 ، وشعره ـ على العموم ـ نازل .

12) فهرسة المترجم .

13) « غاية المقصود ... » المصورة الانفة الذكر ـ لوحة 107 .

ووصفه المؤرخ ابن زيدان (14) عند تقديم قصيدة له بـ « العلامة ، الملازم للتدريس والافادة ، الفقيه ، المفتي ، الخطيب البليغ » .

اشتغالـه بالتدريـس

تبتديء هذه المرحلة من حياة المترجم خلال العشرة الثانية بعد ثلاثمائة والف ، في حياة اكثر اشياخه ، وباذن من بعضهم : مثل الفضلين ابن عزوز والسوسي ، وبهذا استمر في التدريس مدة تناهز اربعين عاما ، عكف فيها على الاقراء والافادة دون فتور ، وقد اقرا في هذه الفترة معظم الكتب الدراسية في الفنون التي كانت متداولة آنذاك ، وكان منها مما حضرته عليه او ادركته بقربه دون حضور :

« الموطأ » بالجامع العلمي : بين العشاءين ، وصحيح البخاري في ليالي رمضان بغريفة الموقت من الجامع الاعظم ، ادركت منه من كتاب الدعوات الى اول كتاب الفتن ، ثم توفي – رحمه الله – قريبا من ذلك ، والمختصر الخليلي ، وتحفة ابن عاصم ، وجمع الجوامع للسبكي ، والخلاصة لابن مالك ، زيادة على المتون الصغيرة : امثال المقدمة الاجرومية ، والمرشد المعين ، والجمل للمجرادي ، ولامية الافعال ، والكافي في علمي العروض والقوافي ، ونظم الاستعارات للشيخ الطيب ابن كيران ؛ وكشف الاسرار للقلصادي ، وكتيب المترجم درة الولدان آتية الذكر ، هذا مع العلم باني ما ادركت من حياته الدراسية سوى مدة لا تبلغ الثلاثة اعوام .

وكانت طريقته في تدريس الكتب ذات الحواشي ان يتتبع المتن المقروء بشرحه وحاشيته ، يملي ذلك من الكتاب ، ويوضحه توضيحا شافيا ومفيدا ، مطرزا ذلك بافادات متنوعة ، وملاحظات في بعض الاحيان ، وكان يقريء الخلاصة بشرح المكودي ، ويتتبع تعاليق كتبها على هامش نسخته المطبوعة بمصر ، وطوقها بها تطويقا يكاد يعم اكثر الصفحات . كما كان يقرا بعض المتون الصغيرة باملائه ودن احتياج الى مطالعة سابقة ، وقد اقرا – مرة – المقدمة الاجرومية بشرحه – عليها – آتي الذكر ، ولما بلغ في قراءة فرائض المختصر الخليلي الى قسم العمل ، صار يوضح ذلك بتقييده عليه آتي الذكر ، وكان في تدريسه لصحيح البخاري يتتبع تعليق « الفجر الساطع على الصحيح الجامع » للامام ابي عبد الله محمد الفضيل بن الفاطمي الشبيهي الحسني ، وهو تعليق بديع ونادر .

وحسبما ادركته فقد كان اكثر تدريسه بالجامع الاعظم ، وموضع جلوسه في الغالب كان بين بابي العدول قبالة الصحن ، وكان يقريء – قليلا – بغريفة الموقت من نفس الجامع ، وبالمسجد العلمي ، والزاوية الكتانية ، واقرا قديما بجامع الزرقاء ، وجامع الورزيغي .

الاخـذون عنـه

كان من اثر عكوف المترجم على نشر العلم وملازمته الاقامة بمكناس ، ان تخرج عليه اجيال من العلماء والطلاب طبقة بعد طبقة ، وفوجا بعد فوج ، وباستثناء أقرانه من العلماء ، فقد صار في آخر عمره لا يوجد من ينتمي للعلم بمكناس الا وله عليه مشيخة ، ونحاول هنا ان نثبت تسعة اسماء تمثل طبقات من الاخذين عنه من اعلام مكناس الراحلين ، وسيرد ذكرهم على ترتيب وفياتهم :

1 – ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن الفضيل العلوي الاسماعيلي ، العدل المدرس المفتي ، المتوفى عام 1352 هـ \ 1934 م .

2 – عبد الله بن الجيلاني العلمي دعي جمعان. العدل الموثق المدرس ، المتوفى عام 1361 هـ \ 1942 م

3 – ابو زيد عبد الرحمن دعي الكبير بن محمد ابن عبد الرحمن ابن زيدان العلوي الاسماعيلي ، مؤرخ مكناس الشهير ، المتوفى عام 1365 هـ \ 1946 م .

4 – محمد بن سعيد بن عبد السلام بن احمد الدكالي الاصل ، المكناسي الدار ، الفاسي القرار ، الرباطي الوفاة والمدفن ، المفتي المدرس الشهير بالقرويين وغيرها ، المتوفى عام 1368 هـ \ 1949 م .

5 – محمد بن ادريس بن محمد بن الحسين ابن السلطان محمد بن عبد الله ، العلوي الاسماعيلي ، قاضي الدار البيضاء وغيرها ، المتوفى عام 1370 هـ \ 1951 م .

6 – محمد – فتحا – بن المبارك بن علي الهلالي ، المدرس المفتي الطائر الصيت ، المتوفى عام 1372 هـ \ 1953 م .

---

14) « اعلام الحاضر والباد » المتكرر الذكر .

7 ــ الحسن بن محمد بن الحسين المتوني العدل الحيسوبي الفلكي ، المتوفى عام 1375 هـ \ 1955 م ، وهو من اوائل الاخذين عنه .

8 ــ ابو الصفاء المختار بن شيخ الجماعة المفضل بن الحاج المكي السوسي ، العدل المدرس المفتي ، المتوفى عام 1378 هـ \ 1958 م .

9 ــ ابو فارس عبد العزيز بن محمد الامفاري الحيسوبي الفلكي ، المتوفى عام 1380 هـ \ 1960 م .

اشتغالات اخرى للمترجم

رغب المترجم عن التوظيف ، ولهذا ابتعد ــ الا قليلا ــ عن مباشرة خطة العدالة وهو يتولاها منذ عام 1314 هـ ، وعمل نائبا عن قاضي احواز مكناس ، ثم انزوى عن ذلك ، وكانت الوظائف التي اختارها لنفسه ــ على ضآلة مرتباتها ــ هي التدريس ضمن علماء الطبقة الاولى ، وتوقيت الجامع الاعظم ، مع خطابة جامع قصبة هدراش ، وامامة مسجد الورزيغي ، وفي احد الاعوام كان احد نائبي مكناس في المجلس الحبسي الاعلى ، المنعقد عام 1335 هـ \ 1917 م (15) .

وكان له ولوع خاص بالنساخة ، يخصص لها وقتا بين اشغاله ، وقد كتب منتسخات عديدة لشيخه قاضي مكناس ابي العباس ابن سودة مار الذكر ، كما نسخ برسم المكتبة الزيدانية بمكناس مؤلفات لا تزال تزخر بها هذه الخزانة في مجلدات قائمة بنفسها ، او ضمن المجاميع ، وكتب لنفسه الشيء الكثير ، وقليلا كان يكتب لبعض الافراد والمكتبات الاخرى ، ويأتي في طليعة منتسخاته : « الفجر الساطع ، على الصحيح الجامع » لمحمد الفضيل الشبيهي سالف الذكر ، في ستة اسفار ، حيث كتب منه نسختين من خط مؤلفه: احداهما للمكتبة الزيدانية ، والثانية لنفسه ، فأحيا بعمله هذا اثرا من اهم واندر ما كتبه المغاربة على صحيح البخاري ، وقد ساهم مساهمة فعالة في جمع عدد من مواد تاريخ مكناس ، وشارك في وضع فهارس المكتبة الزيدانية .

اخلاقه وغيرته

كان المترجم داعيا الى اتباع السنة بقوله وفعله، محافظا على العبادات ، قواما بالليل ، لا يغتاب احدا ، مثلا بارزا في التواضع ، ميالا الى القناعة والزهد .

هذا الى اهتمام بتعليم الناشئين ، وقد وضع لهذه الغاية في قواعد الاسلام الخمس ، كتيبا صغيرا سماه « درة الولدان . . . » ، ثم طبعه واخذ يوزعه بنفسه ــ مجانا ــ على معلمي الكتاتيب القرءانية ، وعلى النشء الصغير ، الذين اعتكف ــ اخريات عمره ــ على اقرائه لهم ظهر يومي الاربعاء والخميس ، ثم صنف ــ لنفسه الغاية ــ شرحا مبسطا على المقدمة الاجرومية، ووضحه بالجداول ، واقرأه بنفسه حتى ختمه .

وكان عدو التفرنج والتشبه المذموم بالاجنبي ، والف ــ في هذا الصدد ــ رسالة « التحذير والتنفير من الافعال التي تؤدي الى التكفير » .

يحض ــ كثيرا ــ على الاهتمام بعلم التجويد ومعرفة احكامه ، وله في هذا الموضوع شرح على الدرر اللوامع ، وسيرد ذكر هذا ــ مع المؤلفات الثلاث الآنفة الذكر ــ ضمن لائحة مؤلفات المترجم .

وله مواقف معروفة ضد بعض المبتدعة ، يندد بهم في مجالسه ، ويذهب الى موطن بدعتهم ليغير عليهم بلسانه ، صارخا فيهم بأن ما هم عليه منكر ، رائده في هذا : النصيحة للاسلام والمسلمين .

مؤلفاته

لم يضع المترجم اكثر مؤلفاته الا في اخريات عمره ، وسأذكر ما عرفت منها على ترتيب حروف المعجم ، مع وصف وجيز لما قرأته من آثاره :

1 ــ « اتحاف الطالب القانع ، بفهم معنى النظم المسمى بالدرر اللوامع » ، شرح فيه ارجوزة « الدرر اللوامع ، في مقرا الامام نافع » ، لابي الحسن علي بن محمد بن علي بن بري .

2 ــ « التحذير والتنفير ، من الافعال التي تؤدي الى التكفير » ، فرغ من تأليفه في 11 محرم ، عام 1351 هـ ، ويقع في 21 ص من الحجم المتوسط ، حسب مخطوط المكتبة الزيدانية ، الواقع ضمن مجموع يحمل رقم 3818 ، بخط المؤلف نفسه .

3 ــ « تعليق على ارجوزة الوزير محمد بن ادريس العمروي في صلحاء مكناس » ، منه نسخة

---

15) نشرة هذا المجلس .

– مبتورة بنحو الربع الاخير – بالمكتبة الزيدانية تحت رقم 2806 ، وبنفس الخط ، في 19 ص من الحجم الصغير ، ويلاحظ انه خال من اسم المترجم الذي تترجح نسبته من اسلوب الكتابة ونفسها ، والموجود من هذا التعليق مفيد – جدا – في تعيين مدافن عدد من اعلام مكناس وصلحائها .

4 – تقييد على ثلاثيات صحيح البخاري ؟

5 – « تقييد في مسألتين : الاولى : بطلان صلاة الجمعة في غريفة الموقت ، الثانية : سقوط وجوب الجمعة على المسافر دون مسافة القصر »، يقع في 11 ص من حجم صغير ، حسب النسخة التي كتبتها من اصل المترجم في حياته ، وهي مذيلة بتقريظ نثري بقلم المؤرخ الشهير ابي زيد ابن زيدان .

6 – « درة الولدان (16) في معرفة ما يجب على الاعيان » ، كتيب وجيز في شرح قواعد الاسلام الخمس ، طبع بالمطبعة الجديدة بطالعة فاس ، عام 1347 هـ ، في 14 ص من الحجم الصغير .

7 – « مجموعة فتاوي » ، جمع فيها الى فتاويه : ما عثر عليه من فتاوي شيخه : المفضل ابن عزوز ومحمد بن احمد العلوي ، حسب ذكره لي مشافهة دون ان اقف عليها .

8 – « عنوان السعادة والاسعاد ، لطالب الرواية بالاسناد » : اسم فهرسة اشياخ واسانيد المترجم ، التي فرغ من تقييدها عشية الاحد 14 شعبان ، عام 1350 هـ ، تقع في 83 ص ، من الحجم المتوسط ، حسب مخطوطة خاصة .

9 – « فتح الحي القيوم على مقدمة ابن آجروم » ، شرح فيه هذه المقدمة باسلوب سهل ، ووضحه بالجداول تقريبا للمبتدي ، منه نسخة بخط مؤلفه بالمكتبة الزيدانية تحت رقم 3128 ، وهي مبتورة الطرفين ، مع تلاشي والتصاق لبعض اوراقها .

10 – « شرح قسم العمل من فرائض المختصر الخليلي » ، شرح فيه من قول المتن : « وقابل بين اثنين فاخذ المثلين ... » . ووضح ذلك بجداول النقط الواردة في هذا الموضوع ، طبع بالمطبعة السلكية بمكناس ، دون ذكر تاريخ الطبع ، في 59 ص ، من الحجم الصغير .

وفاتــه ومدفنــه وتابينــه

توفي – طيب الله ثراه – بدار سكناه من مكناس، الواقعة بحي « التوتة » رقم 7 ، وكانت وفاته عند الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة بالتوقيت المحلي ، بعد عشاء ليلة الاحد 10 شوال ، عام 1351 هـ \ 5 فبراير سنة 1933 م ، وشيعت جنازته زوال يوم الاحد المذكور ، في موكب طويل وخاشع ، سار فيه السكان على اختلاف طبقاتهم وحيثياتهم ، مما قل نظيره في مثل هذه المناسبة ، وعند المشهد العلمي تقدم للصلاة عليه امام المسجد ، نقيب الاشراف الادارسة ، الفقيه المرحوم محمد بن المختار الادريسي الشبيهي ، ثم اقبر بالزاوية الكتانية بحي سدراتة ، ملاصقا للمحراب عن يمين المستقبل .

وقد ترك موته اسفا عميقا عند مختلف الاوساط، واتبعه الناس ذكرا حسنا ، وتسابق عدد من طلابه الى تابينه بالنثر والشعر ، وكان في طليعتهم نقيب الاشراف العلويين المؤرخ ابن زيدان ، الذي رثاه بقصيدة دالية نشرت بكاملها في جريدة « السعادة (17) » ، في 37 بيتا من بحر الكامل ، ومطلعها :

رزء عظيم فتت الاكبادا
ولطود صبر العالمين ابادا

كما رثاه العالم المدرس محمد بن عبد القادر العرائشي العلمي بقصيدة تائية من بحر الطويل في 18 بيتا ، وابنه الاستاذ الجليل رشيد بن عبد الله المنوني بكلمة نثرية يقول فيها :

« ايتها العين الجارية ، ما هذه الدموع التي تسكبينها ؟ وما هذه العبرات التي تتساقط امامي سقوط وبل الزرقاء على الخضراء ؟ فهل كنت تبخلين علي حينما كنت ادعوك لدمعة واحدة تخفف عني وطأة الحزن والكمد ؟ ام كنت من الفقراء المعوزين الذين لا يجدون شيئا يشد خلتهم ؟ لا لا ، لم يكن هذا ولا ذاك.

عفوا عفوا ايتها العين الحزينة ، البنية الشفوقة الحنونة ، لقد اخذت زمام قلمي وترويت قليلا ، واستحضرت نوائب الماضي ومصائبه ، فالقيتها في احدى كفتي ميزان الفكر ، والقيت بالمصاب الحاضر في الاخرى ، فكانت النسبة بينهما كنسبة من جمل في الاولى مثقال حبة من خردل ، وفي الثانية

---

16) جمع ولد ، وهو من لم يبلغ حد التكليف .
17) السنة 29 ، عدد 3949 ، بتاريخ الخميس 12 قعدة عام 1351 هـ \ 9 مارس سنة 1933 م .

جبالا وسماء وارضا ، فنعمت الجارحة التي تحبس الدموع فى محاجرها حقبة من الزمان ، ولا تريقها الا فى هذا المصاب العظيم ، والخطب المؤلم الجسيم ، مصاب قسم على الاكباد فأزعجها من مراكزها ومواطنها ، وصار يعبث بها عبث الريح بالورقة الملقاة على ظهر البسيطة، مصاب احدث فى الطبيعة فتورا ، وفى الجو ظلاما ، وفى الفكر المكناسي اضطرابا وقلقا ، فصاب ذلك الرجل الذي كانت تغترف من بحره الصبيان والشبان والكهول والشيوخ .



شيخ الجماعة بمكناس الفقيه العلامة المنعم السيد محمد الحسين العرائشي غفر الله له

« سهام المنايا صوبت نحو معشر
فغي كل يوم يفجع الدهر اهله
خطوبه قد عمت وعم مصابها
فجعتنا فى شيخ البلاد وركنها
فرزء ، قد عم البسيطة واغتدى
الا يا بني الشعب العزيز دفنتم
دفنتم آدابا وعلما وسؤددا
دفنتم من كانت زواجر وعظه
دفنتم شهما كان يصدع كلما
فكم رقى افكارا وادب فتية

ذلكم الجهبذ الذي كان المثل الاعلى علما وعملا ، ذلك الركن المتين الذي ترك المنابر تبكي وتنتحب ، اسفا وحزنا على زواجر وعظه التي كان لها الموقع العظيم فى القلوب ، ذلك الفقيه العرائشي الذي كانت تمثل الاخلاق المحمدية فى شخصه المفقود ، والذي كانت ذاته الطاهرة مرءاة ترتسم فيها الصور المعنوية، ارتساما ابلغ من الصور المحسوسة ضياء وبريقا ولمعانا .

فيايها الفقيد : قد غادرتنا فظن الناس انهم فقدوا شخصك فحسب ، كلا ورب الكعبة ، انهم فقدوا حياتهم الحقيقية ، لانك كنت حاملا على كاهلك ما يكفل لهم سعادة الدارين ، فها هي الروح التي كنت تغذيها بعلومك ومعارفك ، اصبحت معذبة تعسة ، تختار الفناء على البقاء ، وها هو النشء الصغير ـ الذي كنت ترضع فكرته الصافية بدرر الفضائل والفواضل ليتربى عليها ، ويصبح من الرجال الذين فهموا معنى الحياة ـ ينوح ويبكي بكاء تخر له الجبال الرواسخ ، وها هو المسجد الاعظم الذي كان يبتهج بنورك الساطع، لا يرى فيه اليوم الا الظلام الحالك ، وها هي الارجاء المكناسية ينادي فيها غراب الجهل بالمصائب والكوارث.

اللهم انك تعلم ان المغفور له كان نعمة من نعمك، كنا نقتبس منها ما نهتدي به فى ظلماتنا ، فادركنا بعنايتك ، التي تجعلنا فى مدارجه من السالكين ، وامنن عليه بما كان يظنه فى جنابك الكريم ، انك سميع مجيب » .

وهذه قصيدة الاستاذ العرائشي :

وهدت جسوما من رجال اعزة
بنعي بذور واخترام اجلة
ورن لها الاسلام فى كل وجهة
واوقدت فى الاحشاء نار كآبة
يفتت اكبادا ويفري بشدة
ابا كان مرماه الرقي لعلية
وحزما واخلاقا ولين عريكة
تلين قلوبا اقسى من صم صخرة
راى منكرا يوتى بصدق نصيحة
وبدد شمل الجهل من كل فكرة

الرباط : محمد المنوني

الشيخ عبد الرحمن المجذوب

عصره وآثاره 909/976هـ 1503/1569م

للأستاذ عبد القادر الخلادي

سمعت اسم عبد الرحمن المجذوب ، لاول مرة ، بقرية جرسيف ، منذ حوالي الخمس والاربعين سنة ، ايام كنت تلميذا بقسم تكوين المعلمين ، الذي احدث عام 1921 ، بثانوية مولاي يوسف الرباطية؛ كنت اذذاك اقطع ، وجماعة من الاتراب الوجديين ، على الاقل مرتين في السنة ، المسافة التي بين الرباط ووجدة في القطار ذي « السكة الضيقة » ؛ وبما ان ذلك القطار كان لا يسافر الا نهارا ويسير ببطء مزعج ، وانه كان يقطع المسافة التي بين العاصمة الادارية وعاصمة شرق المغرب ، في ظرف خمسة ايام ، فكنا لا نصل الى وجدة الا بعد ان نبيت بدار بلعمري ، ثم بفاس ، ثم بسيدي عبد الله ، ثم بجرسيف .

كانت جرسيف اذذاك قرية صغيرة ، ذات منازل وديعة ، تحيط بها ثكنات عسكرية ، مسقفة بالقصدير ، وقابعة عند ملتقى نهر ملوية برديفه امللو ، وسط سهول عارية ، صهرت الشمس اراضيها وجردت الرياح احجارها .

هناك سمعت من ينسب ما كانت عليه القرية وما حولها من جفاف وقحط ، لسيدي عبد الرحمن المجذوب ، وذلك لانه دعا عليها ، اذ الزمه اهلها يوم مر بها ان يرقص لهم ؛ فرقص على نقر بندير ، ولم يلبثان بدا يقول :

انا لاه بيا الاهي وهما لاهيين بالتلاهي
تخلي جرسيف يا الاهي

هذا وسمعت فيما بعد كثيرا من الكهول والعجائز ، سواء في البوادي او في الحواضر ، يضربون الامثال ، في مواقف الارشاد والتحذير ، باقوال ينسبونها لسيدي عبد الرحمن المجذوب ، فثبت في ذهني ان « المجذوب » كان «درويشا » من رجال الله واهل السياحة في الارض وانه كان يضطر في بعض الاحيان الى مداراة الجهال ، فيسير سيرة بطل المقامات الهمذانية ، ابي الفتح الاسكندري ، القائل :

هذا الزمان مشوم	كما تراه ملوم
الحمق فيه مليح	والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولكن	حول اللئام يحوم

ثم لما زرت قبر « المجذوب » ، داخل المشهد الاسماعيلي بمكناس ، ورايت عدد المتبركين بضريحه فهمت انه كان للرجل شأن عظيم ، وان كان يقال : « كم من قبة تزار وصاحبها في النار ! » كما فهمت ان ابناء الشعب ما زالوا ينظرون بعين الاحترام ، ويترحمون على صاحب « الرباعيات » الحكيمة التي ما فتيء يتردد صداها في مختلف نواحي المغرب ، بل باقطار الشمال الافريقي اجمعها ، يرويها الخلف عن السلف ، مع ما يلحق ، طبعا ، « المرويات » من انتحال وتغيير .

توالت الاعوام على هذه الانطباعات الى ان شاهدت في الشهور الاخيرة ، على شاشة التلفزة ، رواية الفها السيد الطيب الصديقي حول حياة الشيخ عبد الرحمن

المجذوب ، وقد جعل منه « حلائقيا » (حسب التعبير العامي المغربي) فى ساحة جامع الفناء بمراكش .

كانت رواية عبد الرحمن المجذوب هذه عبارة عن مشاهد متتابعة ، تسود فيها الحركات البهلوانية ، « والنقر على البندير » وشخصت فيهـا بعض اطوار حياة الشيخ كما تخيلها المؤلف او استنتجهـا من مطالعاته ، ولم تكن ، فى حقيقة الامر ، سوى جملة من الوقائع والاحداث نسجت نسجا لتكون فرصا مواتية لتجلية ما اشتهر به البطل وهو ـ عبد الرحمن المجذوب ـ من سعة خبرة بالطبائع البشرية ، وكذا ما عرف به من صبر وتجلد امام المحن والنوائب ، وكل ذلك بواسطة ما يؤثر عنه من « رباعيات » .

من الحق ان اقول ان مشاهد تلك الرواية كانت جد مؤثرة ، وانها حظيت ، على وجه العموم ، بالاستحسان والرضى من لدن الاوساط الشعبية ، اذ اضفى عليها السيد الطيب الصديقي ، بصفته مؤلفا ومخرجا وممثلا ، الكثير من « الحلل الاصطناعية » التيمن شأنها انتثير المخيلةوتيسر استجابة النفوس.

ولكن لابد من القول كذلك بان السيد الطيب الصديقي ، القى الاضواء على جوانب فلكلورية واسطورية من حياة سيدي عبد الرحمن المجذوب ، وابرز الوانا مما كان يعتريه من « غمرات الحال » في اجواء من « الشطحات المنغمة » و « النقرات الموقعة » بيد انه اخفى ، وراء ظلال كثيفة ، الكثير من جوانب حياته العلمية ، اي تلك الفترات الطويلة من عمره التي كان يرجع فيها الى « وجوده وحسه » ويوفي كل ذي قسط قسطه وينبسط الى العمل والجد فى ميادين الرزق الحلال .

ان رباعيات سيد عبد الرحمن المجذوب كانت ، كما قلت ، متداولة فى الاوساط الشعبية ، بالحواضر والبوادي ، واكثر كانت لان « الادبيات » المذاعة على امواج الاثير غيرت الاتجاهات الذوقية ، وان اساليب الحياة الحديثة غيرت فنونا من الاداب السلوكية ، والانماط المعاشية ، والمقاييس التقديرية ، بحيث اصبحت الرباعيات لا تسمع الا فى النادر القليل ، واصبح من اللازم على من يريد ان يكون لنفسه فكرة عنها وعن الظروف والملابسات التي اوحت بها ان يرجع الى ما دون فى هذا الموضوع .

فلنبدا بتوضيح الاجواء الزمنية والمكانية التي عاش فيها المجذوب .

هو ابو زيد عبد الرحمن ابن ابي السرور عياد ابن يعقوب بن سلامة بن حسان الصنهاجي (صنهاجة آزمور) الفرجي الدكالي .

ولد بتيط ، ساحل بلدة ازمور ، فى رمضان سنة 909 هـ ـ 1503 م ، وعاش حقبة بمكناس مع والده (دفين الربوة فوق القنطرة المعروفة بالمهدومة بين فاس ومكناسة الزيتون) وقضى مدة بفاس ثم قصد بلاد الهبط واستقر بالقصر الكبير ، « ولبى داعي ربه بمرشاقه من بلاد الهبط ، ليلة الجمعة ، وليلة عيد الاضحى سنة 976 هـ (1569 م) ... حملت جنازته، باذنه على فرسه الذي كان يركبه ، ودفن خارج باب عيسى (فى 18 ذي الحجة) وقد صار ضريحه اليوم خارج المشهد الاسماعلي » (عن الاتحاف) .

فهو اذن عاش فى القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) .

تمت خلال ذلك القرن ، او قبله بقليل ، اكتشافات غيرت وجهة التاريخ السياسي والاقتصادي ، منها اكتشاف البرتغال لطريق الهند ونزولهم بكوا في فبراير 1488 م . (لم يستردها الهند الا سنة 1961) ومنها اكتشاف الاسبان لامريكا سنة 1492 م . وفي اثناء ذلك القرن او قبله بقليل كذلك ، وقعت حوادث كان لها بالغ الاثر فى الشرق والغرب ، بالنسبة للحياة الاجتماعية والروحية ، واعني بها استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية قاعدة الامبراطورية البيزنطية سنة 1453 ، واستيلاء الاسبان على غرناطة، آخر مملكة اسلامية بالاندلس، سنة 1492 ، واجبارهم سنة 1501 للمسلمين على الانقياد للتعميد والتمسيح او النزوح عن البلاد ، وآخر الامر اقصاء المسلمين عن بلنسية 1526 ، ثم طرد البقية من المسلمين عن الاندلس سنة 1609 .

قال المؤرخ الفرنسي (اندري جوليان) : « ان البرتغاليين قد قاموا باكتشافاتهم (بعد الحروب الطيبية) بدافع انتقامي من النفوذ الاسلامي ، وبدافع استعماري اقتصادي لايجاد المستعمرات وجعلها مراكز للمواصلات ، لضرب التجارة العربية » .

وفيما يخص المغرب ، فان صاحب الاستقصاء تكلم عما وقع فى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فقال : « واعلم انه كان فى صدر هذه المائة العاشرة امور عظام :

« منها ظهور الفرنج بالديار المغربية » .

« ومنها ظهور دولة الاتراك ، آل عثمان ملـوك التركمان ، بالديار المشرقية » .

« ومنها ظهور الاولياء واهل الصلاح من الملامتية، وارباب الاحوال والجذب ، في بلاد الشرق والغرب ؛ لكنه انفتح به للمتسـورين على النسـبة واهل الدعوى ، باب متسـع الخرق متعسر الرتق ، فاختلط المرعـي بالهمل ، وادعى الخصوصية من لا ناقة لـه فيهـا ولا جمل ، وصعب على جل الناس التمييـز ، حتـى بين البهرج والابريز » .

في ذلك العصر اشتـد اذن النـزاع بين الهلال والصليب ، واصبح المغرب ، نظرا لموقعه الجغرافي ، موزعا بين مطامع الاتراك في حدوده الشرقية ، ومطامع الاسبان والبرتغاليين في حدوده الشمالية والغربية .

ففيما بين سنة 1415 م (تاريخ احتلال سبتة) وبين سنة 1576 م (تاريخ واقعـة وادي المخـازن) كانت ثغور المغرب وسواحله مسرحا لمعارك عنيفـة حيث اذذاك اشتد تكالب البرتغاليين والاسبـان على احتلال المراسي المغربية انتقاما للمسيحية من المسلمين ولكي يجعلوا منها ملاجىء لاساطلهـم من الزوابـع البحرية والغارات التركية ومراكز لتموينها ، او منافذ اقتصادية لاستغلال خيرات البلاد ، من قموح واصواف واكسية وحنابل وخيول وجلود وريش النعام الخ ... ولترويج بضائعهم ، كالتوابل التي كانوا يستردونها من الهند ، والخمور الخ ...

وتجدر الاشـارة هنـا الى ما كان يتسم بـه البرتغاليون من حرص على اقتناء الخيول ليحملوهـا الى غينيا وافريقيا الاستوائية ، حيث كانوا يستبدلون بها الرقيق من السود ، فيبيعونهم بامريكا ؛ وهكـذا كانوا هم رواد هذه التجارة النكـراء ، المفضيـة الى ضرب من الافناء الجماعي .

وجه الاسبان هجوماتهم على المراسي التي على ساحل البحر المتوسط وذلك لمقاومة الاتراك ومضايقتهم في القطرين التونسي والجزائري ، واتجهت الاساطيل البرتغالية نحو المراسي التي على البغاز وعلى المحيط الاطلسي ، فاحتل الاولون مليلية وسبتة وحجر باديس والقصر الصغير (لا القصر الكبير كما ورد في بعض المقالات) ؛ واستولى الاخرون على طنجة ، واصيلا ، والمهدية ، وآنفا ، وازمور ، والجديدة « البريجة » ، وآسفي ، وفنتي (اكادير) الخ ... ولابد من ان نذكر هنا ان البرتغال **لم ينزلوا بالعرائش** ، كما ورد في كتاب الاستقصاء ، **بل الاسبان هم الذين استولوا على** العرائش من سنة 1610 الى سنة 1689 ميلادية ، ومحمد الشيخ الثاني ابن احمد المنصور الذهبي هو الذي سلمها لهم بعد ان امر بافراغها من المسلمين ، فمكثوا فيها الى ان حررهـا المولـى اسماعيـل بـن الشريف . وكان محمد الشيخ استفتى علماء فاس في ذلك الموضوع ، فاستنكفت جماعة منهم من مساعدته ، واضطر بعضهم الى مغادرة فاس استبراء لدينهـم ومحافظة على نقاء ذمتهم، ومنهم الامام ابـو عبد الله محمد الجنان ، والامام ابو العباس احمـد المقـري ، والشيخ ابو الحسن الزياتي ، والشيخ الحافظ ابـو العباس احمد بن ابي الحسن علي القاسي الذي التجأ الى القصر الكبير حيث لبى داعي ربه .

فالعصر الذي عاش فيه الشيخ ابو زيـد عبـد الرحمن المجذوب كان ، اذن عصر فتن واضطرابات ، عصر اراجيف ومخاويـف ؛ تنوعـت فيه المكايـد والدسائس ، للحصول على الجاه والمال ، او للتشبث بالامارة والنفوذ؛ وتجلت فيه الوان من الغدر والخذلان، وسقطت حرمة من يتسنمون العرش، وطاسيين كانوا او سعديين سيما وان منهم من اراقوا دماء علماء ابرياء، ومنهم من زجوا باخوانهم في غياهب السجون ، ومنهم من حالفوا الشياطين من البرتغاليين او الاسبان ، لصد غارات الاتراك . الا انه من الواجب ان نقول ان المغاربة، بصفة عامة ، وان اهل الثغور ، بصفة خاصة ، ولاسيما اولئك الذين مارسوا الحروب بالاندلس ، ابلوا بـلاء حسنا في صد العدو ، وظهر منهم افذاذ تحلوا بالشهامة والفروسية والفتوة في ساحات الوغى ، امثال مولاي ابراهيم بن مولاي علـي بن راشـد مؤسس مدينـة شفشاون ، واخته عائشة الست الحرة ، التي زوجت بالبطل الاندلسي المنظري مجدد بناء تطوان ، ثم تزوجها السلطان مولاي احمد الوطاسي (948 هـ - 1541 م) فتولت الحكم بتطوان . لقد كان لها مراكب بحريـة تغير على مراكب الاسبان ، وكانت تتجر في الاسـرى الاسبان ، الشيء الذي كان يدفع بها الى مسانـدة البحارة الاتراك والتشدد مع حاكم سبتة الاسباني .

هذا واما فيما يخص ظهور الاولياء واهل الصلاح، فاننا نرى من الحق ان نقول ان اغلبية الطرق الصوفية ظهرت او ترعرعت في المائة العاشـرة ، وبالخصوص الطريقة الجزولية المنبثقة عن الطريقـة الشاذليـة ، والتي تعتبر بمثابة الام للكثير من الطرق التي تفرعت عنها ؛ في ذلك القرن اسسـت زوايا ورباطات كثيرة في المغرب العربي ، وحتى في الشرق الاوسط ؛ منهـا الزاوية التي اسسها بفاس الشيخ ابو المحاسن يوسف

الفاسي الآخذ عن الشيخ عبد الرحمن المجذوب ، والزاوية الدلائية المتصل سندها بالشيخ الجزولي عن طريق محمد بن عبد الله امغار الذي كان يعيش بتيط تفطر (عين الفطر) حيث ولد بها المجذوب .

فالزوايا كانت كثيرة اذذاك وآهلة بالشيوخ والمريدين ، المنقطعين لعبادة الله وذكره ، وللتفقه في الديـــن .

واما الربط فانها كانت عديدة بسواحل البحر المحيط ، ولا سيما الجنوبية منها ، وآهلة بالمرابطين المستعدين لمحاربة القراصنة ولحماية الثغور ؛ وقد كثرت بوجه خاص في القرن العاشر ، اي لما بدات همم الامراء الوطاسيين تضعف وتخمد نتيجة تطاحن الاخوان وابناء الاعمام حول كراسي الامارة ، مع ما كان لهم من قتال العدو بثغور بلاد الهبط .

ومن جهة اخرى فان المرابطين من اهل درعة هم الذين استقدموا الاشراف السعديين من الحجاز الى المغرب ، وآزروهم لما قاموا لمحاربة الاعداء الكفار المستولين على ضواحي سوس وحاحة وعبدة ودكالة، ولتطهير تلك البقاع من رجسهم ؛ وهم الذين ساندوهم ضد بني وطاس ، وكانوا من حملة الويتهم عندما استولوا على فاس ، وعندما اخذوا يعملون على مقاومة النفوذ التركي بالاراضي المغربية .

ومهما يكن من امر فانه لا ينبغي ان ننظر الى رجال الصوفية ، والى رجال الزوايا والربط الذين عاصروا السعديين ، نظرة استنكار ، فانهم كانوا يقومون بدورهم ، الذي هو الحض على الجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وكان للكثير منهم في الجهاد والغزو مواقف مشهورة ومشاهد مشكورة ، وكان السلاطين والامراء يقدرون البارزين منهم حق قدرهم ، وان كانوا في بعض الاحيان يقلبون لهم ظهر المجن ، خوفا منهم على ملكهـــم .

فابو عبد الله القائم ، المؤسس الحقيقي للدولة السعدية ، لما توفي بأفغال من بلاد حاحة سنة 925 هجرية ، دفن هناك بازاء ضريح الشيخ ابي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه .

وابنه ابو العباس الاعرج لما استولى على مدينة مراكش نقل اليها جثة الشيخ الجزولي (في حدود سنة 930 هجرية) وجثة ابيه القائم ، ودفنهما في قبة واحدة برياض العروس .

ولما حاصر ابو العباس الوطاسي ابا العباس الاعرج بمراكش ، وضيق به ، ذهب اهل مراكش الى الشيخ الغزواني ليستغيثوا به ؛ ويقال ان هذا الشيخ هو الذي قال ، عندما غادر فاسا فارا من محمد الشيخ الوطاسي :

« يا سلطنة فاس الى مراكش ! » .

هذا وان الكثير من المترجمين لرجال التصوف يرون ان بركة هذا الوالي هي التي اعانت الاشراف السعديين على تشتيت الجيوش الوطاسيين في واقعة ابي عقبة بتادلة ، ويسرت لهم الظهور عليهم ؛ وقد حضر تلك الواقعة ، بجانب الوطاسيين ، ابو عبد الله الاحمر سلطان الاندلس المخلوع ، وابلى بلاء حسنـــا حتى قتـــل .

وكان ابو عبد الله الشيخ اخو ابي العباس الاعرج ممن الحقوا بعض الاضرار برجال الزوايا وبالعلماء ، فقتل منهم الفقيه الجليل ابا محمد عبد الواحد بن احمد الونشرشي ، والفقيه الصالح قاضي الجماعة ابا محمد عبد الوهاب بن محمد بن علي الزقاق ، وخطيب مكناسة الزيتون ابا علي حرزوز ؛ فقتل هو شر قتلة جزاء وفاقا لما احدثه من جرائم وجرائر .

هذا وقد عرف ، في القرن العاشر ، عدد من الفقهاء والعلماء كانوا ينظرون الى الاصفياء من رجال الصوفية نظر اكبار واحترام ، ولا يتاخرون عن التشديد بالزائغين عن طريق الرشاد ، وبالمشعوذين المفسدين في الارض ، معاول الهدم والتخريب ؛ فانه لا يخلو زمان من دجالين دابهم استغلال سذاجة العامة واستثمار مروءة الخاصة ، وديدنهم ابرام حبائل الغش والغدر ونصب شبائك البغي والفساد ، غير مبالين بوازع الدين ولا مراعين الا ولا ذمة .

هذه هي بعض مظاهر العصر الذي عاش فيه الشيخ عبد الرحمن المجذوب ، وبعض خصائص اهله فلننتقل الان الى الكلام عن حياة الشيخ نفسه ، وعن مآثـــره .

* * *

ان قرية تيط الفطر (عين الفطر) التي ولد فيها ابو زيد عبد الرحمن المجذوب ، كانت عبارة عن رباط لشرفاء صنهاجيين يكنون ببني امغار ، وهم شرفاء من سلالة المولى ادريس ، اسسوا رباط تيط وشاركوا في محاربة البرتغاليين وكان ذلك على واجهتين ، آسفي — وازمور .

دخلت تيط في حكم البرتغاليين بعد ان هــدم السلطان الوطاسي اسوارها خوفا من ان تصبح قاعدة لهجومهم على اراضي البلاد الداخلية ، وبعد ان نقل سكانها الى ناحية فاس (1514 م) .

غادر المجذوب سقط راسه مع والده وسنه اذذاك حوالي العشرة اعوام وانه لمن الثابت ان اباه مات في ناحية مكناسة الزيتون . سكن واهله مدينة مكناس حيث اتخذ منزلا ياوي اليه ويستقبل به زواره . وهناك عرف شيوخا لا يحصون كثرة ، منهم ابو الحسن علي بن احمد الصنهاجي الفاسي المدعو بالدوار ، المتوفى سنة 941 هجرية (1540 م) والشيخ ابو الرواين ، والشيخ سعيد بن ابي بكر المشتراني المتوفى سنة 964 هـ - (1556 م) والشريف احمد الشبيه جد شرفاء مكناسة ، المتوفى سنة 943 هـ (1536 م) ، والشيخ القطب عمر بن عبد العزيز الخطاب ، صاحب جبل زرهون المتوفى سنة 937 هـ - (1530 م) .

فاذا ما قارنا تاريخ وفاة هؤلاء الشيوخ بتاريخ ولادة عبد الرحمن المجذوب امكننا ان نقدر ان هـذا الاخير كان ناهز العشرين من عمره عندما تاقت نفسه لمصاحبة الصالحين من علماء مكناس وفقهائها للاستفادة من شمائلهم الكريمة ، والاقتباس مما تشرق به نفوسهم من انوار ربانية .

طلب عبد الرحمن المجذوب ، اول الامر ، العلم بفاس حيث عاش بين الطلاب ، ثم اتصل بالصالحين في مكناس وفي فاس ، وكانت هاتان المدينتان ، في ذلك العصر ، مركزين من اهم المراكز السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالمغرب الاقصى .

كان اهل مكناس « ايام بني مرين في خير وثروة » وقد قال في شانها الوزير لسان الدين بن الخطيب : « مكناسة مدينة اصيلة ... فضلها الله تعالى ورعاها ، واخرج منها ماءها ومرعاها ... اعتدل فيها الزمان ، واتسدل الامان ... ودنا من الحضرة جوارها ، فكثر قصادها من الوزراء وزوارها ؛ وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الابهة والمقاصير والابهاء » .

« حييت من بلد خصيب ارضــه
مثوى امــان او منــاخ امــــون

وضعت اليـك من الله عنايــة
تكسوك ثوبي امنة وسكـــون »

واما فاس ، فقد قال عنها المجذوب نفسه :

الطبــخ والرمــخ في فــاس	والعلم والدين فيهــا
لا عيــب يقــال في فـــاس	مكمولة من كل جهــه

واليكم بعض ما وصفها به ابن الوزان الفاسي الذي نشا في آخر عهد الدولة الوطاسية ، قال :

« فاس من اكبر المدن ، تحيط بها اسوار عالية جميلة ... ودور هذه المدينة مبنية بالآجر والحجر المتقن ، واكثر مرافقها منسقة مفروشة بالزليج ... وتوجد عدة دور لها صهاريج ... ومن عادة الاهالي ان يشيدوا في اعلى دورهم بروجا مرتفعة فيها غرف منسقة ، يصعد اليها النساء لترويح النفس اذا اعيتهن اعمال المنزل ...

« ومن اعلى هذه البروج يمكنك ان تشرف على منظر المدينة كله ، هذا المنظر الذي يشتمل على سبعمائة مسجد وجامع ... ومن بين هذه المساجد يوجد نحو الخمسين جامعا ضخمة البناء عظيمة الزخرفة ، تحمل سقوفها اعمدة الرخام ... وكل جامع له صهريج من رخام او خصة لم ار مثلها بايطاليا ... ومن هذه المعابد مسجد جامع اعظم يسمى بالقرويين ، ودائرته نحو الميل ونصف ، له ثلاثة عشر بابا ... وتوقد في هذا الجامع في كل ليلة تسعمائة مصباح ... وحول حيطان المسجد كراسي منصوبة ... يجلس عليها العلماء والمدرسون ليعلموا العامة امر دينهم ودنياهم ... وفي المدينة مدرستان عظيمتان بلغتا النهاية في رونق البناء وزخرفة الزليج ورقة النقوش ... وقبل هذا كان الطلبة يقيمون في هـذه المدارس سبعة اعوام سكنى ، واكلا وكسوة ؛ ولكن ليس لهم الان الا السكنى ، حيث ان الحروب اتت على مداخل المدارس ، ولم يبق منها الا شيء قليل ، يصرف على الطلبة ... »

قضى الشيخ المجذوب مدة بمكناس مواظبا على مجالسة الصالحين ومرافقتهم حتى اشرق باطنه بنور التوحيد ، وصفا من شوائب الكدر . « وكان عمدته في التربية وسلوك الطريق الشيخ القطب سيدي عمر ابن عبد العزيز الخطاب ، ووقعت له معه حكاية ظهر فيها على سائر اصحابه ممن كان ينسب الى الجذب فقال لهم سيدي عمر : « لا يبقى مجذوب الا المجذوب » وامرهم بتغطية رؤوسهم ، وغلبت عليه التسمية بالمجذوب وجرى ذلك على السنة الخلف ، واختص به دون غيره من المجذوبين .

« اظهارا لحقيقته الباطنية ، واكراما من الله واعلامـا بقـوتـــه فيــه » .

والجذب ، عند الصوفية ، « تفضل من الله على عبده بالولاية بدون ان يتحمل الولي مجاهدة السلوك »

هذا وتجدر الاشارة هنا الى ان حالة الجذب لم تكن تعتري الشيخ عبد الرحمن باستمرار ، بل كانت هناك فترات طويلة يتماسك فيها ، ويرجع الى وجوده، ويتصل بالناس عن طريق المعاش .

لما تمت تربية المجذوب وصلح لانتفاع الخلق به « أشار عليه الشيخ عمر بن عبد العزيـز الخطـاب بالانتقال الى بلاد الهبط ، فنزل بقبيلة مصمودة ، قرب القصر الكبير او قصر كتامة ، الذي كان اذذاك ثغر من اهم الثغور ترابط فيه طوائف من المجاهدين ، ويلتقي برحابه جماعات من العرب والبربر والعلوج الواردين من مختلف انحاء المغرب ، ومنهم الصامدون لمقاومـة الكفار وتطهير المراسي من حملة الصلبـان ، معديـن لذلك ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل ؛ ومنهم المتطوعون لايواء من تزعجهم الاعـداء عن اراضيهـم ، والعاملون على تخفيف ما يصيبهم من نوائب ونكبات ، ومنهم المتصدون للاستحـواذ على الغنائـم بابخـس الاثمان ، والضاربون في الارض لترويـج البضائـــع والفلل او لبث الاراجيف ونشر الاكاذيب .

فالقصر الكبير ، او قصر كتامة ، كان منذ أوائل العصور الاسلامية « مهبط » المجاهدين المنحدرين من الجبال نحو البحر ، ليعبروا من مرسى القصر الصغير، قصر مصمودة ، الرابض على البحر المتوسط بأسفل جبال انجرة قبالة مرســى الجزيـرة الخضـراء بالعـدوة الاندلسية ؛ وهذا الذي كان سببا ، فيما يبـدو ، في اطلاق اسم بلاد « الهبط » على السهول التي تمتد بين القصر الكبير وطنجة .

ان الاقامة في مدينة القصر الكبير لم تكـن ، من دون شك ، تدعو الى الاطمئنان وراحة البال نظـرا لقربها من منازل الاعداء ولتعرضها لهجماتهم ، ونظرا لاختلاف مشارب ومذاهب من يقصدونهـا ، ونظـرا آخر الامر ، لاشتداد الحرارة بها صيفا ولتهاطــل الامطار عليها شتاء ، حتى قال فيها الشاعر الهجاء عبد الرحمن بن القاسم الشفشاوني المعروف بالخطيــب والمتوفى سنة 990 هجرية :

ارحل عن القصر واسمع قول ذي ثقة
ان المقام بـه ضرب مـن الحمـق

ان لم تمت فيه اوان الحـر محترقـا
لم تنج فيه اوان البـرد مـن غـرق!

فالشيخ عبد الرحمن المجذوب لم يذهـب اذن الى بلاد الهبط طلبا للعزلة والانقطاع الى اللهفي خلوة ، قصدها ليامر بالمعروف ولينهي عن المنكر غير متخوف من تكاليف الحياةولا من تبعات مخالطة الناس والسعي في تقويم اودهم . وكـل منا يعـرف الامـر بالمعروف والنهي عن المنكر ليـس بالامر الهين اليسير !

ورد في كتاب « مرآة المحاسن من اخبار الشيخ ابي المحاسن » لابي حامد الشيخ العربـي بن الشيـخ ابي المحاسن يوسف الفاسـي الفهـري ، وفي كتـاب « ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع » لابي عيسى محمد المهدي بن احمد الفاسـي الفهري ، ان الشيخ عبد الرحمن المجذوب اهتـم في مدينة القصر الكبير بالشيخ ابي المحاسن ، وهـو في اوان البلوغ ما زال في المكتب ، « فكان يربيه بالحـال ويرقيه في مدارج الكمال وكان يمتحنه كثيرا ، ويلقـي عليه مشاق لا يقف لها الا من ايده الله تعالى ... فعلا شأنه واشرقت عليه انوار المعارف فتحقق بمقامـات الواصلين ومنازل المقربين »

وكانت مدة صحبـة ابي المحاسن له تزيـد على عشرين سنة . وقد ولد في القصر الكبير سنة 938 هـ (1530 ميلادية) وتوفي سنة 1013 هـ (1604 م) بالحضرة الادريسية بعد ان شارك في واقعـة وادي المخازن في (986 هجرية ، 1578 ميلاديـة) وكـان لسان حاله يقول :

خلـق الله للحـروب رجـــالا
ورجـالا لقصعـة من ثريــــد

ويستخلص من هذا كله ان الشيخ عبد الرحمن المجذوب عاش بالقصر الكبيـر ونواحيه اكثـر مـن عشرين سنة وانه نزله حوالي سنة 1545 ميلادية بعد ان كان قد بلغ اشده بمكناس . ويستخلص كذلك انه كان يعد المريدين اعـدادا روحيـا ، مستنيـرا بنـور التوحيد ، مترسما للشريعـة ، ومتتبعـا للسنـة . والواقع انه لا زال بالقصر الكبير ، ساحـة المرس ، زاوية تنسب لعبد الرحمن المجذوب ، وتسمى ايضـا بزاوية القناطرة نسبا لسيد علي بن قاسم القنطري ، احد اتباع عبد الرحمن المجذوب .

فانه كان يوصي اصحابه بعدم الاقتـداء به فيما يخرج فيه عما يعرفونه من ظاهر الشريعة ... وكان من شانه ، اذا كان في غمرات الحال وقبضة الوارد ، فسمع آذان المؤذن للصلاة قال : « هذا بريد السلطان قد اتى ! » وقام الى الصلاة ، وكأنما كان عليه ثوب فنزعه ؛ واذا حضر الوقت ولم يكن من مؤذن اذن هو. وكان يتسبب ، ويحرث ويتزوج — وولد — وكان يعطي كل ذي حق حقه ، ويوفي كل ذي قسط قسطه؛ وكان متواضعا متادبا خصوصا مع اهل الله واهل جانب الله ، مراعيا لحقوق اهل البيت النبوي واهل الله ، ساعيا في مصالح عباد الله ، مواظبا على خذمتهم باطعام جائعهم ، واغاثة ملهوفهم ، وكفالة ضعيفهم ، مواسيا لهم بما له في الشدة والرخاء ، راغبا في ادخال السرور عليهم ، بالغا في ذلك كله المجهود » (عن كتاب ممتع الاسماع) .

وقد ورد في كتاب الاتحاف ، انه « كان جامعا بين الجذب والسلوك ، سمح الاخلاق ، كريم الشمائل، كثير الايثار والبذل في حالتي الشدة والرخاء ، حتى انه ربما لقيه المحتاج فلا يجد ما يواسيه به فيقسم كساءه الذي عليه نصفين ويعطيه النصف ، وربما تزوج امراة فقيرة غير مرموقة ولا منظور اليها ، لا يحمله على التزوج بها غير كفالتها وضمها الى عياله لشدة الوقت ... فهو شيخ امام عارف كامل ، شانه القيام على الوظائف الدينية والرسوم الشرعية .

« وكان له زوجات واولاد وزاوية يطعم فيها الطعام للواردين عليها من الفرباء وابناء السبيل وغيرهم ، تقام فيها الصلوات الخمس ... واذا اجتمع اصحابه للذكر على عادة الفقراء ذكروا جلوسا ؛ فاذا انزعج احدهم اسكتهم وفرق ذلك الجمع » .

لقد اصبح من المتاكد لدينا الان ان الشيخ عبد الرحمن المجذوب لم يتخذ الزاوية لينعزل فيها عن الناس ، بل ليجعل منها مسجدا للصلاة والذكر ، ومقاما للوعظ والارشاد، ومأوى للغرباء وابناء السبيل؛ كما اصبح عندنا من المتاكد ايضا انه كان ملازما لحدود السنة ، يعبد الله عبادة شرعية ، لا يستهويه «رقص ولا نغم » ، وانه كان يسعى في الحصول على قوته وقوت عياله ، ويطرق ابواب الكسب الحلال .

ولكن ، عندما كان يعتريه الجذب ، كانت تصدر منه امور توحش الخلق فيتنافرون عنه ، وينكرون عليه بسببها . « وكان بالقصر الكبير قوم نقموا على الشيخ ابي المحاسن صحبته ، ورجوعه في الطريق اليه ، مع ما هو عليه من العلم ونباهة الذكر ، واقتداء الناس به ... وشوشوا بذلك الى ان آل الامر الى الترافع الى حضرة (فاس) حيث العلماء والسلطان ... فوقع اجتماع الفريقين بمقصورة خطيب القرويين الشيخ ابي عبد الله بن جلال ، مفتي فاس وعميد علمائها وشيخ الجماعة بها ... فقال للمنكرين: « لو الهمتهم رشدكم ما تعرضتم لذلك ؛ وحسبكم الاقتداء بمن علمتم علمه وعدالته ؛ وانما اوتيتهم من الجهل المركب ، وقد كان سيدي الحلوي بتلمسان تصدر منه امور اشد من الامور التي انكرتم ، والناس يعترفون بولايته ؛ ولم يفعلوا كما فعلتم . انصرفوا واغتنموا السلامة ولا تعودوا لمثله فتتعرضوا لوعيد من آذى وليا ، ووافقه على ما قال كل الحاضرين » .

يبدو هنا ان السيد عبد الرحمن كان من الملامتية او الملامية ، وهم « قوم يظهرون للناس قبائح ما هم فيه ، ويكتمون عنهم محاسنهم ، فالخلق (يلومونهم) على ظواهرهم ، وهم (يلومون) انفسهم على ما يعرفون من بواطن انفسهم اكرمهم الله بكشف الاسرار والاطلاع على انواع المغيبات » .

« هذا ومن المائور عنه انه كان يتكلم ، في حال غيبته ، بكلام موزون ملحون ... يشتمل على ذكر الله، والثناء عليه ، وتمجيد رسوله صلى الله عليه وسلم ، والاشارات العرفانية ، والحقائق الذوقية ، والدلالة على الله ، وعلى امر الله ، والنية والصدق والمحبة ، والكلام على النفس وعيوبها، والروح وحالها ، وشروط الشيخ والصحبة وآدابها الخ ... الا ان الناس كل ما راوه من الكلام على وزن كلامه نسبوه اليه فخلطوا فيه كثيرا » . (عن الممتع)

اتضح لنا هنا ان عبد الرحمن كان يتكلم بهذا النوع من الكلام الملحون في حال غيبته ، وقد سميت اقواله « بالرباعيات » لان كل « رباعي » يشتمل ، في غالب الاحيان ، على اربعة اشطر ، اي على بيتين من قافية واحدة ، ويعبر عن حكمة ذات صلة باحد المواضيع المشار اليها اعلاه ، ولقد قال :

كسبت في الدهر معـزة — وجبت كلام رباعي
مـاذا مـن اعطـاه ربـي — ويقول اعطاني دراعي

ولم يكن عبد الرحمن المجذوب اول من عبر عن خوالج نفسه بهذه الطريقة ، غير انه ليس لدينا ما يثبت انه كان يصحبها بالايقاع على دف او بندير او بنغمات الناي ، مثل ما يروى مثلا ، عن الشيخ عبد

السلام الاسمر (881 ـ 985 هجرية) 1475 ـ 1573 ميلاديـــة .

ان هذا الشيخ كان من مواليد مدينـة فـاس ، وكانت امه (سليمة) تنتسب الى الشيخ عبد السلام ابن مشيش . فانه انتقل من بلاد المغرب الى طرابلس، وكان يعتريه الجذب ، فيحمل الدف ، وينشد عليـه الاناشيد الصوفية باللغة الدارجة ، وطريقتـه بين الشاذلية وطريقة الشيخ احمد بن عـروس . ومـن شعـــره الملحـــون .

انا الغوث القطب السلطــان	ولي مشهور ظاهــر
اولاني الاله الفرد الرحمــن	على كل باد وحاضر
شمسي تبدت وضوت الاركان	والرب عاطي وقادر

والشيخ احمد بن عبد الله بن عروس الهواري (توفي سنة 868 هجرية 1463 ميلادية) المشار اليه اعلاه ، ولـد بالقطـر التونســي ، وتجول بالجزائـر وبالمغرب ، فوصل الى فاس ومراكش ، ودخل مدينة سبتة وهي في يد النصارى ، ثم رجع الى تونس فمات بهــــــا .

كان بتونس ملازما للصلاة في جامع الزيتونـة ، ويسكن الفندق ، ويؤثر عنه انه كان يتكلـم ، حيـن يعتريه الجذب ، بكلام موزون ، ولكن بلغـة العـوام ، ومن اقوالـــه :

يا عين قـم اسهر الليــل	سهر الليالي تجـارا
من لا يحرث يباس الكيــل	ولا تمثلالو غـــرارا
ينظـر الى عرمـة الغيــر	ولالو عليها جـــارا

وينسب اليه « الرباعي » التالي :

الدنيـــا شبهتهـــا دلاعــــا
تـدردب مـا بيـن الـــدلاع

مــاذا غـرت مــن طماعــــا
حتى رمتهم في بير ماله قـــاع

ذكرنا هذا « الرباعي » لاننا وجدنـاه منسوبـا للشيخ عبد الرحمن المجذوب ، وبالتالي لنتخلص الى الكلام عن ديوان « الرباعيات » المنسوبة للمجذوب .

فالكونت دوكاستري كان ، على ما يظهر ، اول من اعتنى بدراسة رباعيات المجذوب وترجمهـا الـى الفرنسية ، وقد ذكر نحو 150 رباعي ، واشفع الكثير منها بامثال في نفس المواضيع ، مستقـاة من التـراث الادبي اليوناني او العبري او من الانجيل ، فالف من ذلك كتابا طبع بالجزائر سنة 1896 ميلادية ، تحت عنوان : « Les Gnômes de Sidi Mejdoub »

واهتم ايضا ، برباعيات المجذوب ، السيد نـور الدين عبد القادر ، الذي كان استاذا بمدرسة الجزائر الثانوية ومعيدا بكلية الاداب ، فجمع 127 رباعيــا ، شرحها بالعربية ونشرها في كتاب عنوانه : « القـول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب » طبـع بالجزائر ، منذ ما يزيد على ثلاثين سنـة .

واكثر الرباعيات الواردة في هذا الكتاب مأخوذة من كتاب دوكاستري ، ومن كتاب الاستاذ الجامعـي الشيخ محمد بن ابي شنب (توفي بالجزائر سنة1929) الذي يحتوي على مجموعـة من الامثـال الجزائريـة والمغربية (طبع في ثلاثـة اجـزاء بباريـس فيما بيـن 1905 و 1907) .

وظهر ، سنة 1966 بدار لاروز الباريسية باللغة الفرنسية Les quatrins du Majdoub le sarcastique اي « رباعيات المجذوب الساخر » يشتمل على عـدد وافر من الحكم والامثال المنسوبة للشيخ عبد الرحمن جمعها السيد بخاري خليفة ، وشرحها السيـد ج . سيلسرميلي (J. Scelles-Millie) بعد ان رتبها ترتيبا يتيح له القاء بعض الاضواء ، على اطوار حياة المجذوب، ودراسة الظروف والاحداث التي لابستها . ولمؤلفي هذا الكتاب فضل لا يستهان به ، لانهما كانا يستوفيان جميع الرباعيات المتداولة في المغرب والجزائر وتونس، سواء منها المطبوع او المسموع ؛ ولكن يؤخذ عليهمـا عدم التدقيق في الترجمة ، وعدم التحري في انتقـاء الرباعيات ، والتمييز بين الاصيل والمنحول ، وكـذا بعض التجاوز في استنباط معانيهـا ، واستخـلاص مغازيهـــا .

ان الاقوال المنسوبـة للشيخ عبـد الرحمـن المجذوب كثيرة ومتنوعة ، ولكن لا يلبث المتمعن في مفاهيمها ان يدرك ان المنحول منها غير قليل . وليس من المستغرب ان يكون الامر كذلك ، لانه كلما اشتهر شخص في ميدان من ميادين المحاسـن او المساويء ، الا وترى الناس يضخمون ذلك الرصيـد الـذي كان سبب شهرته ، فينسبون اليه ، عن حسن نية او من سوء مقصد ، اعمالا واقوالا ومقامـات وحـالات ذات صلة بالميدان الذي ظهر فيه وكان من المبرزين وهكذا تنسج حول بعض الشخصيات الفذة حلل من الاساطير قد تكون ممتعة ، ولكن من العسير ان تكون مقنعة .

اننا نجد في الرباعيات المنسوبة للشيخ عبد الرحمن المجذوب اشارات الى اقامته بمدن او اقطار لم يثبت انه زارها ، ونجد ذكر أشياء لم تكن معروفة بالمغرب في عصره ، كما نجد الفاظا وتعابير عامية جزائرية او تونسية من الصعب ان نقتنع بانها كانت مفهومة في النواحي التي عاش فيها .

اننا نعرف مثلا ان الشيخ ابا الحسن علي بن عبد الله الششتري اللوشي (معاصر الامام الشاذلي 610 هجرية) شاعر الصوفية الكبير ، في الاندلس والمغرب ، وهو أول من استخدم الزجل في التصوف ، كان يتجول في شمال افريقيا ، وفي جميع اقطار الشرق الاوسط ، وكان قد دفعته عبقريته ان يتكلم لهجة اقرب الى الفصحى ، سواء في المغرب او في الشرق ، مع تضمينها خصائص عن لهجة القوم الذين كان يعيش بينهم ، فغلبت نزعة اندلسية على اشعاره في المغرب ، وبدوية ابان مقامه في طرابلس ، وشرقية ومصرية احيانا اخرى ، خلال اقامته وجولاته بمصر والشام « وذلك ليؤثر في نفوس السامعين » . وهذا ما يجعلنا لا نشك في صحة الاشعار الشرقية المنسوبة له .

واما الشيخ عبد الرحمن المجذوب فلم يذكر احد من المترجمين له ما يؤكد انه غادر المغرب ، وان كان ورد في كتاب « ممتع الاسماع » انه كان يقف كل عام بعرفات ، وان وقوعه ذلك كان من باب الكرامات التي تفضل الله سبحانه وتعالى عليه بها ، اذ يحكى انه استشار شيخه سيدي سعيد بن ابي بكر المشترائي في المشي الى الحج فقال له : « يا سيدي عبد الرحمن مكة عشاقة ، الذي تبغيه هي تزوره في داره » ، قال ذلك مقالا ومكنه منه حالا .

فالمعروف عنه بصفة ثابتة انه عاش بمكناس وبفاس وببلاد الهبط ، وانه لم يمتحن بالعمى ، ولم يزر جنوب المغرب ولا شرقيه ولا مناطقه الشمالية المتاخمة للبحر الابيض . نعم انه من المحتمل ، كثير الاحتمال ، ان يكون سمع اخبارا شتى عن الاحداث السياسية التي تقع بمراكش ، وبتازة ، وبتلمسان ، ووهران ، وتونس الخ . وذلك ، من جهة لانه كان يتصل بالصالحين المتجولين الذين لهم المام ببعض تفاصيل تلك الاحداث ، ومن جهة اخرى ، لانه كان يرى بالقصر الكبير او بنواحيه طوائف من اهل الريف واهل سوس ، واهل المناطق الصحراوية ، وجاليات اندلسية ، وجماعات من العلوج ، ومن الاسرى البرتغاليين والاسبان ، ولكن هل هذا الاحتمال يكفي لتعليل ما نسب له من رباعيات دعا فيها مثلا على هذه البلدة او تلك ، او هجا فيها هذه الطائفة من سكان المغرب او تلك ، اننا نربأ بشيخ افعمت نفسه بحب الله، ان يسف ذلك الاسفاف .

لا شك ان الحزازات الناجمة عن التسابق على مناصب السلطة ومراتب الامارة وان التحزب لطائفة من الطوائف ، والتحيز لحاضرة من الحواضر ، هي التي كانت تدفع بالمتنافسين الى التراشق بالاهاجي، والى تبادل الشتائم والمثالب ، بعد ان يصوغوا منها « رباعيات » ويشيعونها بين الناس ، منسوبة للمجذوب لاكسابها قوة التأثير وشدة الفاعلية .

ولا يستبعد أن يكون المجذوب اشار الى الاضطراب الذي كان ينتج عن ذلك التهريج حيث قال:

تخلطت ولا بات تصفى
ولعب خزها فوق ماها
رياس على غير مرتبة
هما سبب خلاها

وعليه فانه يجب ان نتذرع بالحيطة واليقظة في قبول كل ما نسب للمجذوب من رباعيات تشتمل على ذم ، او تشتمل على الفاظ غير متداولة بالمغرب مثل « حوست » (تجولت) وقليل (محتقر) الخ . او ذكر فيها اشياء لم تكن معروفة بالمغرب مثل « القهوة » كمشروب او كمكان لشربها . نسب مثلا الى المجذوب انه قال :

طاقوا على الدين تركوه
وتعاونوا على شرب القهاوي
الشوب من فوق نقوه
والجبح من تحت خاوي

وقال :

حبيبي ان غضب ماله طب
بعد المحبة جفاني
نجيب القهوة ونصب
ونحدثه بالمعاني

وقد ذكر الشيخ ابو سالم عبد الله بن محمد بن ابي بكر العياشي (1037 — 1090 هـ) في رحلته المسماة « ماء الموائد » (الجزء الاول صفحة 132 طبعة فاس) بعض ما شاهده بمصر ، وما فعله بالقاهرة سنة 1072 هجرية فقال : « لما دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ ابراهيم الميموني ، رضي الله عنه ، ومنزله قرب الجامع الازهر ، قدم لنا طعاما حسنا ، وكنا جماعة .

وهذا خلاف المعتاد من اهل مصر ، وانما يتكارمون بيتهم بشراب البن الذي يسمونه القهوة ، **ونحن لا نعرفها وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة ...**

« فاذا لم تكن القهوة معروفة بالمغرب ، عهد العياشي (1037 – 1090 هـ) فهي ، بطبيعة الحال ، لم تكن معروفة به ، او على الاقل ، لم تكن شائعة ومتداولة في عهد المجذوب (909 – 976 هجرية) وقد يؤيد هذا ما نبه اليه الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله في معجمه التاريخي ، ان « طوماس لوجندر » ذكر في رحلته المنشورة في مستندات « دوكاستر (السلسلة الاولى السعديون الجزء الثالث صفحة 691 – 739) وجود الشاي في المغرب زيادة على القهوة عام 1665 ميلادية (1076 هجرية) وكانا حديثي عهد بالدخول الى اوربا » .

نعم لا شك ان اكثر الرباعيات المعبرة عن الامتعاض والتذمر ، مما كان يسود المغرب ، في ذلك العهد ، من فتن ومحن ، خليقة بان تكون من اقوال المجذوب ، لانه كان ذا قلب حي لا يستطيع ان يتغاضى عن ذلك . ولا شك انه هو صاحب الاقوال التالية :

غوث يا ذيب سايس
وجاوبه يا ذيب وراما
الشريف يجري على الشريف
حتى يجي الي يحسن لكم بلا ما

* * *

رقيت على جبل صارصار
ورميت عين يمين وبسارة
شفت الغرب خالي بصفر
مكناس هي حد العمارة

والظاهر ان الشيخ عبد الرحمن ، كان يساند بني وطاس ، حيث ان الكثير من الرباعيات المنسوبة اليه ، في هذا الموضوع ، تدل على انه لم يكن راضيا على السعديين ولا على اهل سوس . ومما يعزى اليه هذه الاقوال :

مراكش مبدى الهم
سلا والرباط هما فراشه
مكناس يجري بالدم
فاس يا من بغى معاشه

* * *

الخيل الدوك من القبلة
والجيح يقوم من سوس
الشبكة منصوبة في اربلة
ما يفلتشي منها حتى الناموس

من عند النبي جيت رقاص
مولاي ادريس يعطي البشارة
مضمون فاس من كل باس
ولو يدوروا به جناس النصارة

وخلاصة القول : ان الشيخ عبد الرحمن المجذوب كان ذا بصيرة نافذة مميزة ، يهدف الى اصلاح المجتمع الذي كان يعيش فيه ، ولذا نرى ان الكثير من اقواله وارشاداته السلوكية ، خاصة بالشؤون الدنياوية من صدق وكتمان وصبر الخ .. او تعبر عن اشارات عرفانية يمجد فيها الله ورسوله الكريم .

وبما انه لم يذكر ، حسب ما يبدو ، هذا النوع الاخير من الرباعيات الا في كتاب « ممتع الاسماع » وهو قليل التداول ، فلا باس ان نختم هذا البحث بايراد بعضها .

طلع النهار على قلبي
حتى نظرت بعينيا
انت دليلي يا ربي
وانت رسولي مني فيا

* * *

طلع النهار على الاقمار
ولا باقي الا ربي
الناس زارت محمد
وانا ساكن في قلبي

* * *

اذا ذكرتك يا الامجد
نصيب راحة في نفسي
لولا حبيبي محمد
ما كان عرش ولا كرسي

* * *

الحب منك ما هو لي
وانت الحبيب الى نهوى
ايا حبيبي محمد
رايت حبك فيه دوى

* * *

مجذوب محبوب مرغوب
ساكن في ارض العلالي
الى اقضى ربنا كان
في الراس ما يمتحى لي

الرباط : عبد القادر الخلادي

أبو عبد الله الهبطي واضع وقف القرآن بالمغرب

للأستاذ سعيد اعراب

(3)

من القراء من يرى ان وقف الهبطي ، قد تواترت روايته ، واستفاضت شهرته ، وتلقاه الناس بالقبول، جيلا بعد جيل ؛ فيجب الوقوف عنده ، ولا تجوز مخالفته ؛ ومنهم من يرى ان الوقف من اصله جائز ، واكثر وقف الهبطي لم تثبت روايته ، فيجوز الخروج عنه ؛ وقد خالفه عدد من العلماء ؛ فمنهم من زاد عليه، ومنهم من نقص منه . على ان الهبطي نفسه ، تـرك كثيرا مما وسمه الداني بالوقف التام او الكافي .

وابن عبد السلام الفاسي ممن شايع هذا الراي، قال : « .. فما يعتقده كثير من قراء زماننا ، من ان كل كلمة قيدت عن الهبطي ، وردت بها الرواية ، جهل منهم بمعنى الرواية ؛ لانهم حيث قراوا على شيوخهم، وادوا على ذلك ، اعتقدوا ان تلك الحال التي ادوا عليها، هي الرواية في كل ما ادوا عليه ؛ ومن جملة ذلك ، الوقف على الكلمات التي قيدت عن الهبطي ؛ ثم تمادى بهم الحال ، حتى خطأوا من ترك الوقف على كل كلمة مما قيد عنه ، او زاد على ذلك ، وجهلوا انه لا تتعين متابعة الهبطي في شيء ، من ذلك .

وهذا الخلاف مبني على خلاف آخر ، وهو هل الوقف مروي بالنوع او بالشخص ، والمختار انه مروي بالنوع والصلاحية ، لا بالشخص والتعيين . وما مر من انه لا تتعين متابعة الهبطي فيما قيد عنه من وقف ، انما يمكن حمله على القارىء المتفقه ، والعالم المتبصر ؛ اما جهلة القراء ، وعامة الناس ؛ فينبغي لهم الوقوف عندما قيد عن الهبطي ، كما يلمح الى ذلك صاحب القول الوجيز ، في قمع الرازي على كتاب الله العزيز ، اذ يقول : واذا كان الامر في الوقف والسكت هكذا ، فالواجب بالوجوب الادائي على التالي ، ان يقف على اماكن الوقف الذي يتلو عليه ، كالوقف المنسوب للهبطي في زماننا ــ وقفا يتنفس فيه ويستريح ؛ قال : فاما قراء زماننا ، ــ سامحهم الله ــ فلا يعباون بشيء من هذا ؛ ولكنهم اذا مروا بمواضع الوقف عند الهبطي ، اسكنوها ، واستمروا الى ان برهقهم النفس ويضطرهم ، فيقفوا في مواضع الاضطرار .. واقبحهم في ذلك اهل صناعة الارداف ؛ لانهم يعتقدون ان الحافظ هو الذي يفعل ذلك ؛ وزاد يقول : فالوقوف التي يوقف عليها كلها تراعى فيها معان ، لابتنائها على الاعراب الكفيل بالمعاني ، ومفادات الكلام ؛ لان فاعلها لم يضعها بالتشهي ، بل وضعها باعتبار اعرابات واشادات الى معان ونكت في التفسير ؛ وان نوقش في بعضها ، لانه بشر ليس معصوما .. »

ومما نوقش فيه الهبطي ، وقفه على اواخر السورة مع ان الذي ذكره العلماء في كتب الخلاف كالشاطبية والتيسير ، ان ورشا يسكت ، او يصله بأول السورة بعده ؛ فذكر الهبطي الوقف عليه ، اما باعتبار انه محل وقف وتمام ، ولا اتم من آخر السورة، وعليه فتتعين البسملة حسبما هو منصوص ، واما باعتبار رواية قالون ، أو انه كان يقرأ لنافع بروايتيه معا بالبسملة ، فعلى ما به الاخذ عن ورش من السكت والوصل ، على التخيير بينهما ــ يجب ان لا يذكر

آخر السورة فيما يوقف عليه ، الا مع بيان ان ذلك باعتبار رواية من يبسمل بين السورتين ، ثم بيان ان ذلك ايضا باعتبار اخذ من يقف على آخر السورة ممن يبسمل ؛ اما ذكره على الاطلاق لنافع ، فيوقع عوام الآخذين في جهل وخطا عظيمين؛ذلك انهم يأخذون في أول التعليم والتلقي بضبط الواجهم على حسب العادة ، ومن جملة الضبط وضع علامة الوقف التي هي (صه) على الكلمة الموقوف عليها ، ــ بمعنى اسكت ــ فيضعونها على أواخر السور ، كما في كلماتها الموقوفة؛ ثم لا يقع تنبيه من اشياخهم على ان ورشا لا يقف على آخر السورة ، وانما حكمه عنده السكوت عليه ، أو وصله بأول السورة بعده ؛ ويكتفون بالتلفظ لهم ، فيرى المبتدئون ان اشياخهم واقفون ، ويستمرون ــ اعتقادا ــ ان ورشا يقف على آخر السورة ، ولم يفهموا أن الوقف عليه يوجب البسملة ، لابتداء السورة ، فيقرءون له ولا يبسملون ، ويعتقدون انه واقف غير مبسمل ؛ وذلك خطا من جهتين : من جهة الرواية ، ومن جهة الاداء ؛ لانهم يتركون البسملة التي تترتب على الوقف ، وربما يعتلون بذكر الهبطي اواخر السور في عداد الكلمات التي يوقف عليها ، جهلا منهم بمراده . نبه على هذا العالم المقرىء ابن عبد السلام الفاسي ، وزاد يقول : « وكنت أسأل حفاظ السبعة منهم ، فأجدهم على هذا الاعتقاد الفاسد ، واذا نبهوا اقاموا على جهلهم ، تقليدا لاشياخهم ؛ قال وكنت آمر الآخذين عني بان لا يضعوا علامة الوقف على اواخر السور ، لان الوهم انما أتاهم من قبل وضعها . . »

قلت وعمل القراء ــ الى اليوم ــ لا يزال على وضع علامة الوقف أواخر السور ؛ عملا بالقول المأثور، خطأ مشهور ، أفضل من صواب مهجور . على ان وضع علامة (صه) على الكلمات الموقوفة ، ليس من وضع الهبطي ، فالنسخ القديمة ــ التي بين ايدينا ــ مجردة من هذه العلامة ؛ وربما كانت من وضع بعض تلاميذه

ثم هناك اختلاف بين النسخ في بعض الوقوف ، فمثلا قوله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » ، ــ سورة البقرة ، آية 88 ــ اغلب النسخ يقف على الذين كفروا ، بناء على أن « كفروا به» جواب لما الثانية ، وحذف جواب الاولى للاستغناء عنه ، وهو راي الزجاجي والاخفش ، واختاره الزمخشري . وذهب المبرد الى أن جواب لما الاولى هو « كفروا » ، وكرر لما لطول الكلام ، وقيل ان جواب لما الاولى محذوف ، دل عليه جواب لما الثانية . وعلى هذا فلا يحسن الوقف على الذين كفروا ، ولذا لم يوقف عليه في بعض النسخ .

وهذا الاختلاف قد يرجع الى تغيير وجهة نظر الهبطي في بعض الوقوف ، فاثبتت في رواية بعض التلاميذ ، ولم تثبت عند الاخرين ، وهذا ليس ببدع ، فكثير من العلماء وقع لهم مثل هذا ، فاختلفت نسخ مؤلفاتهم ما بين زيادة ونقص ؛ فالشافعي مثلا روايته في القديم ، غيرها في الجديد ؛ وكذلك في فقه مالك ، نجد الفقهاء يقولون ان هذا القول مرجوع عنه ، لا تجوز الفتوى به .

هذا وقد احصى القراء المتاخرون وقف الهبطي، وعدوا كلماته ، ورتبوها على حروف المعجم ، وسموا هذه الوقفيات ، بـ « الحطيات »

وقد طغت موضة « العدد » عند القراء في العصور المتاخرة ، فنجده في كل شيء ، في القراءات ، وفي الوقف والوصل ، والثبت والحذف ، والهمز والوصل ، وهلم جرا .

وبعد فهذه نظرة عجلى عن وقف ابي عبد الله الهبطي ، الذي يدين له المغاربة بالفضل ، مدى أربعة قرون أو تزيد ؛ وكم نود أن لو طبع هذا الوقف مع بعض شروحه ، التي تبين مغزاه ومراميه ؛ احياء لتراثنا القومي ، وخدمة لكتاب الله العزيز . وفقنا الله جميعا الى ما فيه خير البلاد والعباد .

تطوان : سعيد اعراب

روابط متينة بين دولة الإسلام في الأندلس والهند الإسلامية الحديثة

دراسة مهداة لروح المستشرق الكبير ليفي بروفنصال

للأستاذ عزيز أحمد - لندن
تعريب : عبد الرحمن بنعبد الله

ان من مظاهر ضعف الثقافة عندنا ـ كما يرى بعض رجال الفكر في بلادنا ـ اهمال عنصر اساسي هو الترجمة . فالعصر الحاضر يدعو الى الاخذ بهذه الصناعة كما تأخذ بها كل الامم الحية اذ أنها تغني اللغة وتنقل مستجدات العصر وتربط القاريء المغربي بآفاق العالم المتحضر . والترجمة تلعب دورا هاما في اطلاع المثقفين على ما كتب باللغات الاجنبية لا عن المغرب فحسب ولكن بالنسبة للعرب والمسلمين عموما .

والدراسة التي تولينا تعريبها أسفله تسلط بعض الاضواء على جوانب غامضة من تاريخ الاسلام وتعرض للوشائج الروحية والفكرية التي جمعت بين المسلمين في العصر الوسيط مهما نات الديار وشط المزار . ولقد كان لهذه الصلات من الاثر البعيد في نفوسهم ما جعلهم يعملون على دعم كيانهم الروحي والديني في القرن العشرين صونا للمكاسب التي حققتها دولة الاسلام في عهود الامجاد الغابرة . ـ المعرب ـ

ـ 1 ـ

تشير كتب التاريخ الى ان غزو السند قد واكب في تاريخ الفتوحات الاسلامية ، تأسيس دولة عربية في اسبانيا . كانت الامبراطورية العربية على عهد المتأخرين من خلفاء بني امية تمتد الى السند ، وتحدها في الشمال بلاد الاندلس . وقد انتقلت علوم الهند وكتاباتها فيما بعد ، عن طريق بغداد ، الى بلاد الاندلس حيث عكف بعض العلماء من اضراب احمد المجريطي (المتوفى سنة 1007 م) وابن السمح (المتوفى سنة 1035 م) على كتابة شروح ضافية لكتاب السدهانتا الذي غدا بعد ذلك موضع جدل ونقاش بين كثير من علماء الاندلس كعبد الله بن احمد السرقسطي وابن سعد الاندلسي ، بيد ان الصلات بين الاندلس ودولة الاسلام بالهند في العصر الوسيط كانت ضئيلة ، ولعل الفضل راجع في التاريخ لها ، رغم ذلك ، الى آثار الرحالة العرب من امثال ابن حوقل الذي زار العالم الاسلامي (او دار السلام) من اقاصيه الى اقاصيه . لقد كان من العسير على الاقليمين المسلمين المتباعدين ان يوثقا علاقاتهما الفكرية والسياسية لبعد المسافة بينهما وكثرة المخاطر التي كانت تتهدد الرحالة في ذلك الحين . واهم من ذلك ان الاندلس قد انفصلت عن العالم الاسلامي على عهد العباسيين ، فيما بقيت دولة السند موالية ، الى حين ، للسلطة المركزية في بغداد حتى انها غدت جزءا من الامارات التي تشعبت عنها بعد ضعف الخلافة وتفكك الوحدة الاسلامية .

وجدير بالاشارة أن فتح شمال الهند قد تم على يد الاتراك سنة 1000 م ممن اثرت فيهم الثقافة الفارسية الى حد بعيد ، هذا الى ان الصلة القائمة بين الهند من جهة وافريقيا الشمالية والاندلس من جهة اخرى كادت أن تصبح مستحيلة بعد ان تعرض العالم الاسلامي في عقر داره لغزو المغول الوثنيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فليس غريبا ان نلحظ في

الآثار التاريخية الاولى التي سطرها المؤرخون المسلمون في الهند غموضا كبيرا في معلوماتهم التاريخية عن الاندلس ، على ما تتسم به هذه الكتابات من طابع الاحاطة والشمول . لقد كانوا يطلقون على الاندلس والمغرب والجزائر لفظ « المغرب » الشهير . فهناك شخصيات « مغربية » ظهرت على فترات متقطعة ببلاد الهند الاسلامية : بعضها كان يرتادها سائحا وبعضها كان يفد عليها للمغامرة . هذا الى جانب البعثات الدبلوماسية التي نختص منها بالذكر مهمة الامام شمس الدين المغربي الذي اوفده احد امراء اوربا الوسطى سفيرا له ببلاط السلطان ناصر الدين محمود (1246 ـ 1266) في دهلي . اما ابرز الرحالة المغاربة على الاطلاق فهو ابن بطوطة . لقد خلف الرحالة الشهير وصفا ضافيا عن الحياة وعن الاوضاع في الهند كما هو الشأن بالنسبة لغيرها من الاقطار التي زارها حيث تولى مناصب هامة ـ في خدمة محمد ابن تغلق (1325 ـ 1351) ـ بما في ذلك منصب سفير في البلاط الصيني . واشار في رحلته ايضا الى ان ملوك الهند اكرموا وفادة عدد آخر من « المغاربة » . بيد ان الامر لا يعدو ان يكون اتصالا شخصيا . واذا كان محمد بن تغلق اول الملوك المسلمين بالهند الذين ابانوا عن ميل اصيل الى تحقيق الوحدة الاسلامية ، فاقر السلطة الروحية للخليفة العباسي المنفي بالقاهرة ، وتبادل البعثات الدبلوماسية مع مصر وفارس فانه لم يفكر في ان يوجه سفيرا له الى البلاط العربي بالاندلس .

والملاحظ ان الهند الاسلامية في العصر الوسيط قد تاثرت كثيرا للتحدي الصارخ الذي كان يجسمه وجود المغول الوثنيين وناصرت حركات المقاومة او الاسترجاع التي كان يقودها الاهالي آنذاك ، فيما جهلت أو تجاهلت مأساة الاسلام باسبانيا وتحدي النصرانية في اوربا تمهيدا لاعلان الحروب الصليبية .

بيد أن الغرب الاسلامي اثر بصورة حاسمة في الفكر الهندي والحياة الدينية والصوفية بالهند الاسلامية في العصر الوسيط . ولعل من الاصوب أن نقول انه تأثير للفكر الصوفي الذي تكشفت عنه كتابات المتصوف محيي الدين بن العربي (المرسي) فقد دخلت مؤلفاته الهند في اواسط القرن الثالث عشر على يد الشاعر المتصوف فخر الدين العراقي الذي اقام طويلا في دار الضيافة السهروردية بملطان والتقى بعد ذلك في كونيا بصدر الدين ، تلميذ ابن العربي وشارح مؤلفاته . وقد اصدر العراقي «نصوص الحكم » الى ملطان ، مشفوعا برسالة في التصوف كتبها بنفسه على نسق كتاب ابن العربي المذكور . وقد كان لابن العربي اثر بعيد في الفكر الهندي ، ممثلا في نظام الصوفية السهروردية ، ثم في نظام الصوفية الشتية ، خصوصا فيما يرجع لنقطتين اساسيتين من نظريته الصوفية . وتتلخص الاولى في عرضه حول بنية الطبقات الصوفية التي تتضمن في وسطها قطبا يماثل المحور المقدس الذي تقوم حوله ثورة الكون ؛ وهذه نظرية قد دعمت في الهند موقف نظام الصوفية الشتية ، بتعضيد حق السلطة الروحية التي يجب ان تمنح لرئيس النظام . وهي الى ذلك تعكس في المجتمع الهندي الاسلامي اثر الصراع الذي احتدم في العصر الوسيط ببلاد النصرانية بين البابا والامبراطور. اما الثانية ، فلها جذور في اعماق الفكر الهندي ، وتتجلى في التفسير الديالكتيكي الذي اعطاه ابن العربي للوحدة الانطولوجية مع ماينطوي عليه هذا الراي الصوفي من عناصر دخيلة على الاسلام . وقد خصها المتصوفة المسلمون في الهند بتعاليق ضافية في محاولتهم للتوفيق بينها وبين المبادىء الجوهرية في الوثوقية الاسلامية (Dogme musulman) فيما ندد بها كبير المفكرين الصوفيين الهنود الشيخ احمد السرهندي ؛ والذي لا مراء فيه أن الوحدة الانطولوجية عند ابي العربي تشبه في كثير من معطياتها الوحدة المطلقة التي نادى المتصوف الهندي الشانكراشاريا . ومن المحتمل ان تكون نظريات « ابن العربي في التصوف قد تاثرت ، بصورة غير مباشرة ، عبر آسيا الوسطى بتعاليم الهندية الاولى حتى ان الروح الهندية اعجبت بها ايما اعجاب ، بيد ان صلة الفكر الهندي بنظريات ابن العربي كانت تعرض المعطيات الدينية والسياسية بالهند ، في نظر رجال السنة الاسلامية ، لمخاطر الابتداع والتلفيق . وقد عمل الشيخ احمد السرهندي على وضع حد لشيوع هذه الظاهرة في بداية القرن السابع عشر ، فوضع نظرية الوحدة الظواهرية ، في حدود النظام الصوفي النقشبندي الذي ينتمي اليه . وقد اعتمدها سواد الناس في الهند الاسلامية آنذاك . والجدير بالذكر ان هذه النظرية قد كان لها من الصدى ما جعل الشاعر الفيلسوف اقبال يصف في القرن العشرين «الفتوحات المكية » لابن العربي بانها لا تعدو ان تكون بدعة واقوالا غامضة .

- 2 -

هناك مظهر آخر لفكر « ابن العربي » لا صلة له بمنهجه الصوفي ، ونقصد به التعريف الذي اصطنعه لنظريته الجوهرية فى الرابطة الاسلامية التي لم يكن لها اي تأثير على الهند الاسلامية فى العصور الوسطى . على اننا لا نستبعد ان تكون هذه النظرية نواة للنظرية الحديثة فى الرابطة الاسلامية كما وصفها رائد هذه الحركة فى القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الافغاني .

فقد نظم ابن العربي فى القرن الثالث عشر السياسة المناهضة للحروب الصليبية فى البلاط الاسلامي بالاناضول وسوريا ، واشار على المسلمين بأن يبتعدوا عن المناطق التي اغار عليها المسيحيون ، وقد كان بدون شك ، يرسم الاتجاه الذي اختطه جمال الدين الافغاني فيما بعد عندما نظم فى القرن التاسع عشر قواعد الرابطة الاسلامية .

انها ، على وجه التحديد ، النظرية السياسية للرابطة الاسلامية فى الهند الاسلامية المعاصرة كما نلاقيها فى كتابات المفكر الديني المسلم الشيخ ولي الله الذي عاش فى القرن الثامن عشر حيث وصف المجتمع الاسلامي الوحدوي « الجماعة » ، وكما تطالعنا فى آثار المفكرين السياسيين فى القرن العشرين من امثال اقبال وأبي الكلام آزاد . واذا كانت نظرية ابن العربي لم ترد فى كتابات المتأخرين ، بوصفها مرجعا مباشرا للرابطة الاسلامية ، فانه لا يخامرنا شك فى ان ولي الله قد تأثر بها كثيرا حتى انه حاول التوفيق بين نظرية ابن العربي ونظرية الشيخ احمد السرهندي بخصوص الوحدة الانطولوجية .

- 3 -

كان لقاء المفكرين المسلمين بالهند مع تراث الاسلام باسبانيا لقاء فى بالغ الاهمية شهده القرن التاسع عشر ، يوم اكتب النخبة المثقفة الجديدة التي تلقت تعليما غربيا على قراءة المؤلفات التي كتبها المستشرقون الاوربيون ، فى اعقاب الثورة الهندية ، سنة 1857 . واذا كانت هذه النخبة قد تفتحت على المراجع العربية الاولى فى الفلسفة والتاريخ والادب مما وصل اليها عن طريق الغرب ، فان العلماء المسلمين الذين تلقوا تعليما كلاسيكيا تقليديا كانوا اوفر حظا واشد اهتماما بهذه الاصول . ومن نافلة القول ان هذا التطور اعطى ثماره فى اقل من عشر سنوات . لقد كانت نظرة المسلم فى الهند الى تاريخ الرابطة الاسلامية تصور له تاريخ الاسلام ذاته عملية فريدة انتظمت العالم الاسلامي قاطبة فى آن واحد ، ونتيجة لذلك ، فانه كان يطالب فى كثير من الاعتزاز بالمكاسب التي حققها المسلمون فى الاندلس بوصفها جزءا لا يتبعض من ميراثه الثقافي . وبالرغم من احتكاك علماء الهند بالمستشرقين الغربيين الذين كانوا ينظرون الى التاريخ على ضوء التقسيم الجغرافي ، فان هؤلاء يقرون بأن « النزوع الى الملكية » عند المسلم الهندي لم يمس بشيء . بيد ان بعض الضباط الانجليز بالهند فى القرن التاسع عشر تفهموا هذا الاتجاه التاريخي فى الفكر الاسلامي وعملوا على تعضيده . ونضرب لذلك مثل السير شارلز تريفليان الذي اهدى بعد سنة 1860 بقليل جائزة لاحسن دراسة مقارنة حول اثر الادب الاغريقي على العرب على عهد العباسيين والامويين الاندلسيين وما استتبعه من تأثير للادب العربي على الاوربيين ، كما اشار النائب الملكي البريطاني اللورد ليتون ، عند تدشينه للمعهد الاسلامي الانجليزي الشرقي الى ان ابرز المكاسب وابقاها اثرا عند الاجناس العربية ما حققته فى ميادين العلم والادب والفن ... لقد امدوا جزءا هاما من هذه القارة بهندسة معمارية كانت موضع الاعجاب والاندهاش فى هذا القرن ، في حين كانت المجتمعات المسيحية فى اوربا لا زالت تتعثر فى دياجير الجهالة والبربرية الرعناء ... لقد انشأوا فى كل ربوع شبه الجزيرة الايبرية كثيرا من مدارس الطب والرياضيات والفلسفة . وكان تعليمها يفوق مستواه واقع العلوم المعاصرة اذذاك فى اوربا . وانه لمن المؤكد ان سكان اسبانيا والبرتغال مدينون بالشيء الكثير من امكانيات التغذية ذاتها لاعمال المهندسين الزراعيين العرب فى العصر الوسيط .

لقد كان ذلك بمثابة اعتراف رسمي يصدر عن الاوساط الرسمية آنذاك بخصوص الموقف والاتجاه الذين اتخذهما العلماء المسلمون بالهند فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فليس من الغريب ان ينقطع المثقفون فى الهند الاسلامي ، فى بادىء الامر ، الى دراسة آثار ابن رشد فى نهاية القرن التاسع عشر ، مع ما كان لها من بعيد الاثر على تقديم الفكر الاوربي ، فاصدر عماد الملك بلقرامي حوالي سنة 1870 دراسة عن ابن رشد ، اعقبتها دراسة علمية للفيلسوف المغربي محمد يونس من « الفيرانجي ماهال » وظهرت كذلك اول ترجمة اردية لفصوص الحكم لابن العربي

ما بين 1891 ـ 1984 . اما في سنة 1901 فقد تمت ترجمة كتاب ميكان Meakin المسمى «الامبراطورية المغربية » . وظهرت في سنة 1904 ترجمات ذاتية لابن باجة وابي حيان الغرناطي . وقد صدرت في نفس الوقت ، على شكل مذكرات سفر ، زحمة من الآثار الشعبية في المجلات حول تاريخ الاندلس وثقافتها . واعتبارا للقيمة الانسانية والدور الطلائعي الذي لعبه الاسلام بالاندلس بالنسبة للحضارة الاوربية فقد اضحت موضوعا حماسيا للذود عن الكيان الاسلامي ، خاصة في كتابات عامر علي وسيراج علي . اما علماء الدين الذين ينتمون الى مدرسة ديوباند ، فقد عالجوا الموضوع من زاوية مختلفة . ويظهر من مؤلفاتهم أن اسهام الاسلام بالاندلس يحتل مكانه في التوزيع الذي يخضع له الفكر العربي والثقافة العربية عموما . وعلى هذا النهج سار المؤرخ الاردي الكبير شبلي نعماني في كتابة مؤلفاته التي تعالج الدين والادب والثقافة ، واليه يرجع الفضل في التعريف بالجهود التي اسهم بها الكتاب المغاربة ، ممن تناولوا المواضيع الدينية ، فيما خلفه من مؤلفات لا تقع تحت حصر ، وقد قام المثقفون ايضا بنشر عدد هائل من الدراسات الاصيلة في كثير من المجلات كالمعارف ، وفي بعض الكتب كالجغرافيا التاريخية للاندلس ، لعناية الله . ولم تهن عزائم المثقفين في دراسة الاسلام بالاندلس الى ان استقلت الهند والباكستان سنة 1947 . وتدل الوثائق التي كتبت سنة 1941 على أن اهتمام المسلمين في الهند بميراثهم المفقود في شبه الجزيرة الايبرية كان يتزايد باستمرار . وقد شهدت السنوات الاخيرة ظهور كثير من الكتب في الموضوع سواء ما كان منها موضوعا او منقولا .

ـ 4 ـ

في اعتقاد العامة من مسلمي الهند ان المؤلفات الادبية الاردية تشكل صلة وصل بينهم وبين الاندلس . فلقد كتب الشاعر المجدد الطاف حسين حالي سنة 1879 قصيدته الشهيرة « مسدس » حيث يرثي ماساة الاسلام ويعبر عن امله في نهضة له يسترجع فيها ما فات من امجاده . والقصيدة تتضمن ثلاثة مقاطع مؤثرة يعرض فيها الشاعر لمآثر الاسلام باسبانيا مؤكدا عروبتها الاصيلة سواء من حيث الشكل او المضمون ، وكذا سمو معالمها التي لا تبلى جدتها على مر الايام . وقد شاعت هذه القصيدة في الاوساط الشعبية بصورة اصبح معها السكان في الهند يطلقون على منازلهم اسماء المدن الاسبانية محتفظين بشكلها العربي كما وردت في ابيات القصيدة الانفة الذكر .

وسارت القصة التاريخية الاردية على نهج القصيدة الاردية ونسجت على منوالها في قالب اندلسي فقد كتب عبد الحليم شرار ، من المعاصرين للشاعر حالي ـ ولكنه أصغر منه سنا ـ عدة قصص تاريخية اقتفى فيها أثر الكاتب والترسكوت Walter Scott من حيث الفن والمنهج ، وتناول فيها مختلف المراحل في التاريخ الاسلامي ، كما الف في سنة 1890 مسرحية تاريخية سماها « شهيد الوفاء » وتعالج هذه المسرحية انهيار المجتمع الاسلامي في غرناطة مما ادى الى سقوطها في قبضة فرديناند وايزابيلا ، وقد اتبعا شرار سنة 1896 بقصة في الحوار التاريخي سماها « فلورا فلوريندا » وتناول القصة موضوع التوتر الذي كان يسود بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا . والقصة من حيث هي تقتصر الى كثير من الحياة والاضواء ، ولعل المسوغ الوحيد لقراءتها في الهند الاسلامية كامن في لونها الرومانطيقي والحوار التاريخي الذي تحتذيه. وهناك قصة تاريخية اخرى « لشرار » كتبها عن اسبانيا ايضا وسماها « الفاتح المفتوح » وتدور احداثها حول الصراع الذي دارت رحاه بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مرتيل ، وما استتبعه ذلك من انهزام للعرب بأرض الغال مما أوقف الزحف الاسلامي في اوربا . والقصة زاخرة بصور البطولات ، ولها من التماسك وعمق النظرة ما يعوز غيرها من الكتابات السابقة التي اصدرها شرار عن اسبانيا . وقد نشر شرار ، علاوة على القصص ، حكايات شعبية في الدوريات التي كان يصدرها للتعريف بالاحداث والشخوص التي تملأ تاريخ الاسلام بما فيه تاريخ الاندلس . والى جانب القصص الهندية التي تجري احداثها على مسرح التاريخ الاندلسي ، فقد تقبل الشعب عن طيب خاطر ، ترجمات الكتب التي الفت بلغات اجنبية في نفس الموضوع . وهكذا نقل الى الاردية سنة 1906 كتاب المؤرخ اللبناني جرجي زيدان الذي يقص تاريخ الفتح العربي للاندلس دراسة الاسلام بعد اكتشافه في الاندلس كانت قوة خلاقة خلقت اثرا بارزا في عبقرية الشاعر الكبير والمفكر الهندي المسلم محمد اقبال (الذي وافته المنية سنة 1938) . وقد تبدت هذه القوة رموزا تشع في نتاج الشاعر الموهوب . فطارق اول ضابط عربي وطئت قدماه ارض اسبانيا ، عندما بأمر باحراق اسطوله في جبل طارق ، يعد رمزا للعزيمة الصادقة التي لا تنال

منها وفرة جيوش العدو ، وعبد الرحمن الداخل ، حين يغرس اول شجرة من اشجار النخيل في ارض الاندلس ، يمثل حياة العرب الفاتحين وهي تمد جذورها في تراب الاسبان . ولعل ابرز هذه الرموز واجملها مسجد قرطبة الذي زاره اقبال مستلهما في سنة 1932 ، فألهمه قصيدة جياشة من احسن ما خطته يده . واذا كان « حالي » أول من ابتدع عبادة الاندلس قبل اقبال بنصف قرن ، فلقد بلغت الذروة في قصيدة هذا الاخير التي عنونها بمسجد قرطبة . ويستهل اقبال قصيدته بسلسلة من الصور المجردة حيث يمنح الزمان صفات الخلق والاختبار والاقصاء والتحطيم . وفي رأيه ان حظوظ البقاء من نصيب النشاط الخلاق الذي يمارسه « رجل الايمان » لان هذا الاخير يستلهم نشاطه من الحب الخلاق ، والحب الخلاق يتجلى في ابداع الفن كما نرى ذلك جليا في مسجد قرطبة . لقد اشار اقبال الى الخصائص الفنية التي تطبع بناء المسجد واكد على عروبتها الاصيلة وانتمائها الى الاسلام . وهو ينحني في اجلال وخشوع امام الآثار الباقية مما ابدعته العبقرية الخلاقة بالاندلس في ميادين الثقافة ، ويحيي مظاهر الحياة وطريقتها عند الاسبان في العصر الحديث . وقد تم نقل هذه القصيدة وكثير غيرها مؤخرا الى اللغة الاسبانية .

كل القصائد الاردية التي تناولت الاندلس تفيض بهذه الانفعالات الجياشة حتى ليصح القول بأن زيارة الاندلس بالنسبة للمسلم الهندي أو الباكستاني تعتبر حجا ثقافيا . واذا كانت القصيدة الاردية قد اضحت تخدم اغراضا اخرى ، تحت تأثير التيارات الاوربية الحديثة ، فان القصة الاردية التاريخية لم تحد قط عن المناخ المغربي الاندلسي . ومن الامثلة على ذلك قصة « يوسف بن تاشفين » التي كتبها نسيم حجازي سنة 1952 بالباكستان .

– 5 –

وراء الاعجاب الذي يكنه المسلمون في الهند لعظمة المسلمين الاندلسيين في ميدان الثقافة والتاريخ تكمن مجموعة من الاتجاهات السياسية والنفسية . وهذه الاتجاهات في الواقع ليست الا رد فعل المسلمين يوم انحسر نفوذ الاسلام بسرعة في القرن التاسع عشر تجاه التقدم الموصول الذي ابانت عنه الامبراطوريات الغربية وحضارتها . لقد استجابت النخبة المسلمة المثقفة في الهند بالتعبير عن كبريائها ممثلا في نقطتين اساسيتين ، حيث تمخضت الصلات بين الاسلام والغرب عن تفوق عسكري وتأثير ثقافي : اسبانيا في العصر الوسيط والامبراطورية العثمانية .

هذا الفخر بالميراث المشترك الذي يتقاسمه المسلمون الذين يدينون بالولاء للسدة العثمانية كان يحفزهم لاعتماد الاتجاه التركي ، خاصة حين بلغ الذروة مع ظهور حركة الخلافة حوالي سنة 1920 بيد أن الحضارة الغربية كانت تتحداهم بما تبنته من نزعات تحريرية متسامحة . فاصبح من العسير على المثال الذي كانت تضربه تركيا في القرن التاسع عشر أن يكون جوابا نفسيا شافيا . وبديهي أن النزعة الانسانية التي تتسم بها الحضارة الاندلسية والتي اقر النزهاء من المستشرقين الغربيين بسموها وتفوقها على المجتمعات الغربية آنذاك بما لها من ايادي بيضاء في خلق القيم الفكرية والانسانية كانت تخفف بلا مراء من وطأة الحرمان الذي يستشعره المسلمون الهنود في القرن التاسع عشر . والمسلمون في هذه البقاع يذكرون بمزيد الفخر الصلات التي كانت تشد بين الاندلس واوربا المسيحية ، على خلاف المعاملات التي كانت قائمة بين اوربا والعالم الاسلامي في القرن التاسع عشر . لقد حمل المجتمع الاسلامي مشعل المعرفة وقدمه للمجتمع المسيحي الذي كان يتخبط في دياجير الجهالة والامية . والمسلمون في الهند لا يفوتهم، وهم يكتبون عن الفردوس المفقود ، أن يبرزوا هذا هذا الوضع المثالي وان يشيروا الى ما عهد في العرب من نبل وتسامح وما امكنهم ان يحققوه بفضل ذلك من منجزات فنية في غاية الابداع وما لعبوه من دور طلائعي في صيانة الفكر الاغريقي وتنميته وتقديمه الى الغرب سائغا مكينا ، وما تركوه من منشآت بلغت قمة الاتقان والجمال ، كما يعقدون مقارنات بين الاخلاق والمكاسب العربية وما دونه التاريخ عن حركة الاسترجاع التي حشد لها المسيحيون كل امكانياتهم من تعصب وتزمت ومغالاة في العنف مما ادى الى الاجهاز على مظاهر الحضارة الاسلامية في اسبانيا . ولم تسلم النخبة المسلمة في الهند وهي تتلقى على يد الانجليز قيم الحضارة الغربية ، من انتقادات المستشرقين ومجادلات المبشرين . هذا الى وقوف الغربيين موقف المتفوق على صعيد الجنس والثقافة . فكانوا يتعزون بالذكريات الجميلة التي يحتفظون بها عن دولة الاسلام بالاندلس فلقد كانت مركز اشعاع في اوربا طوال القرون الحالكة التي مرت بها .. وفي

المعركة التي خاضها المسلمون فى الهند لاثبات الذات ، صرفوا عناية بالغة للتأكيد على النزعة الانسانية التي كانت السمة الغالبة على الثقافة الاسبانية العربية مشيرين الى الاشواط التي قطعتها الاندلس فى التقدم الاجتماعي حتى انها اشركت النساء العربيات في المهن الجليلة كالطب مثلا .

هناك ايضا اتجاه سياسي نفسي آخر دفع بالمسلمين فى الهند الى اعتماد المثل الذي خلفته بالاندلس ، ومرد ذلك يعزى الى ان المسلمين فى الهند قد انتابهم ، وهم على ابواب تاسيس نظام ديمقراطي فى البلاد ، شعور عارم بالخوف على مستقبلهم الاقتصادي والسياسي لانهم يشكلون اقلية ضئيلة وسط الاغلبية الساحقة من الهنود الذين لا يدينون بدينهم . واذا كانوا قد حكموا شبه الجزيرة الهندية مدة سبعة قرون او يزيد ، كما فعل الاندلسيون من قبل ، فهل ينتظرهم نفس المصير ؟ بيد انهم لم يفطنوا لاوجه الشبه القائمة بينهم وبين المسلمين فى اسبانيا الا بعد ذلك بكثير ... ونما هذا الشعور لدى المسلمين بطيئا ولكنه مد جذوره الى الاعماق . والواقع ان الخوف الذي كانوا يستشعرونه من الانصهار فى بوتقة الاغلبية الهندية مع ما يستتبعه من انسحاب من المسرح الثقافي قد هيمن على الفكر السياسي والديني فى الهند الاسلامية منذ ارساء قواعد الحكم الاسلامي بدهلي فى بداية القرن الثاني عشر . بيد ان استيلاء الهنود ، وعددهم كثير ، على دواليب الحكم فى القرن العشرين قد عمق وعي المسلمين بالشبه الموجود بينهم وبين اخوانهم الاندلسيين واسهم فى تعزيز حركة الانفصال الاسلامية فى الهند الحديثة لتأسيس دولة باكستانية مستقلة .

عزيز احمد : لندن

تعريب : عبد الرحمن بنعبد الله : الرباط



وثائق اندلسية حول :

العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)

للوزير لسان الدين ابن الخطيب
تحقيق د. محمد كمال شبانه

(3)

تقديـــم

في هذا العدد نقدم الى الباحثين والمهتمين بتاريخ المغرب والاندلس مجموعة من الوثائق الاندلسية التي توالي نشرها على صفحات « دعو الحق » الغراء، من كتاب « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » لمؤلفه المؤرخ الوزير لسان الدين ابن الخطيب ، مخطوط الاسكوريال (الغزيري 1672) .

وهذه الوثائق الاربع تشكل في مجموعها كنه العلاقات التي كانت تربط يومئذ بين مملكتي بن الاحمر وبني مرين في هذه الفترة ، والتي تميزت بالمودة والصفاء ، ولا ادل على ذلك من ان الشان بينهما لم يكن قاصرا على المعونات العسكرية والمادية ، وخاصة تلك التي كانت تتوالى من بني مرين على مسلمي الاندلس ، وانما كانت هناك سفارات بين المملكتين تبودلت فيها الهدايا ، فتوثقت العلاقات ، وزادت الاواصر ارتباطا ، وهذا ما يلمسه الباحث من خلال هذه الرسائل التي نقدمها اليوم ، والتي اشتملت في نفس الوقت — عموما — على الالمام باخبار الاندلسيين، ومدى موقف نصارى الشمال منهم في كافة الشؤون .

هذا وقد اجتهدنا — جهد الطاقة — في تاريخ ما لم يرد من هذه الرسائل غير مؤرخ ، استنادا الى بعض المواقف التي تشير الى حادث معين او واقعة خاصة ، غير ان بعضها تعذر تاريخه لكون الرسالة قد استغرقت التنويه بالعلاقات بين الدولتين والاشارة بالهدية التي صحبها السفراء ، وعلى اي حال فالمقطوع به ان المكاتبات هذه كانت بين السلطان يوسف الاول ابن اسماعيل بن نصر ابن الاحمر ، وبين معاصره بالمغرب السلطان ابي فارس بن ابي الحسن المريني .

وفيما يلي نقدم هذه الوثائق ، التي هي ختام ما ورد منها في كتاب ابن الخطيب « كناسة الدكان » وبهذا ينتهي تحقيقه ، ونسدي — بهذه المناسبة عميق الشكر والتقدير الى مجلتنا (دعوة الحق) التي افسحت صدرها لهذا التراث العزيز من تاريخ امجادنا العرب ، خدمة للثقافة ، وتشجيعا للباحثين . وفق الله القائمين بالامر في المجلة الى السداد ، وجزاهم خيـــرا .

الوثيقة الاولى

وكتب اليه جوابا (1) عن جمال مختارة كثيرة العدد ، بعث بها اليه هدية ، رحمهما الله :

« المقام من مواهبه الابل الهادرة ، والبدن المسارعة الى داعي الله المبادرة . فمناقبه المناقب الفاخرة ، ومكارمه في ضمنها الدنيا والاخرة . مقام محل اخينا الذي ان وهب احتفل ، وان اعتمد في الله كفى وكفل ، فجلاله في حلل المكارم قد رفل ، وشهاب سعده من بعد الشروق ما افل ، السلطان الكذ (ابي عنان فارس) ، ابن السلطان الكذ (ابي الحسن علي)، ابن السلطان الكذ (ابي سعيد المريني) . ابقاه الله

1) ذكرت بالريحانة في 1 . ولم ترد مؤرخة ، ويحتمل تاريخها خلال عام 1352 م

ومبراته فروض مودات ، وحقوقه مقدمة جبرات ، وسيوفه هندية وعطاياه هنديات ، ولا زال تفخر منه في النصر على اعداء الله عدات ، وتصرح دينه منه جنود منجدات . معظم قدره ، وملتزم بره ، المطنب في حمده وشكره ، فلان (السلطان يوسف الاول ابن الاحمر) .

سلام كريم ، بر عميم ، (45 : 1) يخص مقامكم الاعلى ، ومثابكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله مطرز صحائف الاعمال بالوسائل البرة ، ومروض رياض الامال بسحائب النعم الثرة ، الذي وضع عدله في الدنيا والاخرة قسطاس الجزاء فلا يضيق مثقال الذرة ، معود هذه الجزيرة ، من اوليائه الكرام السيرة، لمن يتعاهدها بالامداد والارفاد، في القديم والحديث من الامال المرة بعد المرة ، ويعامله فيها برعي المصلحة ودرء المضرة ، فثغورها تبتسم عن الثغور المفترة ، وتجيل عليها راح الانباء السارة راح المسرة . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله مؤمل الانفس العائذة وملجأ الاكف المضطرة ، الذي بالتواصل في ذاته تستجلى سعادة الحال والمآل رائقة الغرة ، وتقبل وجوه العناية الالهية متألقة الاسرة . والرضا عن آله واصحابه واولي السجايا الكريمة والفضائل العميمة والنفوس الحرة . والدعاء لمقامكم الاسمى بالسعادة الدائمة المستمرة ، والنصر الذي تمضي نصله في عدو الله ايدي القدرة ، ولا زال عز ملككم يمهد سبل الجهاد والرباط والحج والعمرة ، ويوضح خطبه في خط الدفاع عن الدين اشكال النصرة، ويقتضي لغريم الاسلام دين ما وعد الله من الكرة — فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم من حظوظ السعد اوفرها ، واقطعكم من جوانب الصنع ايتعها وانضرها ، وتولى (45 : ب) صنائعكم الجميلة فشكرها — من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، والثناء عليكم يستغرق اوقات الزمان آصالها وبكرها ، وفضائلكم هي الشمس ضل من انكرها .

والى هذا — وصل الله علاكم ، ونشر بالنصر على اعداء الله لواءكم — فاننا نعرف جناب اخوتكم السلطانية — بعد تقرير الشكر وتمهيد البر — بورود الهدية الغريبة السافرة عن يمين النقيبة ، وفضل الضريبة ، هدية الجمال — اللابسة اثواب الجمال والقلاص ، التي اصبحت — بحمل ازواد اهل الجهاد — ذات اختصاص ؛ فلقد طلع منها على هذه البلاد المباركة ركب ، له في العتاقة والاصالة مجال رحب ، من كل نجيب نجيب ، ماثل في المرأى العجيب . وكوما — الى الانساب العربية — ذات انتماء ، كأنها اهلة حلك ، او قسي من دائرة فلك. سفائن بر ، وخزائن قانع ومعتر. وكيف لا يسنح لها باليمن طير ، ويكون لها في مجال السعادة سير ، والله عز وجل يقول : « لكم فيها خير » (1) .

اذكرت اهل هذه البلاد ايام العج والثج (2) وصيرت طريق الجهاد كطريق الحج . ترغو فتجيبها الصواهل (3) وتعرض عن الماء فتشتاق اليها المناهل. ووصل مؤديها فلان ، وهو الخبير بجزئياتها ، والحافظ لمعاني آياتها ، ومن انس بجوارها ، وطرب بجراتها سمعه ، واتسع لمعرفة احوالها ذرعه ، وكان امله ان يقدم بها على حضرتنا ابلاغا في المبر (... (4)) (46 : 1) الا اننا راينا ان نعفيها من السفر ترفيها ، ونرفع عنها من توعر الطريق ما نتوقع أن يؤثر فيها ، ونتركها بفحص ملقا — حرسها الله — في مسرح يخصبها عشبه ، ويرويها شربه ، الى أن نشاهدها بالعيان ، ونعطي حروفها من الخطابة عليها ما يقتضيه علم البيان .

ونحن نقابل مقاصدكم الفاضلة بالثناء والاستحسان ، ونشكر ما لاخوتكم الفاضلة من المزايا البرة والسجايا الحسان . والله تعالى يصل لكم سعدا وثيق البنيان ، ويعلي بمظاهرتكم ايانا شعار الايمان . وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم والسلام.

---

1) اقتباسا من قوله تعالى : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون» سورة الحج ، آية 157 .

2) العج والعجيج ، وكلاهما بمعنى ، وهو رفع الصوت بالصياح ، والثج : القطع . ويقصد : ايام الفتح الاول وما كان فيه من شق الطرق بمثل هذه الابل ، وربما اراد اي غزو سبق للمسلمين في هذه البقعة ضد جيرانهم النصارى .

3) الخيل .

4) محو .

الوثيقة الثانية

ومما كتب به عن المذكور (اي الحجاج) الى المذكور (ابي عنان) — قدس الله ارواحهما — صحبة بزاة على سبيل المهاداة ، ما نصه (1) :

المقام الذي لا يغفل عن بره واجب مفترض ، ولا يقدم على الشيع فيه غرض ، مقام محل اخينا الذي له القدر السامي والرفد الهامي ، والعزم السعيد المرام البعيد المرامي ، السلطان الكذا (ابى عنان فارس) ، ابن السلطان الكذا (ابى الحسن-علي المريني) . ابقاه الله كريم الخلال رفيع الجلال ، مبلغا من فضله اقصى الامال . معظم قدره ، وملتزم بره ، القائم بواجب حمده وشكره ، العارف باصالة حسبه وكريم نجده ، فلان (السلطان يوسف الاول ابن الاحمر) .

اما بعد حمد الله على آلائه الوافية ومننه الكافية، والطافه الظاهرة والخافية . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ذى المعجزات البادية ، والايات الهادية. والرضا عن آله واصحابه اولى المكارم الباقية ، والاعمال الصاعدة الراقية . والدعاء لمقامكم الاسمى بالعناية الضافية ، واتصال النعم الصافية ، ودوام اليسر والعافية ، فانا كتبناه (39 : ب) اليكم — كتب الله لكم من الخيرات اوفرها نصيبا ، واثبت لكم (فى عزه) (2) السداد سهما مصيبا ، وخول ملككم الاسمى فى اعداء الله صنعا عجيبا ، وهيأ له من لدنه نصرا عزيزا وفتحا قريبا — من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وعندنا من التعظيم لجلالكم ما لا يزال متصل الدوام على توالي الايام ، ومن التشيع لمقامكم آيات ثابتات الاحكام ، والامال واضحات الاعلام .

والى هذا — ايد الله امركم واعز بتأييده نصركم — فاننا بمقتضى الود الذي رسخت قواعده ، ووضحت شواهده ، وتساوى غائبه وشاهده — لا نزال نسأل عن احوال مقامكم الرفيعة مصاعده ، ونلتمس ما نستفتح به ودكم الذي اتضحت فى الفضل مقاصده ، وكنا تعرفنا فيما سلف من الايام ان لملككم اهتماما بجوارح الصيد من الطير ، عملا على شاكلة الملوك الكبار ، فى تنويه الملك الرفيع المقدار ، والاستزادة من آلائه والاستكثار ، وجعل المباح موضوعا لملاذه حسبما يحققه الاعتبار ، فصرفنا وجه النظر الى ما يوفد من ذلك على بابكم ، ويتحف به على جنابكم ، ووجهنا الى ما نأى من البلاد الرومية فى هذا الفرض المروم ، وكلفنا ذلك من يقوم من خدمتنا فيه بالحدود المرسوم، واختيرت لنا منها جملة كافية ، وعدة بهذا القصد وافية ، من الجرافين (40 : أ) والبزاة وغير ذلك . ولما اقتحمه جاليها من هول البحار ، وما عارضها من اختلاف الطعام — وغوائل الاسعار ، هلك معظمها قبل وصوله وبعده ، ولم يخلص منها ، الا من استشعر منها قوة زائدة وشدة ، وتاخرت منه لكي يحظو بخدمتكم المدة ، وهي ما يصلكم على يدي بازيارنا (3) الخديم فلان . ومجدكم يلقى ذلك بالقبول الذي يليق بفضله ، والاغضاء الذي لا ينكر على محله . فيعلم الله ما عندنا من البر الموصول لذلك الجلال ، والثناء على ما له من كريم الخلال ، والعمل على ما يوافق اغراضه فى كل الاحوال . ولنا تشوف الى احوال مقامكم الذي فى تسني عافيته منتهى الامال ، فان بفضل اطلاعنا على ما يسر من ذلك بمقتضى الافضال ، فذلك مما نعده من غرر الاعمال ، ونحسبه من عيون ما له من الاجمال . والله تعالى يصل له اسباب السعادة الضافية الاذيال، والعافية الكفيلة بتمهيد الحال (4) . والسلام .

الوثيقة الثالثة

رسالة صادرة من ابي الحجاج يوسف الاول ، الى ابي عنان فارس المريني . جوابا على رسالة من هذا الاخير ، كان قد بعث بها الى بلاط غرناطة صحبة خيول عديدة مجهزة ، على سبيل الهدية ، وينتهز ابو الحجاج هذه الفرصة فيطلع صديقه ابا عنان على الشؤون والعلاقات السياسية مع قشتالة . وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، بيد ان تاريخها يحتمل ان يكون عام 1352 م .

ومن ذلك مراجعة عنهدية جليلة ، تشتمل على خيل عديدة مجهزة ، ولم يوصل من اداها مخاطبة بما نصه (5) :

---

1) هذه الرسالة ذكرت فى الريحانة . ويحتمل تاريخها خلال عام 1352 م .
2) في الاصل « في نقرة » فلعلها كما اثبتناها .
3) البازيار : مربي البزاة .
4) فى نسخ الريحانة الثلاث « المال » بدل « الحال» وكلاهما مناسب .
5) ثبتت الرسالة ايضا فى نسخ الريحانة الثلاث ، كما وردت — فى كل ذلك — غير مؤرخة .

«المقام الذي يهب الجياد عرابا ، ويرسلها اسرابا ، ويصل للامداد اسبابا ، ويكدح للعزم شهابا . مقام محل اخينا الذي نؤمل منه ظهيرا مدافعا ، ونصيرا لاعلام الملة رافعا ، ونستوكف من غمام عزماته السامية القتام ريا نافعا ، السلطان الكذا (أبي عنان) (40 : ب) ابن السلطان الكذا (ابي الحسن) ، بن السلطان الكذا (ابي سعيد) ، بن السلطان الكذا (أبي يوسف) ، بن عبد الحق . ابقاه الله وهباته جزيلة ، ومقاصده في الاسلام جميلة ، ومظاهرته لا تخيل فيه للدين مخيلة . معظم مقداره الكبير ، المثنى على فضله الشهير ومجده الاثير ، الامير عبد الله يوسف ، بن امير المسلمين أبي الوليد اسماعيل ، بن فرج ، بن نصر . سلام كريم ، طيب برعميم ، يجعله البدر تاجا فوق جبينه ، ويحمل منه الفجر الصادق لواء بيمينه ، يخص المقام الاعلى ، ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله فاتح ابواب السعادة لمن تمسك بطاعته ، وموضح اسباب نجح الارادة لمن افرده بمقام رغبته وضراعته ، جاعل التواصل في ذاته علاجا يتكفل بصلاح الاحوال في حينه وساعته . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ضامن حسن المآل ، وعقبى الظفر بالآمال لمن تعلق بسنته وجماعته ، وعقد بجاهه المكين اكف طاعته . صاحب الحوض المورود ، واللواء المعقود . المجير بوسيلته المنقذ بشفاعته . والرضا عن آله واصحابه واحبابه واحزابه ، الذين انفوا لدينه الحق من اهماله او اضاعته ، وكلفوا باظهاره واعلانه واشهاره واذاعته . والدعاء لمقام اخوتكم السلطانية بالسعد الذي يخدمه خطى الكتائب بسنانه وخط الكتب ببراعته ، والصنع (41 : أ) الذي يقوم الوجود لابنائه المبشرة بحق اشاعته ، ويعمل فيه البيان جهد استطاعته . فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم سعدا تسطر في نصر الاسلام جمله ، ونصرا يدنو به للدين الحنيف امله ، وعزا تبدو به سروره وجذله — من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وودكم — في ذات الله — لاحبة سبله ، واخوتكم — لمحض هذا التشيع — ضافية حلله .

والى هذا — وصل الله قبلك سوابغ الآلاء ، وحرس ما لاخوتكم الفارسية من العلاء — فمن المعلوم عادة وشرعا ، والذائع الذي ليس نكرا ولا بدعا ، ان الهدية وان كانت سماؤها رذاذا ، وحسناتها افذاذا ، تستخلص ضمائر المودات ، وتزكي نقود الاذمة المعتقدات . فكيف اذا كانت جيادها عتاقا ، وجردا تستبق الصريخ استباقا ، ومذاكي ملأ الشموس منها احداقا ، واتلع (1) العجب لها اعناقا . والنا وردت علينا هديتكم التي عنيت بدالة الحسن عن خطاب يلتمس لها اذنا ، وكتاب يزيدها حسنا . من كل جواد يرد ماء الشبيبة ري جواد ، ويقتضم حب كل فؤاد . تود الاهلة ان تكون لها سروجا ، وخضراء السماء ان تصير لمرحها مروجا . وترتاح الى الجهاد في سبيل الله اعطافها ، وتكلف بسورة الانفعال اعرافها . فيالها من كتيبة اغنت عن الكتاب ، وطليعة انس من الاعتاب بعد العتاب ، (41 : ب) كان خضرها غمس في ماء الشباب ، وحمرها استرفد صبغ الانامل المطرفة بالعناب . فبرز الى مشاهدتها النظار ، وسارت بوفادتها الاخبار ، وسر المسلمون له وسيء به الكفار . وكيف لا تنتظم بها للبشرى عقود ، وتحسب اكف الامل بيسر منقود ، وقد اخبر الصادق — عليه السلام — ان الخير في نواصيها معقود (2) . ولما مثلت لدينا تلك الجياد ، والروض الذي صدق فيه الارتياد ، وآن ان يهتز فوق ادواحه الاسل المياد ، وعينا لها في الحين المواقع التي رجحتها الاجتهاد ، واقتضاها الارتباط في سبيل الله والاستعداد . قابلنا الهدية بالثناء والاستحسان ، وقلنا لا ينكر الوابل على الغمام الهتان ، والفضل على مثابة من مثابات العدل والاحسان . الذي تروق فوق اعطاف الاسلام منه الخبر ، بما صرف الله اليه عزمكم من تجديد ما درس ، واحيا ما انفج سلفا واقترس ، من الاساطيل السابحة ، والتجارة الرابحة ، والاعمال الباقية الصالحة . وان الانشاء قد استدعى اليه الخلق ، والعزم تبلج منه الصباح الطلق ، وشيم منه البرق وذهب الفرق . فلا تسألوا عن موقع هذه الانباء من صديق بعدها فضلا من الله ومنا ، وعدو يسيء بها ظنا . فلكل منها شرب معلوم (3) ، وحظ مقسوم ، جعله الله قصدا نجحه محتوم ، وعوضه (42 : أ) بمناصحة الله والمسلمين مختوم . وحضر بين يدينا مؤدي الهدية السنية خديمكم فلان ، والقى — من مقاصدكم

1) اتلع : مد عنقه تيها وفخرا وتطاولا ، واسم الفاعل منه بوزن محسن ، وهو الرافع راسه للنهوض . كذا في اللسان .

2) الحديث : « الخيل معقود في نواصيها الخير » .

3) اقتباسا من قوله تعالى : « قال هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم » سورة الشعراء ، آية 154 .

الجميلة ، واغراضكم الاصيلة ، ومواعيدكم الكفيلة — ما اغرينا لسان الشكر باقسامه ، واقبلنا مرآة البر مشرق قسامه ، وحملناه من تبريز مثله ما يفي — ان شاء الله — باتمامه .

وان تشوقتم الى اخبار النصارى فلم يزد — بعد ما تقدم به اعلامكم — الا ان طاغيتهم راى ان يعاجل من اخوته من له ببلاد المسلمين اتصال ، وفى الاستبصار بهم مصال ، وليكون منه لما سوى ذلك ممن يستدرك امره بعد الوقت اغفال ، فطوى المراحل ونازل اخاه « المشر » ، صاحب قنطرة السيف بمدينة شقورة(1)، واقام عليها ثمانية ايام ، بين قتال لم يجد مع منعة المدينة معنى ، ومرام صلح ابي الله ان يتسنى . واتصل به عياث من خلف وراء ظهره فى ارضه ، وهلاك بعضه ، والحمد لله ببعضه . فارتحل عن منزله الذي نزله ، وكر ادراجه ولم يبلغ امله .

هذا ما عندنا فى شانه ، وما يتزيد تعرفكم به لمكانه . ونحن على ما يجب لاخوتكم من التعظيم والاجلال ، والثناء بما لكم من الشيم الكريمة والخلال، وهو سبحانه يبلغ الجميع من مرضاته غاية الآمال ، فهو ولى الاجابة وملجأ السؤال ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله .

الوثيقة الرابعة

رسالة من السلطان يوسف الاول ، الى ابي عنان فارس . يشكره فيها على هديته التي كان قد بعث بها من المغرب ، صحبة سفارة خاصة فى هذا الشان ، ذات رسالة حول هذا الموضوع . وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، ولكن يحتمل تاريخها فى اواخر عهد ابي الحجاج سلطان غرناطة .

وكتب فى مراجعة هدية حافلة ، تشتمل على خيل وعدة من مهندات ومهاميز ومال عين ، بما نصه (2) .

« المقام الذي من سجاياه الشيم العلى ، ومن عطاياه الجرد العتاق تختال فى الحلى ، وتحاسين عقبان الحق وغزلان الفلا ، والاموال التي جلى روض الجود من ازهار صفرائها للوجود ابهى مجتلى . مقام محل اخينا الذي قسم زمانه بين رفد مقسوم، ووعد بالصدق موسوم ، وفضل فى صحف المجد مرسوم ، السلطان الكذا (ابو عنان) ، بن السلطان الكذا (ابي الحسن) ، ابن السلطان الكذا (ابى سعيد)، بن السلطان الكذا (ابي يوسف يعقوب) ، بن عبد الحق . ابقاه الله عالي الهمم ، متوالي الجود والكرم ، تجمع يمينها من سيفها المرهوب،وسيبها الموهوب بين الري والصرم،وتامن النفوس — فى ظل عدله الممدود، وفضله المقصود— من حمام الحرم. ولا زال ثناؤه فى الخافقين كنصرة خافق العلم ، واخبار (58 : أ) عزه المأثور ، ومجده المشهور ، متجرى اللسان والقلم ، وانوار سعده ماحية للظلم ، وعزما سيوفه ترتقب فى (... (3)) السلم . معظم اخوته الرفيعة ، المثنى على ماله من كرم الصنيعة ، المستند — من التشيع اليه والاعتداد به — الى المعاقل المنيعة ، فلان (السلطان ابو الحجاج يوسف الاول ابن الاحمر).

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الاسمى ، ورحمة الله وبركاته . اما بعد حمد الله الذي جعل الشكر على المكارم وقفا ، ونهج منه بآرائها سبيلا لا تلتبس ولا تخفى ، وعقد بينه وبين المزيد سببا وحلفا ، وجعل المودة فى ذاته مما يقرب اليه زلفى . مربح تجارة من قصد وجهه بعمله ، ومبلغه من القبول اقصى امله ، حتى ترى الشيء ضعفا والواحد الفا ، وناصر هذه الجزيرة من اوليائه الكرام السيرة بمن يوسعها فضلا (و ... (4)) ، ويدني ثمار الآمال تتمتع بها اجتناء وقطفا . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذي مد من الرحمة على الامة سجفا ، وملا قلوبها تعاطفا وتعارفا ولطفا ، القائل : من ايقن بالخلف جاد بالعطية ، ووعد من عامل الله بربح المقاصد السنية ، وعدا لا يجد فيه خلفا . والرضا عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده للاسلام كهفا ، وعلى اهله فى الهواجر ظلا ملتفا ، (58 : ب) غيوث الندى كلما شاموا سماحا ، وليوث العدا كلما شهدوا زحفا . والدعاء لمقام اخوتكم الاسمى بالنصر الذي يكف من عدوان الكفر كفا ،

---

1) بلدة موقعها شمال شرق ابده ، وشمال غرب جبال شقورة ، وقد كانت زمن العرب من اعمال ولاية جيان ، وتسمى اليوم بالاسبانية (Segura de Sierra) مراجع : الاحاطة ج 1 ص 179 « عنان » .

2) لبتت الرسالة فى نسختي الريحانة ا ، ج .

3) طمس فى الكناسة ، وفى الريحانتين « وعزما سيو فه ترتقب فى القضا اثر السلم » .

4) طمس ، وفى الريحانتين « وعطفا » .

والعز الذي يفض من الشرك ناظرا ويرغم منه أنفا ، والمجد الذي لا يغادر كتابه من المفاخر التي ترد الاول للاخر حرفا ، والعزم الذي يفيد جوارح الاسلام قوة لا تعرف بعضها ضعفا — فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم نصرا خافقا علمه ، وسعدا يتبارى في ميدان الاستقلال — بحسب وظائف الاعمال — سيفه وقلمه ، وصنعا تجلى به عن افق الدين الحنيف ظلمة ، ويشفي بعلاجه الناجع المه ، وشكر — عن هذه البلاد — جودكم الذي وكفت ديمه ، وابقى عليها وجودكم الذي زلفت شيمه — من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، والتشيع فيكم لا يعرف النسخ محكمه ، ولا يقبل الالتباس معلمه .

والى هذا — شكر الله عن الاسلام صنائع مقامكم ، وعرفه عوارف العز في غرر أيامكم — فاننا وصلنا كتابكم الكريم الوفادة ، العظيم الافادة ، مصحبا بالهدية التي صحبها الكمال ، وصدقت في احتفائها واحتفالها الآمال ، واشتملت على نكايتي العدو وهما الخيل والمال . فكأنه كان لواء نصر خفق أمام كتيبة ، ونسيم زهر عبق (59 : أ) عن روضة عجيبة . ويا لها من هدية اتخذ الناس يومها عيدا ، وموسما سعيدا ، وعزم رآه العدو قريبا وكان يحسبه بعيدا (1) . نتيجة الهمة التي تقف الهمم دون مداها ، وتستقري الغيوث مساقط نداها ، والشيم التي ترى العواذل في الجود من عداها ، فلو خير المجد لما تعداها . وقفنا من مضمنه على لجة جود للسان فيها سبح طويل ، ومحجة فضل للاقلام فيها نص وذميل ، من كل طرف وسم بالصباح منه جبين ، ناش في الحلية وهو في خصام الحرب مبين (2) ، من اشهب للشهب فارع ، ولا حراز الغايات مسارع ، حاسر في شكل دارع ، كانما خلعت عليه البزاة البيض صدورها ، وقلدته الكواكب شذورها . واشقر عسجدي اللباس شعلة من شعلة الباس ، كان اذنه ورد في الآس ، وغرته الحباب الطافية في الكأس ، وأحمر وردي لأديم حائز في حلبة الحسن مزية التقديم ، كانما صيغ من العندم (3) ، او صيغ بالرحيق المقدم . يحسده الاسد الورد في لونه ، وتدعي الريح أنها مادة كونه ، وكمت (4) ما في خلقه من امت ، كانه قطعة من الغسق ، خالطت دهمتها حمرة الشفق ، وقرطاس كانه درة ، سمح استحسان الغرر فجاء وكله غرة ، افق الفجر وسرجة هلاله ، وخالص الدر وسدفة جلاله (59 : ب) وادهم زنجي البزة ، مرتد الباس والعزة . كان العيون النجل نفضت عليه سوادها ، والغصون الملد علمته انشاءها وانقيادها . وكل صامت ناطق متصف بزينة معشوق ، ولون غاسق مربني المنتمى والضرب ، عدة في السلم والحرب ، قامت قيامة العدو لطلوع شمسه من الغرب . اشبه شمس العالم في استدارة قرصه وانتقال شخصه ، واعتدال طبعه وعموم نفعه . تعشو عيون الاماني الى ضوء ناره ، وتدور فراش المطامع حول انواره ، وتحوم محل الآمال على نواره . وكمل صقيل الفرند ، منسوب الى الهند ، يخطب من الكلام بمقتضى به ، ويضحك في الروع عند غضبه . ومن الآلات كل مائلة في المراى الجميل ، مغض همزها للتسهيل . فمن للسان الشكر ان يوفي حقا ، او يهتدي في هذه البيداء طرقا . انما نكل الشكر لمن سمحتم بذلك المدد في سبيله ، واملتم فيه موهبة قبوله . فما هي — في — التحقيق — الا كتائب للعدو جهزتموها ، ومواعيد نصر انجزتموها ، ومناقب اسلاف جددتموها واحرزتموها .

وحضر لدينا رسولكم فلان ، فالقى من القول الذي صدقه ، واللفظ الذي شرحه المجد والفضل ، ما اوثق اسباب الآمال ووصلها ، واحرزها وحصلها ، وقرر قواعد الاعتقاد واصلها . (60 : أ) وقد رايتم بالاستقرار الصريح والنظر الصحيح ، ما اثمر اعتناؤكم بهذا القطر المتمسك باسبابكم ، المعتمد على جنابكم ، من صلة نصركم ، واعزاز امركم ، واتساق سعدكم ، واسعاف مقصودكم . فاشكروا الله الذي اجرى الخير على يديكم ، والهمكم لما يحفظ نعمه الجزيلة لديكم ، ويضفي ستر عصمته عليكم . وكتبنا اليكم هذا الكتاب ، فلولا ان حمرة مثله معتادة — حسبما اقتضاه

1) اقتباسا من قوله تعالى : « انهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا » ، سورة المعارج ، آية 6 ، 7 .
2) اقتباسا من قوله تعالى : « او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » . سورة الزخرف آية 18
3) العندم : دم الاخوين ، كذا في اللسان .
4) ج الكميت وهو الخيل بين الاسود والاحمر ، قال ابو عبيد : ويفرق بين الكميت والاشقر بالعرف والذنب ، فان كانا احمرين فهو اشقر ، وان كانا اسودين فهو الكميت ، وهو تصغير اكمت على غير قيس ، والاسم : الكمتة .

عرف وعادة (1) ــ لقلنا خجل من تقصيره فعلته حمرة الخجل ، لما ضاق عن مراده ذرع المروى والمرتجل ، لكن على اغضاء ذلك المقام المعتمد ؛ فهو الذي يعد منه ــ في الفضل ــ الامد . والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام » .

« الى هنا انتهى ما الفى من المبيضات التي كتب (ت) بها عن السلطان ابي الحجاج رحمه الله ، ما عدا الثابت فى السفر المسمى بالسلطانيات » (2) .

حققه : الدكتور محمد كمال شبانه

جامعة القاهرة فى 15 مايو 1968 م

* * *

---

1) يستفاد من هذه الاشارة ان الرسائل السلطانية كانت تكتب باللون الاحمر ، وغالبا ما كان المداد لذلك من الزعفران والورس .

2) يغلب على الظن انها عبارة الناسخ .



أزمة المدفوعات

بين المغرب والبلدان الاسكندنافية

في القرن الثامن عشر

للأستاذ عبد الحق حوش

ترتبط هذه الازمة بالوضعية ، القانونية والسياسية ، التي كانت عليها البحار يومذاك . فالى زمن جد متأخر ، بقي التنظيم القانوني للبحار ضيقا ، محدود المدى بين البلدان المتجاورة . غير ان اتساع النشاط البحري ـ في الحرب والتجارة ـ عمل على ظهور فكرة قانون موحد يتعدى نطاق الاقاليم المتجاورة وذلك اما عن طريق اتفاقية دولية عامة ، او بتعديل الانظمة الاقليمية ، حتى تتسع لمصالح جميع الدول . لقد نشأ عن هذا التبدل اكثر من نزاع . وتدخل ازمة المدفوعات الاسكندنافية للمغرب في هذا الاطار .

لم يكن بد من أن يتأثر المغرب بوضعية البحار دوليا ، وذلك باعتباره بلدا يطل على المتوسط والاطلنطي . واذا كانت البحرية المغربية قد عرفت عصورا زاهرة خلال القرن الثاني والثالث عشر ، فان الفتور الذي اعتراها بعد لم يبلغ بها درجة الانقطاع . هكذا بقيت تمارس نشاطا محدودا حسبما يتوفر لاهلها من نزوع الى المغامرة ومحبة في الكسب ، خصوصا بعد ما اتضح من اهمية مجالها في ربط الاطلنطي بالبحر المتوسط .

انه ليبدو غريبا ـ والحالة كما وصفنا ـ ان ينطبع المغرب في اذهان الاوربيين بخطورة بحرية يضطرون معها الى اداء « اتاوة » ضمانا لسلامة مرور سفنهم . ولعل هذا الامر يتضح قليلا اذا لاحظنا ان البحرية التركية ، في باقي شواطيء الشمال الافريقي القت على البحرية المغربية كثيرا من الظلال . . . وجعلت الاوربيين ينظرون اليها بشيء من المبالغة .

في سنة 1763 م ، ابرم المغرب ـ باسم السلطان المولى محمد بن عبد الله ـ معاهدة سلم وصداقة مع مملكة السويد (ادولف فريديك) . وقد صيغت هذه المعاهدة في ثلاثة وعشرين بندا تناول معظمها حرية التجارة بين البلدين . ثم الحق بها اتفاق آخر التزمت السويد بموجبه ان تقدم للمغرب ، كل سنة ، مقادير معلومة من غبار السفن والذخيرة والسلاح . وهناك معاهدة اخرى ابرمت في فاس عام 1803 م وقعها باسم البلدين : القائد الحاج عبد الرحمن العشاش ، وقنصل السويد (ويجيك) . وقد عدلت في ايام المولى سليمان بان يؤدي السويد مقدار 20 000 بياستر كل سنة عوضا عن المعدات التي اتفق عليها في المعاهدة الاصلية .

وفي سنة 1767 م ، اقام السلطان المولى محمد ابن عبد الله معاهدة سلم وتجارة مع ملك الدانمارك (كريستيان السابع) . وقد ورد فيها ان مملكة الدانمارك تلتزم بأن تدفع الى السلطان كل سنة جملة من المدافع والذخائر الحربية وبعض المواد الاولية لصناعة الذخيرة . . وغبار السفن . وقد جعل الخيار لحكومة الدانمارك بين ان يكون الدفع في شكل سلع ونقود ، او في شكل نقود فحسب ، وقدرها 25 000 بياستر . وتضمن الاتفاق انه فيما لو حدث ظروف طارئة حالت دون الاداء خلال سنة ما ، فان سلطان المغرب يحتفظ بحقه في اقتضاء تلك الواجبات خلال السنة التالية ، كنوع من الاداء المؤجل . ولابد ان نشير الى ان السويد والدانمارك لم تكونا وحدهما ملتزمتين

بأداء مقادير مالية او سلعية الى المغرب ، ذلك ان البندقية كانت بدورها تؤدي مقدار 1 800 بياستر ، وهامبورج 5 000 بياستر ، وبريم 2 000 بياستر .

لقد قبل ان هذه المقادير كانت تتوجب من غير مقابل . والحق ان هذا مجال نظر ، ذلك ان سبب ادائها ـ وهو وضعية البحار ـ ظلت حتى ذلك الوقت مسألة سياسية اكثر منها قانونية . اجل ، ظلت مسألة ترتبط بالمصالح الخاصة لكل دولة ، وتحل على اساس المؤتمرات . وقد ظل المغرب في غيبة عنها لا بحكم التحرج الذي عرفته بعض ادوارد الدبلوماسية فحسب ، بل ايضا لان الدبلوماسية الاوربية لم تكن قد تخلصت من طابعها المسيحي . فلا غرابة ان يأخذ سلاطين المغرب في معالجة هذه القضية بالطريقة التقليدية وبالتشبث بالاتفاقيات والاوضاع القديمة ، مهما تعارضت مع النظريات التي استجدها اصحاب المصلحة فيها . ومن جهة اخرى فان هذا الواقع كانت له مزاياه وفوائده بالنسبة الى من اتفقوا عليه مع سلاطين المغرب ، اذ عمل على تسهيل الملاحة وتامينها ، لا في شواطىء المغرب فحسب ، بل كذلك عبر الشواطىء التي كان لاصحابها علاقة حسنة بالمغرب ، ونعني الاتراك في باقي الشمال الافريقي .

حوالي منتصف القرن التاسع عشر اخذ بعض هاتيك الدول في الاعتراض ضد اداء المدفوعات المذكورة ، وذلك بتأثير النظريات القانونية في حرية البحار واحتجاج التجار وشركات الملاحة ؛ لقد قيل ان الامر يتعلق بتكليف لا مبرر له على التجارة . وقيل ان الامر يتعلق بخرق قواعد القانون الدولي ، كما تذرعت تلك الدول بمبدا المساواة في وجوب معاملتها نفس معاملة الدول التي لا تدفع شيئا .

والواقع ان حلول فرنسا في الجزائر (1830 م) كان ذا اثر حاسم بالنسبة الى مسالة المدفوعات هذه . لقد بدل هذا الحدث من افكار الاوربيين عن احوال المغرب ، ووجدوا انهم يبالغون في تقدير قوته . واذن فليصروا على انهم لن يدفعوا شيئا بعد اليوم !

خلال عام 1843 قرر ملك الدانمارك (كريستيان الثامن) دعوة المخزن الى التفاوض حول مسالة المدفوعات الواردة في اتفاقية 1776 . وحتى يتسع نطاق هذا المشروع اوصاه مستشاروه ان ينجز مساعيه باشتراك مع ملك السويد والنرويج . بل ذهب كريستيان ابعد من ذلك حين اراد ان يستعين بالنفوذ الفرنسي والبريطاني باعتبار وجودهما في كل من الجزائر وجبل طارق .

اما شارل الرابع عشر ، ملك السويد والنرويج ، فراى ان المشروع يكون اكثر توفيقا اذا تبنته مجموع الدول الخمس الكبرى بومذاك (فرنسا ، انجلترا ، بروسيا ، النمسا ، روسيا) . وقد تبين من المساعي والاتصالات ان الدول الاخيرة الثلاث تعطف على القضية ، غير انه يكون عمليا ان توضع القضية في طوق الفرنسيين والانجليز . وكان من راي (ميترنيخ) ان تتبنى انجلترا المسالة بنصيب اوفر ، نظرا للحالة التي توجد عليها العلاقات الفرنسية المغربية الناجمة عن احتلال الجزائر وما تلاه من حوادث في المنطقة الشرقية ... هكذا قام قنصل الدانمارك في طنجة (كارستنسن) وقنصل السويد (ارنهوف) بالمبادرة الاولى ، يعززهما تدخل القنصل الانجليزي (درامونداهاي ـ وبعده ابنه جون هاي) وسفير بريطانيا في مدريد (بولوير) وحاكم جبل طارق . بينما كانت مساعي الفرنسيين على يد القنصل (فرنسوا دونيون) . وكان وسيط المخزن في هذا الحوار هو الباشا (بوسلهام بن علي) نائب السلطان في طنجة ، والسيد محمد بن ادريس الذي كان يقوم بما يسمى اليوم وزارة خارجية ، كما شارك في المحادثات ، على نحو اقل اتساعا ، تاجر مغربي هو مصطفى الدكالي ، الذي كان ـ بحكم اسفاره ـ مطلعا على احوال فرنسا وبريطانيا .

غداة وصول كريستنسن الى طنجة ، التحق بالسيد بوسلهام في العرائش . وقدم له ثلاث رسائل باسم البلدان الاسكندنافية وفرنسا وبريطانيا . وقد جاء في الرسالة الاولى : أن القنصل يلتمس ـ وقد اعتمده ملك الدانمارك ـ من سلطان المغرب الغاء المدفوعات التي تضمنتها معاهدة 1767 ، لان التعهد الذي وقع بشأنها لم يعد مطابقا لمنافع جميع الاطراف فاذا كان قد اتى وقت رضي فيه الدانمارك بالتحمل بتلك المدفوعات فان ظروفه آنذاك لم توجب تعارضا في المصالح او اضرارا باحد الطرفين . اما الان (سنة 1844) فان الامور تغيرت ولم يعد يستفيد من تلك المعاهدة الا المغرب . ان ظروف الملاحة قد تغيرت . والفوائد التي كان ينتظر الدانمارك اجتناءها ـ سواء من حيث الابحار او التجارة ـ لم تعد متوفرة . وزادت الرسالة في تعليلاتها ان مملكة الدانمارك فقدت نصف اراضيها باستقلال النرويج ، وهذا مما يزيد في عجزها عن اداء تلك المقادير . وان كريستيان

الثامن يلتمس من عدالة السلطان وحكمته ان يستجيب الى هذه الرغبة . وانه اذ يفعل ذلك سيمكن شعب الدانمارك من الوقوف على قدم المساواة مع بقية الشعوب في هذه المسالة .

لم تصرح الرسالة بان الامر يتعلق بظلم تحملته الدانمارك عند توقيع معاهدة 1767 ؛ انما ورد فيها ان المعاهدة كانت مفيدة فيما مضى . وذلك هو الواقع فان القرصنة كانت شيئا معمولا به يومـذاك . وذات الوضعية التي كانت لها في المتوسط مثلا كانت لها في البحار الشمالية الاسكندنافية . وبالنظر الى منطق ما قبل تشبع البلدان بالاعراف البحرية يعتبر دفع الاموال الى سلطان المغرب – مقابل الحماية – حلا لا باس به . كذلك يبدو ، من اعتذار القنصل بضعف الدانمارك اثر انفصال النرويج عنه ، انه لم يطلب رفع الاتاوة كحل وحيد .. وهو لذلك ترك الباب مفتوحا لما قد يظهر من حلول اخرى .

اما ملتمس القنصل الفرنسي (نيون) فكان اميل الى اللهجة الشديدة : « ان عصرنا مشرق بحكمة السلم . وجميع الدول تجاهد لتوطيد علاقاتها الودية على اساس القانون والعدالة الدوليين . وبالنظر الى هذه الروح يبدو من الصعب على الامة الدانماركية اداء النقود الى المغرب ... » وهي لهجة تفهم سرها على ضوء احتلال الفرنسيين للجزائر وما تلاه من حوادث على الحدود ... هذا مع العلم بان الحكومة الفرنسية اوصت قنصلها « بالا يعمل على ان تكون فرنسا طرفا في النزاع » . اما ملتمس القنصل البريطاني فاكثر اعتدالا ..

في 21 ابريل تلقى كريستنسن – بواسطة محمد ابن ادريس – جواب المولى عبد الرحمن . وهو جواب سلبي كان مثار دهشة . وقد علق عليه محمد بن ادريس بان السلطان ، اذا كان لا يريد الغاء اتفاقية 1767 ؛ فان السبب هو انها اساس العلاقة السلمية التقليدية بين البلدين : ان الغاء المدفوعات لا يعني سوى الغاء تلك العلاقة ... ! وليس من المعقول ان تلتمس علاقة اخرى غير الود .

اضحى جواب السلطان مثار نشاط المثلث الدبلوماسي ، وكالعادة قال القنصل الفرنسي للسيد ابن ادريس ، ان بلاده « لن تتهاون في مباديء العدالة وقواعد القانون الدولي ؛ واسمحوا لي-يقول للوزير- ان آمل بان يكون نفس الشيء بالنسبة الى المغرب » وعقب القنصل البريطاني بانه تلقى تمنيات حكومته بقيام تفاهم بين الطرفين . اما الدانمارك فلم يؤسه جواب السلطان ،بل عاد يشرح القضية ويبرز مختلف جوانبها ذاكرا انه في الوقت الذي ابرمت فيه المعاهدة كان الاسطول الدانماركي يشمل 600 قطعة ، بينما الان لا يعدو الستين .

مهما كانت الدبلوماسية التي اختطها السلطان في هذه المسالة ؛ فلا شك انه لم يكن يرحب اطلاقا بوجود الفرنسيين ضمن القائمين بالمساعي . لـذا نجد السيد ابن ادريس يكتب الى القنصل الفرنسي بالا يعمل « على خرق معاهدة تهم طرفين .. وتؤسس العلاقة الموجودة بينهما » . والجدير بالذكر ان الدبلوماسية السويدية باسم الملك (اوسكار الاول) تاخرت عن تقديم طلبها المباشر طيلة اربعة اشهر . ولم يختلف جواب المغرب عن ذي قبل .

جبل طارق : اما بريطانيا التي قبلت مبدأ رسو هذه السفينة في المنطقة ، فقد أوصت ، حاكم الجبل وقنصلها في طنجة بالتزام الحياد . وبعد ذلك بقليل جاءت ثلاث سفن حربية سويدية . وبدا ان القضية تاخذ اتجاها حرجا .

لم يلبث ممثلا البلدان الاسكندنافية ان ابلغا السيد ابن ادريس بأن حكومتيهما لم تعودا على استعداد لاداء المقادير المتفق عليها في المستقبل . ولكنهما تودان من جلالة السلطان ابرام اتفاق جديد او تجديد الاتفاق السابق (1767) مع الغاء ما تضمنه من اداءات مالية . وزاد ان الحكومتين غير مستعدتين لاداء ما بقي عليهما من السنوات الماضية . وعلى عكس ذلك هما على استعداد لاداء المقادير التي تؤديها الدول الاخرى ... التي لها مع المغرب اتفاقات في الموضوع (العبور البحري)

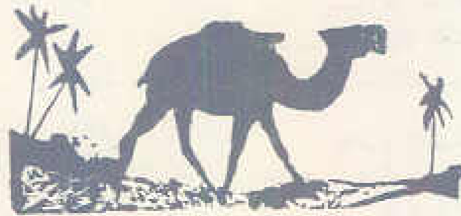
جانب التصلب في هذا الموقف هو ان القنصلين اثارا ، ولاول مرة ، مسالة الديون التي ترتبت في ذمة السويد والدانمارك عن ثلاث سنوات مضت . ويظهر ان المولى عبد الرحمن كان يتمسك بعدم التساهل في مضمون اتفاقية 1767 ضمانا لبقاء « بعض » فوائدها او على الاقل ضمانا للديون التي ترتبت عنها . خصوصا وهو يرى الموقف يتحرج من أكثر من جانب ، وخاصة من ناحية فرنسا . وقد عبر كريستنسن عن ذلك فيما كتبه الى ارنهوف من انه « اذا لم تنجح مساعينا واضطررنا الى الاختيار بين الاداء وبين الحرب فاننا سنجد في وضعية الحرب تجاه بعض الدول خير ما يساعدنا على النجاح ! » ، ان قنصل الدانمارك لا يشير بذلك الى فرنسا فحسب – وقد كانت بواخرها تقبل

بعض شواطىء المغرب ـ بل كذلك الى توتر العلاقات مع اسبانيا اثر مقتل قنصلها في الجزيرة .

ثم تحركت الدبلوماسية الانجليزية ، بأن تدخل (بولوير) سفير بريطانيا في مدريد . فقد انتقل الى جبل طارق فطنجة حيث اقام اتصالا مباشرا مع السيد بوسلهام ومصطفى الدكالي ذاكرا ان الحل الذي عرضه القنصلان عملي .. ملوحا الى ان السويد والدانمارك صاحبا قوة بحرية لا يسهل الاحتكاك بها . ولا شك ان السيد بوسلهام قد ادرك ان الانجليز ليسوا اقل تورطا في التلويح بالعنف ؛ خصوصا وأنهم « استضافوا » البواخر الاسكندنافية في قاعدتهم بجبل طارق . ثم ازداد نشاط الاسكندنافيين والانجليز عندما رأوا الازمة المغربية الفرنسية في طريقها الى الحل دون ان يستفيدوا منها شيئا ذا بال ، فاتصل القنصل الدانمركي والسويدي بقنصل فرنسا في طنجة ولفتا نظره الى ان ياخذ قضيتهما بعين الاعتبار . كما ان وزير خارجية السويد تحدث الى السفير الفرنسي في ستوكهولم في موضوع « الحكومة الفرنسية التي بحكم مركزها تستطيع ان تتحدث لفائدة المسيحية » . وهو يقصد بذلك مفاوضاتها مع المغرب فيما كان له فرنسا من مشاكل .

والواقع ان فرنسا حاولت ان تجعل هذه القضية ضمن ما ستتفاوض فيه مع المغرب . لكن دراموندهاي ـ قنصل بريطانيا في طنجة ـ طلع بمشروع الاتفاق الذي ستحل المشكلة على اساسه . ومضمنه ان يؤدي الاسكندنافيون ما ترتب بذمتهم عن السنوات الفارطة مع اموال اخرى في شكل هدايا . ونقل السيد ابن ادريس ذلك الى السلطان ، فوافق عليه . ووقع اتفاق بذلك في خامس ابريل عام 1845 .

فاس : عبد الحق حموش



نكبة فلسطين
في الشعر المغربي الحديث

للأستاذ حسن الوراكلي

(3)

لقد تمكنت الصهيونية الغاصبة ، الحاقدة من تحقيق حلمها ؛ غير ان اطماعها لم تقف عند حد ، فهي ما فتئت « تتغنى » بحلمها الكبير ولا « تذخر » من خستها ودناءتها ما يسهم في تحقيقه ؛ وليس هذا الحلم الكبير للصهيونية غير اقامة وطن اليهود القومي على رقعة الارض التي تمتد من ضفاف النيل وتنتهي عند مياه الفرات ، ولا يستحيي متزعمو الصهيونية من التصريح بان « حدود اسرائيل ليست طبيعية ويجب تعديلها (1) » ...

انتهت ماساة فلسطين سنة 1948 بعقد هدنة بين حكومات البلاد العربية التي تجاور ارض الوطن السليب وبين اليهود في غضون سنة 1949 .. ومع ذلك لم تنقطع على توالي السنوات اعمالهم الغادرة ، العدوانية ضد الاراضي والسكان العرب المجاورين .. وكان آخر اعمالها الاجرامية ، الهمجية ضد الوطن العربي من اجل توسيع حدود اسرائيل او استعادة ارض « اسرائيل التي يحتلها العرب » كما يزعمون ، ذلك العدوان الغادر الذي شنته عصابة الشر والاثم بالتعاون مع الامبريالية الغربية على الدول العربية صبيحة يوم 5 يونيه الماضي »، ولست استهدف ، اللحظة ، الافاضة في الحديث عن هذا العدوان وعما خلف من آثار ، فكلنا عشنا الماساة بكل دفقة من دمنا ، بكل رعشة من وجداننا ، بكل نبضة من وجيب قلوبنا ، وانما اريد أن اقول : اثارت هذه الماساة مشاعر شعرائنا وايقظت وجداناتهم ، فوقفوا يندبون ويبكون ، ويستنهضون النفوس والهمم ويدعون الى لم الشعث ، وجمع الكلمة للاجهاز على العدو المغتصب؛ وهكذا امتلأت صحفنا ومجلاتنا بزاد ضخم و « دسم » من الانتاج الشعري ، اذا لاحظ الناقد المتذوق على بعض عدم توفره على النضج الفني والوشاح الجذاب فانه لن يجد سبيلا الى ان ينفي عنه صدق العاطفة ونبل الشعور .

هذا شاعر الوطنية الرائد علال الفاسي يهتف بان الهزيمة يجب الا تفت في عضدنا طالما ان ايماننا بحقنا قوي ، وعميق :

لا النكبة العظمى ولا ماجرت
بمبيدة امل الحياة الحرة

عهد علينا ان نصون كياننا
ونرد عنا عار تلك النكبة

ولئن بدا الغادون في حلفائهم
اقوى فاقوى من عراهم همتي

لا ضير ان سلبوا بلادي حقبة
ما دام ايماني بها وبامتي

وهو في بيت من قصيدته يعجب من وعد بلفور :

ما وعد بلفور بمعط عصبة
مجلوبة حقا لها لم يثبت

1) انظر ، محمد فيصل عبد المنعم « فلسطين قلب العروبة » سلسلة .. « اقرا » رقم 295 ــ دار المعارف بمصر .

ثم يتساءل في سخرية :

هل كان يملك ارضنا بلفور حتـــى
يستبيح مقايضـات الصفقـــة ! ؟

ويبين ، بعد هذا ، انه لا يؤمن بهذا الوعد ولكنه يؤمن بوعد الله ـ جل شانه ـ لبني اسرائيل باللعنة ، والله لا يخلف وعده :

آمنت بالوعـــد الالهـي انــــه
أعطت لاسرائيـل وعـد اللعنـــة

وفي ختام قصيدته يوجه الخطاب لابناء الاسلام والعروبة ، يبصرهم بأن لا حياة تلذ لهم وتطيب مــا دامت مقدساتهم ترسف في قيود المذلة ، ثم يدعوهم الى الجهاد ذيادا عن المسجد الاقصى ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم والقبلة الاولى :

ايـه بنـي الاسلام في ارجائـــه
وبني العروبة والنفـوس البـــرة

هاذي فلسطين تنادي نصركـــم
والقدس تنشدكـم عهـود الملـــة

والمسجد الاقصى ومسرى احمـــد
والقبلة الاولى وصنـو الكعبـــة

بيد الصهاينة الذين تحالفـــوا
أن يرجعـوه لهيكـــل الوثنيـــة

ومساجد الجبهـات من ابطالنـــا
اضحت مواطىء نعلهم ـ يا حسرتي!

أنى تطيـب حياتكـم في قومكـم
والقدس ترسف في قيود الذلـــة

لا تذهلنكـــم الوقيعـــة انهـــا
مثل الخيال أو السراب بقيعـــة

قوموا انسفوا ديـان في آمالـــه
ولتنصروا الديان رب العـــزة (1)

وهذا الشاعر محمد المهدي العلوي يدعو المسلمين والعرب الى الجهاد ويستحثهم على التضحية :

الخي انتقض للثأر واحـم المجـدا
واملء حمى الوادي زئيرا مرعـــدا

الخي انتفض ليثا فعـار ان يـــدا
س المسجد الاقصى بأقدام العـدا

ثـــم يقـــول :

أو ما فلسطيـن كثغـرة نحرنــــا
تبت يدا من راشها تبـت يـــدا

فرض علينـا مسلميـن وعربـــا
ان ترتـوي بدمائنــا أو تفتـــدى

هل من سبيل للشهـادة مثخنـــا
في ظلهـــا ولائلهـا متوســـدا

تحلو المنيــة في ثراهـا كوثـــرا
للمومنين كما اطمأنـوا سجـــدا

طوبى لهم تلك المضاجع ازلفـــت
في عليين مجاورين محمـــدا (2)

اما شاعرنا محمد الحلوي فقد وقف يدعو الى المقاومة وخوض الحرب بثبات وصمود وعدم الاستسلام للدمع والجزع :

كفكف الدمع ولا تجـزع لما حـــل
وخضهــا بثبـــات وصمـــود

جولة كانت ومـــا اكثـر جولاتـــك
يا ثائـــر فـــي هـــذا الوجـــود

ثم يمضي موضحا ان الامة العربية لا تستسلم ولا تذعن للخنوع ، ولا تخشى اليهود الجبناء ، وكيف يعقل ان تخشى الاسود اذؤبا وقرودا ! ؟ !

هل درت صهيـــون انـــا عـــرب
لا يخافـون نفايـات اليهـــود ؟

كيف تخشى الاسـد في آجامهـــا
صولة الأذؤب أو زحف القـــرود ؟

هل نسوا ماضينا فاستأســـدوا
أم نسـوا ماضيهم تحت القيـــود ؟

لم يكشف عن لؤم اليهود وغدرهم ، فيقول :

لو تجلـى اللـؤم في صورتـــه
لتروه لـم يكن غيـر يهـــودي ؟

---

1) جريدة « العلم » ع 6303 ـ 25 غشت 1967 .
2) جريدة « العلم » ع 6289 ـ 11 غشت 1967 .

او سألت الغدر عن منبعه
قال : اصداري عنهم ووردي !

ويختم قصيدته مهيبا بالعرب الى وحدة الصف، فوحدتهم قوة جبارة تسحق كل قوة :

وحدوا الصف ففي وحدتكم
قوة تصهر دنيا من حديد

ان يكن يوما علينا فلنا
غدنا الحافل بالنصر المجيد (1)

وهذا الشاعر عبد القادر السحيمي يحدثنا في قصيدة له عن « أورفيوس » الحزين الذي لم يعد يغني اناشيد الحب والتحنان بافتنان ؛ لان الاطفال الايتام في فلسطين يحرقون بقنابل النابلم :

ما عاد اورفيوس يغني بافتنان
ما عاد احبائي ، كما كان
في سالف الازمان :
اناشيد الحب والتحنان
كانت اجمل من ان تنسى كالاحلام
كانت تجتذب الولدان
والطيور المغردة في الوديان
لكنه ما عاد احبائي ، كما كان
اورفيوس يغني بافتنان
لان الاطفال الايتام
يحرقون اليوم بالنابالم
في فلسطين ، يا للاثام !
ثم ينهي السميحي قصيدته :
فيوما والى الآباد
سنمحي احلام ارض الميعاد
ولو طالت ليالي شهرازد
وبتيه يهودا في الفيافي والانجاد
عمل المذلة ، وثوب الحداد
سنضرمها حرب جهاد
لا تبقي ولا تذر غير الرماد
بالنيران والاحقاد
وزمجرة الآساد
ويوما غريب الآجال
سيعلم الغدره
سيعلم الانذال

والاعور « ديان »
اي مصير ، واية احزان
واي الرجال الشجعان
يثارون للشرف المهان (2)

وهذا الشاعر عبد الرحمن الدكالي يتحدث عن الخلاف بين الحكومات العربية والاسلامية وبين نتائجه الخطيرة :

داء الخلف واي داء مثله
قد هدنا بقطيعة وبعاد

هاذي النتائج ما نرى في مصر ؛ في
ارض الشام واردن الامجاد

القدس بيت الله ، اول قبلة
قد دنست بعصابة الاوغاد

تلك المحارب والمنابر ضمخت
بدماء من رغبوا في الاستشهاد

ثم يبين للمسلمين في شرق وغرب ان دين محمد ابن عبد الله صلوات الله عليه يدعوهم للجهاد في سبيل نصرته :

يا امة الاسلام في شرق البـ
ـلاد وغربها يا امة الآساد

دين الرسول « محمد » يدعوكم
لتسارعوا للبذل ، للانجاد

هبوا لنصرة دينكم فعدوكم
اضحى لهذا الدين بالمرصاد

ثم يقول :

قولوا لصهيون اللعينة اننا
سنكون بعد غد على ميعاد

ان تتركوا صهيون فوق ترابكم
فلتلبسن الذل ثوب حداد

الروضة الفيحاء حيث « محمد »
والبيت في البلد الحرام ينادي

من لم يقل : لبيك اني مسلم
للروض ، للبيت العتيق جهادي

---

1) جريدة « العلم » ع 6268 – 21 يوليو 1967 .
2) جريدة « العلم » ع 6268 – 21 يوليو 1967 .

قـراءة الاسـلام منـه بـــراءة
تبقى على الاحقـاب والآبـــاد (1)

وتنهي هذا العرض بالانصات الى شاعرنا الطبال وهو يغني لنا « يافا » غناء مؤثرا ، يبلغ من نفوسنـــا أعـز مبلـــغ :

« يافا » جزيرة كل احلامي ، شراع الشوق يبحر في عيوني : في دمي شلال انغامي ، وصورة كل اطيافي، وصوت الحب يدوي في فمي .

ويمضي الشاعر معترفا بانه ان هجر ربيع العمر، فلانه حزين ، ولقد فاض هذا الحزن في عينيه دمعا ، وغار في صوته جرحا ، وهو حزين ، فلا يفتر ثغره عن ضحك ، ولا تسيل حنجرته بشدو ؛ وانما هو كذلك لان شذاذ الطريق تاسدوا وهم البغـات ، واكتسحوا أرضـــــه :

من كل فج كالجراد المسخ،جاءوا كالظلام الى بلاد الانجم
فغزوه ، فرصان السلام ، زعانف التاريخ،سود المعصم

ثم يرسم الشاعر لوحة لوحشية فرصان السلام، وهمجيتهم يوم دخلوا « يافا » ف :

مسخوا الدروب المؤمنات فجلجلت فيها حوافر كل مخ اقزم

رفعوا المشانق في الطريق لكل من رفعوا البنود وساوموا كل اجذم

نسفوا بيوت الله ، يا ويح الذين تدينوا ابـــدا بدين الدرهم

لا نفحة الانساب ، لا خلق النبوة في سوائمهم ولا في الاهيـــم

حرقوا المزارع والكروم وما ارتووا فالحقـد لا يروى بغير المائم

فانتشروا في كل دار يذبحون ويعبثون بكل قدس المحرم .

... وهكذا باتت « يافا » الهادئة ، الجميلة ، مأتما ومناحة ، واذا باهلها يتشردون ،، يهيمـون على وجوههم مرغمين ، تغرق اقدامهم المتعبة في الرمال ، وتتعلق انظارهم ، بلهاء ، بالآفاق البعيدة ، فلا ديارهم ترقب الليل ليعودوا اليهـا ، ولا الشـط الجميـــل يدعوهم الى بساطه الاخضر ، و :

لا الفجر ينتظر المآذن ان تهلل فالمآذن دراسات المعالـــــم

لا الدرب في يافا يحن الى الصباح فاين اطفال الصباح الابكم ؟

اين الصباح الحلو ، اين قيائر الاشواق تحكي خاطرات البرعم ؟

داستهم الاقدام ، تاهوا في القفار يرددون : الى متى في الميتم ؟ .

ثم يصور الشاعر عزم المشردين على العـودة ، واصرارهم على الاوبة ولو تطايرت اشلاؤهم وانثرت شظـايــــا :

يافا الحزينة اننا في النار نمشي لن نعـود الـى خيام النـــوم

نمشي اليك ، الى الديار ولو شظايا . ان صوتك فوق صوت المرجم

فلتنتشر اشلاؤنا ولتلتهب آفاقنا نارا كنار جهنم
لكننا نوقف الزحف الكبير فاننا قبر التـــار الظالــــم (2) .

— 9 —

لعلنا استطعنا ان نلمس من خلال هذا العرض الشعري اثر نكبة فلسطين في شعرنا المغربي الحديث، وكيف انه واكبمراحل هذه النكبة القائمة منذ بدايتها، راصدا تطوراتها ، وعاكسا آثارها ، ومبينا خطورتها ، ومحذرا من عواقبها ، وموقظا للنفوس الهاجعـة ، وداعيا الى توحيد الصف ، وجمع الشمل لطرد اليهود السفلة من الارض الحبيبة .

على اننا نود قبل ان نختم هذا الحديث ان نشير الى ملاحظات :

1 — لاسباب عدة لم يكن اثر النكبة الفلسطينية قويا وواضحا في شعرنا انطلاقا من وعد بلفور الى قيام

---

1) دعوة الحق ، ع 8 — السنة العاشرة — ربيـع الاول 1387 هـ — 1967 م .
2) دعوة الحق ، ع 8 — السنة العاشرة — ربيـع الاول 1387 هـ — 1967 م .

دولة الاشرار ، ولعل في طليعة تلك الاسباب الاستعمار الذي كان يكتم انفاسنا ويحاول ، مجدا ان يقطع اواصر الاخوة والدم التي تربطنا باخواننا في الشرق ، ومن ثم كان الزاد الشعري الذي أوحت به الفصول الاولى من مأساة فلسطين ضئيلا لا تعثر عليه الا بشدة الانفس ، مدفونا في طيات صحف ومجلات كانت تصدر عهدئذ.

ب ـ أما الزاد الشعري الذي قدمه شعراؤنا بعد نكسة 5 يونيه الماضي فقد بلغ من التضخم درجة عظيمة ، يدلك عليها أن الشعر استعمل حتى في الدعاوة لمقاطعة اليهود .

ج ـ وتضخم الكم يجرنا الى البحث عن قيمة الكيف ، وفي رايي أننا لا نكون مغالين اذا قلنا : ان جل ما اذاعه شعراؤنا عن المأساة كانت تطغى عليه السمة المنبرية ويذهب بشفوف اللمس الذاتي او عمق الصخب النفسي من ثناياه شيء غير قليل من «الفن» العنتري وتقريرية الموروث الحماسي و « الهتافية » الخطابية ، ولم ينج من الوقوع في ذلك الا نماذج قليلة جدا ، جدا ، لا يخطئها العد ، تعمقت المأساة ، وعكستها بصور حية ترفدها فحولة شعرية ، تحملنا على الاعجاب بها ؛ غير أن هذا الرأي ليس من شأنه ان يذهب بنا بعيدا فننكر على الشعر الذي قاله شعراؤنا في النكبة صدق العاطفة التي أملته ونبل الشعور الذي صاغه .

د ـ وانصافا للحق يجب أن نقول بأن موقف الشعر المغربي من نكبة فلسطين لم يكن موقفا سلبيا ، بمعنى أن ما قيل من شعر لم يكن دمعة وحرقة وآهة تؤلف فيما بينها رثاء حزينا لهذا الوطن المنكوب ؛ بل كان موقفا ايجابيا ، بمعنى أن ما قيل من شعر كان ثورة على الاستعمار الذي مكن الخليط من سقاطة الشعوب في ارض فلسطين ، وكان دعوة الى المقاومة ونداء بالوقوف في وجه السرطان الصهيوني وتذكيرا للشعب الفلسطيني خاصة والعربي عامة بامجاده في ماض غابر ، وبطولاته في عهد سالف .

— 10 —

وانا نبارك هذه الروح في شعرائنا ، ونكبر فيهم هذا التعاطف الاخوي مع اشقائنا عرب فلسطين ، وندعوهم الى مواصلة الحديث عن النكبة وتصوير ابعادها وآفاقها بفن رفيع ، ليس يثير في النفس العربية خورا وضعفا واستكانة بل يفجر فيها شلالات جارفة من قوة وعزم واصرار على استرجاع الوطن السليب ، وليس ببعيد ـ بحول الله ـ ذلك اليوم الذي يتحد فيه الصف وتخلص النية فننقض على الاشرار البغاة ، ونطهر أرضنا من دناءتهم وخستهم .

تطوان : حسن الوراكلي

الأدب النسوي في الاندلس

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

(14)

وكما كان لولادة في عصرها شاعر اكتوى بنار حبها، كان لحفصة شاعر تعلق بها، وساجلها وساجلته، وان اختلفت ظروف الشاعرتين، واتفقت في بعض منها

اما صاحبها فهو الشاعر ابو جعفر احمد الذي كان وزيرا لعثمان بن عبد المؤمن امير غرناطة، احب شاعرتنا حفصة، وبادلته هي بعض هذا الحب، ولكن هذه المرة لم يكن المنافس للحب وزيرا كالوزير ابن عبدوس، وانما كان امير غرناطة وسيدها عثمان السالف الذكر.

ولقد ادت هذه المنافسة على الرغم من انها لم تكن ظاهرة واضحة ولا قوية شديدة الى ان امر الامير بضرب عنقه، وذلك انه بلغه قول ابي جعفر لعشيقته حفصة: «ما تحبين في ذلك الاسود، وانا اقدر أن اشتري لك من سوق العبيد عشرة خيرا منه».

فاسر الامير عثمان هذه القولة الجارحة في نفسه الى ان حانت الفرصة عندما لحق اخو ابي جعفر عبد الرحمن بالثائر مردنيش في شرق الاندلس.

وفي معجم الادباء (1) يزعم ياقوت ان الذي تولع بحفصة ليس هو الامير عثمان وانما هو ابوه عبد المؤمن امير المؤمنين؛ بيد أن هذا ليس من الواقع في شيء؛ وآية ذلك أن المصادر الاندلسية كالنفح (2) والمغرب (3) تنسب هذا التعلق لابنه عثمان؛ الامر الذي دفع ابا جعفر وهو في حالة نفسية من الغيرة القاتلة الى ان يطعن فيه ويحتقره بلونه الاسود، في حين ان عبد المومن كان ابيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة شديد سواد الشعر وضيء الوجه، كما يقول المراكشي (4).

ولا جرم وحفصة دوما في اتصال مباشر او غير مباشر مع صاحبها ابي جعفر ان تتمخض اعمالها الشعرية عن لقاءاتهما العذبة، وظروف الحياة التي كانت تجمع بينهما احيانا.

فها هو ابو جعفر يطلب منها ان تجود عليه باجتماع معها فسوفته شهرين، وعند ذاك ارسل اليها ابياتا يبثها فيها لواعجه وحرقاته يقول:

يا من اجانب ذكر اسـ
ـمه وحبي علامه
ما ان ارى الوعد يقضى
والعمر اخشى انصرامه
اليوم ارجوك لا ان
يكون لي في القيامه
لو قد بصرت بحالي
والليل ارخى ظلامه
انوح شوقا ووجدا
اذ تستريح الحمامه

1) ج 10 ص 220 2) ج 2 ص – 430 المطبعة الازهرية 3) ج 2 ص 138 و ص 164 بتحقيق الدكتور شوقي ضيف 4) ص 197 بتحقيق الاستاذين: سعيد العريان ومحمد العربي العلمي.

صب اطال هواه
على الحبيب غرامه

لمن يتيه عليه
ولا يرد سلامه

ان لم تنيلي اربحي
فالياس يشي زمامه

فاجابته حفصة منتقدة اياه :

يا مديحي في الهوى الحسـ
ـن والفرام الامامة

أتـى قريضك لكن
لم ارض منه نظامه

ضلت كل ظلال
ولم تفدك الزعامة

ما زلت تصحب قد كنـ
ـت في السباق السلامة

حتى عثرت واخجلـ
ـت بافتضاح الندامه

بالله في كل وقت
يبدي السحاب انسجامه

والزهر في كل حين
يشق عنه كمامه

لو كنت تعرف عذري
كففت تحرب الملامة

ثم ارسلت هذه الابيات مع رسول ابي جعفر بن سعيد بعد ان سبته هو وصاحبه ، ولما وصل الى ابي جعفر ساله ما وراءك يا عصام ، فقال له ما يدل على عدم موافقة الشاعرة على الاجتماع معه ، وبعد ذلك سلم له الابيات ، وعرف من خلالهما انها ستاتي اليه عكس ما قاله رسوله ، وان الموعد سيكون بجنته المسماة « بالكمامة » .

وما ان مرت فترة ليست بالقصيرة حتى وطت حفصة الى « الكمامة » فهم بتوبيخها ولكنها انشدته بصوت رخيم حلو :

دعى عد الذنوب اذا التقينا
تعالي لا نعد ولا تعدي

وفيما هما فيه من حديث يجري في رفق تتخلله كلمات الحب ، وعبارات الهيام اذ برقعة يرسلها لابي جعفر الشاعر الكتندي مكتوب فيها :

ابا جعفر يا ابن الكرام الاماجد
خلوت بمن تهوى رغما لحاسد

فهل لك في خل قنوع مهذب
كتوم عليم باختفاء المراصد

يبيت اذا يخلو المحب بحبه
ممتع لذات بخمس ولائد

وقرا ابو جعفر الابيات على حبيبته حفصة فلم تملك الا ان قالت :

ـ لعنه الله قد سمعنا بالوارش (1) على الطعام والواغل (2) على الشراب ولم نسمع اسما لمن يعلم باجتماع محبين فيروم الدخول عليهما .

ثم قال لها ابو جعفر والابتسامة تتلألأ على محياه: بالله عليك سميه لنكتب له بذلك .

فقالت :

ـ انني اسميه الحائل لانه يريد ان يحول بيني وبينك .

وبعد برهة كتب على ظهر الرقعة ابياتا اولها :

يا من اذا ما أتاني
جعلته نصب عيني

تراك ترض جلوسا
بين الحبيب وبيني

وكتب ايضا :

سماك من اهواه حائل
ان كنت بعد العتب واصل

مع ان لونك مزعج
لو كنت تحبس بالسلاسل

واسرع الرسول قاصدا الكتندي ليبلغه الابيات، ولكنه وجده قد وقع في حفرة نجسة ، وعندما قراها طلب من الرسول ان يخبرهما خبره . ولما علم الحبيبان ما حدث استولت عليهما نوبة من الضحك فكتب كل واحد منهما بيتا على سبيل التناوب يسخران منه اشد السخرية .

---

1) الوارش من مادة ورش على القوم دخل عليهم وهم ياكلون من غير ان يستدعي .
2) الواغل من مادة وغل على القوم ، دخل عليهم . فشرب معهم من غير ان يستدعى .

ولم يكن هذا هو اللقاء الاول والاخير لحفصة بحبيبها أبي جعفر ، لا ، فقد تعددت اللقاءات فى اماكن مختلفة ، وكثرت المواعد فى بساتين متنوعة ، فها هي حفصة تقضي معه سويعات قرنفليات فى بستان « جوزمؤمل » وفى ذلك يقول ابو جعفر فى مستهل ابيات له بعثها اليها بعد الافتراق :

رعى الله ليلا لم يرح بمذمم
عشية وارانا بجوزمؤمل

فكتبت هي اليه تقول :

لعمرك ما سر الرياض بوصلنا
ولكنه ابدى لنا الغل والحسد
ولا صفق النهر ارتياحا لقربنا
ولا غرد القمري الا لما وجد
فلا تحسن الظن الذي انت أهله
فما هو فى كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الافق ابدى نجومه
لامر سوى كيما تكون لنا رصد

وليلة كان ابو جعفر فى مجلس مع ثلة من الاصدقاء يتحدثون احاديث مختلفة اذا بطرقات على الباب فخفت جاريته لتنظر من بالباب فوجدت امرأة فقالت لها :

ـ ما تريدين ؟

فأجابتها :

ـ سلم لسيدك هذه الرقعة

ثم سلمت لسيدها الرقعة ، واذا به يجد مكتوبا عليها ابياتا علم من ثناياها انها لحفصة ، وكيف يخفى عليه شعرها وقد احتك به احتكاكا . وعرف نكهته ، وصياغة اسلوبه ، وطريقة تكوينه التعبيري ، واعاد قراءة الابيات بصوت هامس خافت :

زائر قد اتى بجيد الغزال
مطلع تحت جنحه للهلال
بلحاظ من سحر بابل صيغت
ورضاب يفوق بنت الدوالي
يفضح الورد ما حوى منه خد
وكذا الثغر فاضح للالي
ما ترى في دخوله بعد اذن
أو تراه لعارض في انفصال

ولها فى حبيبها الذي نزح عنها وهو طي الحشا رغم البعاد :

سلام يفتح عن زهره الـ
ـكمام وينطق ورق الغصون
على نازح قد ثوى في الحشا
وان كان تحرم منه الجفون
فلا تحسبو البعد ينسيكم
فذلك والله ما لا يكون

وتقول وقد ذكرها البارق الخفاق بمن تهوى :

سلوا البارق الخفاق والليل ساكن
اظل بأحبابي يذكر وهنا
لعمري لقد اهدى لقلبي خفقة
وامطرني منهل عارضه الجفنا

ودوام الحال ـ كما يقولون ـ من المحال ؛ لذلك تعكر جو الحب بين الحبيبين عندما تناهى الخبر الى حفصة بأن عشيقها ابا جعفر يحب فتاة سوداء ، وانه قضى معها اياما بظاهر غرناطة ، فقالت ساخرة به وبمعشوقته الجديدة :

يا اطرف الناس قبل حال
اوقعه نحوه القدر
عشقت حسناء مثل ليل
بدائع الحسن قد ستر
لا يظهر البشر في دجاها
كلا ولا يبصر الخفر
بالله قل لي وانت ادرى
بكل من هام في الصور
من الذي هام في جنان
لا نور فيها ولا زهر

وتمر ايام النحس وساعات النكد لتحل مكانها اوقات الانبساط والانشراح ، فها هي تبعث اليه قولها:

سار شعري لك عني زائدا
فاعر سمع المعالي شنفه
وكذا الروض اذ لم يستطع
زورة ارسل عنه عرفه

فيجيبها ابو جعفر :

قد اتانا منك شعر مثلما
اطلع الافق لنا انجمه
وفم فاه به قد اقسمت
شفتي بالله ان تلثمه

وشاعرتنا حفصة رغم ما كانت تخص صاحبها ابا جعفر بالعناية ، ويلقى هو بين احضانها دفء الحب،

واستجابة لنداء قلبه فانها لم تكن لتهمل امير غرناطة عثمان بن عبد المؤمن ، ولسنا ندري بالضبط نوع علاقتهما بهذا الامير الا انه كان يهواها ، واستمع اليها اذ تكتب الى عثمان تستاذن عليه في يوم عيد :

يا ذا العلا وابن الخليـ
ـفة والامام المرتضى
يهنيك عيد قد جرى
منه بما تهوى القضا
واتاك من تهواه في
طوع الاجابة والرضا

هذه هي حفصة بنت الحاج الركونية شاعرة القرن السادس الهجري في الاندلس ، امتازت برقة اللفظ ، وجودة التعبير تعلن به عن واقع حب عميق الغور ، ولهاث ساخن يعكس ظلال المشاعر المعبرة عن البوح الانساني .

وتغيض نفس الشاعرة ، وتختفي من الحياة فتختفي معها الكلمة الموحية الملهمة ، وذلك سنة 586هـ بمدينة مراكش .

خاتمة المطاف :

من هذا التطواف تسنى لنا ان تتبين دور المراة العربية الاندلسية التي قفزت الى ميدان الحياة بروح يحدوها الجد ، وياخذ بزمامها الاقدام ، فشاركت مشاركة في النشاط الادبي ، مدركة خطورة الوظيفة التي حملت اعباءها على عاتقها ؛ لذلك راحت تعبر عن شعورها الدافيء اصدق تعبير ، وتصور ما في نفسها من الاحاسيس الطيبة والخبيثة معا : الطيبة تنداح فيما ابدعته من لوحات حافلة بهتافات القلوب المحرورة ، والخبيثة في حديثها عن الذات في ظهور انحطاطها عن القيم العليا الوضيئة .

فبانطلاقة الادب النسوي في الاندلس تأكد ان المراة الاندلسية تمكنت من فرض شخصيتها ككائن له ما بعده يسهم بنهضة في معترك الحياة ، لا توقفه حواجز ما دامت الغاية ايجاد عمليات الخلق الفني المتضوعة بنكهة الانوثة العطرة .

ونجم عن ذلك تفتح اكمام تزف الى الشعر روعته ، وتنقل الانسان الى آفاق رحبة تلتقي في عرصاتها معاناة التجربة ، مما جعلنا نتيقن ان المراة الاندلسية الشاعرة كادت تشارف — او شارفت — ربوة وادي عبقر حيث عرائس الشعر تروح وتغدو لتحرك دافن النبوغ ، ولتطلع شهي الثمر .

ومن يرجع الى تلك الضمانات المفوفة التي قدمناها بين يدي القاريء يجد هذا القول حقا لا مبالغة فيه ، وكم كنت اتحرق شوقا الى العثور على اكبر عدد ممكن من النصوص الشعرية كيما تكون لنا شمعة هادية تنير لنا السبيل واداة ربضة ذلولا تكشف لنا عن حقائق لا تزال غامضة علينا ، ولكن بدون جدوى .

ولا مشاحة ان القاريء الكريم قد تتبع حلقات البحث التي استهلتها بمقدمة ابرزت فيها الاسهام النسوي في شتى الاغراض الشعرية ، وانه وان طالت المقدمة بعض الشيء — كما لاحظ الاخوان — فانما يرجع ذلك الى اظهار تفوق المراة العربية عموما في التماسك الحضاري ، وانها خليقة بأن تخوض المعترك الادبي على نقيض ما تزعمه جماعة من الناس .

وبعد هذا حاولنا تقسيم البحث الى العصور السياسية التي شهدتها شبه الجزيرة الايبيرية من عصر الامارة الى عصر الموحدين بله عصر المرابطين ، كما المعنا الى ذلك قبلا . كما حاولنا ادارة الحديث عن كل عصر ومعطياته الثقافية والعلمية لعرض شاعراته الممثلات له .

ولعل القاريء الكريم بعد اطلاعه على هذا البحث — الذي لا ابرئه مما يكون قد اعتوره من قصور — قد وضحت في ذهنه صورة عن الادب النسوي في الاندلس ومعالمه في عصور مختلفة .

تطوان : محمد المنتصر الريسوني

السكر في المغرب القديم

للأستاذ محمد أحمد الرغاي

يعرف مغرب اليوم حملة واسعة في ميدان التصنيع خاصة في ميدان الصناعات المعتمدة على المواد الفلاحية ، وفي طليعتها السكر .

وصناعة السكر ليست بدعا في حياة المغرب ، وانما كان لها في الماضي، مثلما قد يكون لها في المستقبل، اثر واضح في اقتصاد بلادنا ، بل وفي سياستها الداخلية وكذلك في علاقاتها مع بعض الدول .

الا ان السكر في المغرب القديم لم يحظ مع كامل الاسف بالدراسات التي يستحقها ، ولم تحفظ لنا كتب التاريخ المغربية الا اشارات مقتضبة عن هذه المادة الحيوية . (1)

ولعل من المفيد ان نستعرض في هذه العجالة بعض جوانب الموضوع فنعرف اين كان يزرع قصب السكر ، واين كان يتم صنعه ، ثم علاقة السكر بسياسة الدولة آنذاك .

لقد عرف المغرب زراعة قصب السكر منذ القديم ، ورافق ذكر هذه الزراعة مختلف اطواره التاريخية منذ الفتح الاسلامي الى انحطاط الدولة السعدية .

فالمؤرخون الاولون الذين تحدثوا عن المغرب من شكل ابي حنيفة الدينوري ، وابن حوقل ، والبكري ، وابن خلدون وغيرهم ، كلهم اشاروا الى ان هذه الزراعة كانت مزدهرة في المغرب ازدهارا كبيرا ، وتكاد تنعدم هذه الاشارات فيما كتب عن المغرب قبل مجيىء الاسلام وكذلك بعد سنة 1615 مما جعلنا نعتقد ان عمر هذا الازدهار ابتدا بالمغرب مع الفتح الاسلامي ، وان قصب السكر جاء به العرب مثلما جاءوا بغيره من الزراعات مثل شجر البرتقال . وهكذا يكون قصب السكر قد عاش في المغرب مدة تعادل ثمانية قرون اي في سنة 895 م الى سنة 1615 م.

اما الاماكن التي عرفت هذه الزراعة بالمغرب فهي جنوب المغرب خاصة . وقد نستغرب اذا اطلعنا على ان هذه الزراعة كانت ايضا بجبل تنمل مهد الموحدين ، وبجوار مدينة سلا وكذلك حول مدينة سبتة .

والقدماء يطلقون على الجنوب المغربي اقليم سوس ، وهم يقصدون بهذه التسمية المنطقة الواقعة بين نهري شيشاوة ووادي درعة ، فهو يضم المنطقة الجبلية الاطلسية المجاورة للبحر ، ووداي سوس ، والاطلس الصغير الى وادي درعة .

وقد كانت هذه المنطقة من اخصب مناطق المغرب ان لم نقل اخصبها على الاطلاق ، فلم يطنب الرحالة المغاربة ، ولا المؤرخون في وصف منطقة ما من المغرب اطنابهم في وصف هذه المنطقة ، فقد عددوا خيراتها

1) نشر الاستاذ (بول بيرتيي) بحثا في كتاب سماه معامل السكر المغربية القديمة وشبكتها المائية)

الفلاحية والحيوانية ، وذكروا من بين غلاتها التفاح والخوخ ، كما انهم ذكروا انها كانت من اكثر المناطق ازدحاما بالسكان .

فلقد اشار البكري الى ان « اجلي » عاصمة سوس توجد بجوار نهر عظيم ، والى ان بهذا الاقليم غلات من جملتها قصب السكر الذي يصدر الى جميع انحاء المغرب ، ويقول ان نهر سوس يخترق شريطا متتابعا من الجنان ، وان السكان لم يريدوا اقامة طواحينهم على جوانب النهر ، وحجتهم في ذلك ان كيف يرغمون ماء حلوا كماء نهر سوس على ادارة الطواحين . وعن كثرة الغلات الموجودة بهذه الناحية يقول بان الانسان يمكنه ان يشتري حملا من التمر بثمن اقل من الثمن الذي يكلف نقله من الحقل الى السوق ، وقصب السكر في هذه الناحية يشكل الانتاج الاكثر وفرة ، اذ بربع درهم يستطيع الانسان الحصول على كمية يعجز الرجل القوي عن زحزحتها من الارض ، كما يشير الى وجود صناعة السكر بهذه الناحية ، والى ان القنطار كان يباع بمثقالين او اقل من ذلك .

واشار الادريسي بدوره الى ان قصب السكر يوجد بسوس ، وخاصة بناحية تارودانت وفي سبتة وتبنملل ، فقال عن بلاد سوس : « وبلاد سوس قرى كثيرة ؛ وعماراتها متصلة بعضها ببعض ، وبها من الفواكه الجليلة اجناس مختلفة ، وانواع كثيرة كالجوز والتين والعنب والمشمش والرمان والخوخ والتفاح وقصب السكر الذي ليس على قرار الارض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء ، يعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب اليها ما يعم اكثر الارض، وهو يساوي السكر السليماني والطبرزد ، بل يشف على جميع انواع السكر في الطيب والصفاء » . وعن جبل درن يقول الادريسي : « ... ان اهل هذا الجبل لا يبيعونه بينهم (اي قصب السكر) ولا يشترونه لكثرته » .

كما يشير صاحب الاستبصار الى ان تارودانت وهي قرية كبيرة ، هي اغنى بلاد الله بقصب السكر وان معاصرها اكثر عددا، ويحمل السكر منها الى باقي بلاد المغرب .

بعد هذه الوقفة على اقليم سوس، وبعد التعريف به ، يمكننا ان نعين المناطق التي عرفت زراعة قصب السكر فنقسمها الى ثلاث مجموعات :

1) مجموعة الشمال بما فيها طنجة وسبتة وسلا .

2) مجموعة الحوز بما فيها شيشاوة والصويرة وحوض نهر القصب ووادي نفيس وزاوية سيدي شيكر .

3) مجموعة سوس حسب المعنى الذي سبقت الاشارة اليه .

ومن المعلوم ان زراعة قصب السكر هذه لن تكون لها اية فائدة ما دام لم يتم تصنيعها والصناعة تحتاج الى قوة محركة ، فمن أين حصل الفنيون في هذا العصر على القوة المحركة لانجاز هذا العمل الهام؟

لقد اعتمدوا في ذلك على القوة المائية ، فالمعامل التي اكتشفت آثارها تحتوي كلها على سواقي تجلب فيها المياه من مناطق بعيدة او قريبة . ويهمنا هنا ان نلاحظ ان المغرب قد تخطى مرحلة استخدام القوة البشرية او الحيوانية لادارة هذه المعامل فاعتمد على قوى الطبيعة ، وانجز الصناع من اجل ذلك مشاريع هائلة . ولا يخفى ان بعض معامل السكر كانت في ملك بعض الاشخاص وخاصة اليهود ، وقد كان بناؤها يكلف اموالا طائلة . فقد ورد في احدى الوثائق ان محمد الشيخ بعد ان تم له فتح فاس ، امر بانشاء سبعة معامل للسكر في تارودانت كانت تكلفه كل عام 7 500 مثقال ، وكان يكلفه انتاج السكر الذي كان يصنع في كل منها 15 000 مثقال . اذا اخذنا بعين الاعتبار الاموال الطائلة التي كان يتطلبها بناء معامل السكر ، وكثرة اليد العاملة ، وما ينتج عن ذلك من ازدهار في الصناعة وفي الحركة التجارية ، امكننا ان نقول بان المغرب كان على ابواب تغيير جوهري وجذري في ميدانه الاقتصادي لولا ما وقع في داخل هذه البلاد العزيزة ، وفي خارجها من احداث خطيرة جعلت التاريخ يكون في غير صالحها .

ان المياه التي تحرك عجلات هذه المصانع في حاجة الى ان تجلب من مصادرها ، والى ان ينظم استغلالها حتى تاتي بالنتائج المرجوة سواء في ميدان الري او في ميدان الصناعة . فقصب السكر يحتاج الى ما يقرب من 1 500 مم من الماء ، ونحن نعرف ان ناحية الجنوب لا تتوفر على تساقطات تعادل هذه الكمية فتضمن الانتاج ، ولا نستطيع ان نزعم ان المناخ قد تغير هذا التغير الكبير ، وان الامطار كانت تضمن الانتاج .

ولقد اظهرت البحوث ان المـاء كان يجلـب من الانهر . فاذا كانت هذه الانهار غزيرة المياه كنهـر سوس وتانسيفت اقتصر على جلب الماء منها وحدها، وان كانت معرضة للجفاف او تقل بها المياه ، اضيفت اليها مياه العيون القريبة .

وسـاذكر بعض الانهار التي كانت تستغل مياهها فى هذا الميدان :

1) مياه نهر القصبة قرب الصويـرة وكانـت تضاف اليه مياه العيون .

2) مياه نهر تنسيفت التي تغـذي الساقيـة الهروشية التي تحرك معامل سيدي شيكر .

3) مياه نهر شيشاوة ، وكانت تضاف اليـه ميـاه العيـون .

4) ميـاه نهر سوس .

والسواقي تقطع مسـافات قد تطول احيانا وتصل الى بضعة كيلومترات ، وهي فى طريقها تحتاج الى ان تحتفظ ببعض الانحدار حتى يتم جريان الماء فيهـا فاذا ما اعترضها منحدر حملت على اقواس متينة حتى يستطيع الماء اجتياز المنخفض .

وكيفما كان الامر ، يجب ان تصل الميـاه الى المعمل وهي تتوفر على علو مناسب حتى يتم الحصول على مسقط ملائم لتحريك عجلة المعصرة .

وقد وجد ان المياه تنزل من علو سبعة امتـار بتصريف يتراوح بين 100 و 250 لترا فى الثانيـة ، ويكون اتصال الماء السـاقط بالعجلة بعد انحدار قدره 4 ، 5 م او 5 م . ويتم ايصال الماء الى العجلـة عـن طريق انبوب متين ، والعجلة يصل قطرها الى خمسة امتار ، وتتصل بمعصرة رئيسية تم بمعصرتين ثانويتين. ولعل هذه المعاصر مصنوعة من الحجر الصلد كمـا جرت العادة قبل ذلك فى عصر الزيتون . فالرومـان كانوا يستعملون معاصر من الحجر لعصر الزيتون . وبعد ان يؤدي الماء مهمة تحريك العجلة يتجـه عـن طريق ساقية غالبا ما تكون مسقوفة الى المعمل حيث يستغل فى الزراعة . وهكذا تنتهي كل ساقيـة الـى المعمل اولا ثم تتوجه بعد ذلك الى حقـول القصـب ، وبهذه الطريقة يؤدي الماء وظيفتين ، ويستغل اتـم استغـلال .

وقد وجد فى بعض المعامل ان قاعة العصر تتكون من ثلاث معاصر تتصل بها قنوات توصل السـائل الى حيث يعالج ، وتتراوح مساحة هـذه القاعـات بين 300 2 م و 400 2 م وهي قاعات كبيرة كما تدل عليه هذه المساحة . ويحفظ عصير القصب موقتا فى مخازن ريثما يتهيأ المكان له فى قاعة الافران .

وقاعة الافران هذه تحتوي على عـدة افـران يبلغ عددها ستة فى بعض المعامل المكتشفة ، يقوم كل واحد منها بوظيفة خاصة يمكن ان نلخصها فى انهـا تهدف الى تخليص السكر من الشوائب العالقة به ، وجعله صالحا للاستعمال . وآخر عملية يشهدهـا السكر بعد ذلك هي وضع الخلاصة فى قوالـب ذات احجام كبيرة نسبيا .

ويمكننا ان نتساءل ، هل كان هـذا النـوع من النشاط الاقتصادي حرا ام انه كان محتكرا من طرف الدولة ، ام انها كانت تقتصر على التدخل والتوجيه من بعيـــد ؟

الواقع ان كل القرائن تدل على ان السعديين ما كانوا يولون هذه المادة هذا الاهتمام الكبير لولا مـا كانوا يجنونه فى فوائد جمة بكيفية مباشرة ، كما ان هذه المشاريع الضخمة لا يستطيع القراء القيام بهـا نظرا لما تكلفه من مصاريف ونفقات .

1) فاول دليل يقابلنا لتاييد هذا الراي هـو تسمية السواقي باسماء مخزنيـة ، من جملـة ذلـك الساقية المخزنية ، والساقية المهدية ..

2) ما سبق ان ذكرناه من اعطاء محمد الشيخ امره ببناء سبعة معامل للسكر فى تارودانت كلف كل واحد منها الدولة ما قدره 7500 مثقال ، وقد بحـث « بيرتيي » عن مقابل لهذه القيمة بالفرنك فوجدهـا تساوي : 000 000 60 فرنك .

3) حرص محمد الشيخ فى حربه للبرتغال على الحصول على ميناء اكادير وآسفي واحتفـاؤه بهـذا الفتح العظيم ، وبناؤه لحصن اكادير لضمان سلامـة المصالح الاقتصادية . نعم لا ينكر احد انه كان هنالك حافز ديني يحدو السعديين فى هذا الفتـح ، ولكـن ينبغي الا ننكر ايضا وجود المصالح الاقتصادية التـي رافقتــه .

4) لقد كانت تجارة السكر خاضعة لمراقبـة صارمة من طرف السعديين ، فقد كان هنالك ثلاثـة انواع خاصة بالتصدير ، وكان السكر يصدر الى ملكة انجلترا فى صناديق يسع كل منها 300 رطل ، كمـا كانت الدولة تحدد ثمنا للسكر . فقد اصدر السلطان

عبد الملك مرسوما بتاريخ 6ـ7ـ1577 يقضي بأن ثمن السكر هذا لن يكون اغلى من السنة الفارطة ، وانه يلزم استعمال موازين معترف بها من طرف الدولة لوزن هذه المادة .

5) المواد التي كان المغرب يستبدل بها مادة السكر هي مواد لم تكن تمتلكها الا الدولة . فالمغرب كان يتجر مع كل من بريطانيا وايطاليا وفرنسا ، فكان الانجليز يزودونه بدلا من السكر بانواع الثوب الرفيع، وكان يستخدم منه كساء للقواد والحراس .

فقد جاءت سفن ("تؤماس ويندهام) محملة بالثياب في سنة 1552 م ، وكان الثوب المحبب من قبل الشرفاء هو المسمى (برناطة) اما في ايطاليا فقد كانت تجلب مواد الرفاهية وعلى راسها الرخام الذي كان يستبدل وزنا بوزن ، واما الفرنسيون فقد كانوا يجلبون انواعا اخرى من الثياب يستغلها الجيش في صنع الخيام .

غير ان الفائدة العظمى التي كان السعديون يجنونها في تجارة السكر هي حصولهم على الاسلحة من الانجليز والفرنسيين الذين كانوا يبيعونها الى المغاربة ضاربين عرض الحائط بالحصار المسيحي المضروب على الدول الاسلامية . فقد كتب احد سفراء البرتغال في انجلترا في سنة 1522 يقول ان الامة الانجليزية والفرنسية حققتا منذ عشرين سنة فوائد هامة من تسليمها للشريف ـ مخالفين القوانين الالهية والانسانية ـ كمية هائلة من الاسلحة .

وفي مذكرة لفرانسيسكوجيرالدي سفير البرتغال في لندن بتاريخ 5ـ3ـ1577 ، اشار الى ان شحنة من العدد الحربية قد ارسلت الى الشريف من طرف عملاء انجلترا ، وانها ستعرض لهم بالسكر وملح البارود .

6) جاء في احدى الوثائق ان اليهود المشرفين على سير مصانع السكر زودوا الملك بمقادير هامة من الاموال في حربه ضد البرتغال .

كل هذا يدل دلالة واضحة على ان الدولة كانت تمسك بيدها زمام الامر فيما يتعلق بزراعة هذه المادة وصناعتها وتجارتها ، وان السبب في ذلك راجع بالدرجة الاولى الى القيمة الاقتصادية التي كانت لهذه المادة . فلقد كان ثمن السكر غاليا جدا ، وكان استهلاكه مقصورا على الطبقات الغنية ، كما كان يستعمل كوسيلة في وسائل علاج امراض الصدر .

فقد كانت تجارة جد مربحة ، وكان من اهم موارد الثروة والغنى ، ولم تكن تنافسه كبضاعة تصدر الى الخارج اية مادة اخرى . نعم لقد كان للاجراء الذي اتخذه السعديون بتحريم تصدير الذهب وملح البارود الى الخارج سببا مباشرا في افساح المجال للسكر بان يحتل المرتبة الاولى بين المواد المصدرة .

ولكن هل كانت الدولة تعين موظفين عنها للاشراف على هذه المرافق ، ام انها كانت تتبع في ذلك نظاما آخر ؟ .

الغالب على الظن انها كانت تتبع نظام الامتيازات فقد كانت تمنح حق استغلال هذه المنشآت لمن يستطيع ضمان دفع مبالغ هامة من الاموال . فقد كانت الاراضي والمصانع والمياه كلها ملكا للدولة وكانت بازاء ذلك تحصي تجارة السكر وصناعته بقوانينها ، وتوفر الامن والاستقرار للمستغلين ، ثم انها تراقب الاثمان وتعقد الصفقات بكيفية مباشرة مع الزبناء . وكان اليهود يحتلون المرتبة الاولى من بين هؤلاء المستفيدين من هذه المشاريع ياتي بعدهم الاوربيون من انجليز وفرنسيين . ولا يرد ذكر للمغاربة المسلمين في هذا الميدان .

اما النقل فبالرغم من ان المغرب كان يتوفر على اسطول قوي يجوب عرض البحار فلم يرد ذكر لسفن مغربية تكفلت بنقل السكر المغربي الى الخارج ، وانما كان يتولى ذلك البحارة الانجليز والفرنسيون ثم الهنديون بعد ذلك .

لقد اهتم السعديون بالسكر لانهم جنوا منه ارباحا طائلة واستعملوه مادة للمساومة ، ولكن هذا الازدهار خبا نوره فجاة .

نعم لقد كانت هنالك في سماء هذا الازدهار نذر تهدد بانفجار منذ وقت بعيد ، فقد خرب محمد المتوكل بعض معامل الجنوب اثناء عيثه في السوس ، ولكن المغرب لحسن حظه نهض من هذه الكبوة ، واستطاع التغلب على هذه الازمة بفضل همة عبد الملك واخيه المنصور . ولكن توالي الازمات فيما بعد اجهز على هذا النشاط وقضى عليه القضاء النهائي . فقد جاء الطاعون الى هذه المعامل فهجرها اصحابها ، ومات المنصور فانتشرت الفتنة ، واصيبت معامل السكر وحقوله من جراء ذلك بضرر بالغ . ولكن دهشتنا من انقراض هذه المادة من الارض المغربية على هذه الصورة تبعثنا على التساؤل عن الاسباب الخفية والخطيرة

لهذا التحول . وساورد فيما يلي اهم هذه الاسباب واجلاها وهي :

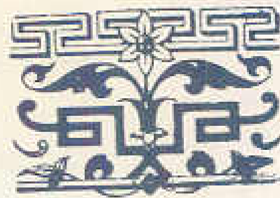
1) اسباب سياسية ، وتتمثل في فقدان المغرب لشخص احمد المنصور الذهبي ، الشخصية القوية الذي فرض هيبته وسلطانه على الجميع . وتنازع الاخوة فيما بينهم على السلطة بعد موته فانعدم الامن والاستقرار ، وهما الدعامتان الاساسيتان لكل نشاط اقتصادي وازدهار تجاري .

واخل الصناع والتجار بالقوانين التي كانت تحمي هذه الصناعة في الخارج ، فاختلط الجيد بالرديء ، وانعدمت الثقة في البضاعة المغربية .

2) اسباب اقتصادية ، وتتجلى في اكتشاف العالم الجديد ، واقبال الاوربيين على موارده الفلاحية المعدنية ، واعتمادهم على نظام الرق ، وقيام تجارة مزدهرة في هذا الميدان ، فتحول الزبناء عن بلادنا الى بلاد اخرى تتعدد فيها الامكانيات ويتصرفون فيها بكل حرية .

3) قد يضاف الى هذين السببين سبب ثالث يرجع الى ان قصب السكر كان يحتل احسن الاراضي واوفرها ماء ، ويتمتع بامكانيات السقي الوفيرة ، وبذلك يحرم السكان من غرس المزروعات التي يعتمدون عليها في عيشهم وعيش دوابهم ؛ مع العلم ان الفوائد التي تجنى من هذه الزراعة كانت تذهب الى اليهود والاجانب والى الدولة مباشرة دون ان يستفيد منها افراد الشعب . كما ان زراعة القصب تستنزف الارض وتذهب بخصوبتها ، وتتطلب عملا بشريا جبارا ، وكان اعتماد السعديين في ازدهار هذا النشاط الاقتصادي على الاجانب والعبيد مما جعل الاهالي ينظرون الى هذه النبتة نظرة كراهية واشمئزاز . ولذلك فان ازدهار هذه الصناعة كان مرهونا بقوة السلطة المركزية وبمقدار حمايتها .

الرباط : محمد أحمد الرغاي



قصة العدد

عشنا الحياة...

للأستاذ محمد أحمد اشماعو

كان سكان دربنا من طبقات مختلفة ، ولكنها متقاربة في مستوى معيشتها . فأرباب الاسر اغلبهم يحترفون حرفا يدوية متنوعة ، تستر ولا تغني ، مما جعل دربنا على العموم ينطبع بطابع الرضى والقناعة، مع تدبير امور المستقبل بشيء من الحزم الممزوج بالتخوف . وكان بعض الآباء والامهات يشعرون بعراقة اصولهم الحضرية فيحرصون حرصا شديدا على ان يكونوا حضريين عن جدارة ، في البستهم واطعمتهم واشربتهم ، وفي اسلوب حديثهم لما يتكلمون ويضربون الامثال ، ولما يعلقون على مجريات الكلام سخرية وتنكيتا .. اما حفلات العقيقة والختان وعقد القران والاعراس ، ومناسبات اعياد الفطر والاضحى وعاشوراء والمولد فتلك كلها فرص كانوا يستغلونها لاظهار شيء من البذخ والترفيه ، ولو تطلب منهم ذلك ديونا وتقتيرا على النفوس فيما بعد .

مسالة الاصل الحضري او الاصل البدوي لم تكن تهمنا نحن الصغار ، فهؤلاء اصدقائي : عبد الوهاب الدادسي ، والطاهر الغرباوي ، وميلود بن بوزكري ، ومولاي المكي الادريسي وانا .. كلنا نعيش في وئام ومودة في دربنا السعيد ، وتعتبر ام كل واحد منا بمثابة ام للآخرين ، وكذلك اخوانه واخواته ، اما الآباء فهم وحدهم الذين كانوا يتحفظون في هذا المجال ، ولولا هم لصار سكان الدرب اسرة واحدة .

صرامة الآباء وجهامتهم كان يمثلها على الخصوص (السيد الحاج عبد الرحيم) لكم كان ينتهرنا ، ويزمجر في وجوهنا ، ويبالغ فيمنع اختلاط ولده الوحيد بنا . لكن مما كان يشفي صدورنا ويبعث على ابتهاجنا ان اللصوص كانوا يترددون بين الحين والحين على منزله فيضحى واقفا بين ممثلي السلطة ، أثناء بحثهم ، وهو يرتجف من الخوف ، تعلوه صفرة ، ويهزه تأثر بالغ . لقد اكتشف ان البلاء يأتيه من (الخربة) المجاورة للمنزل والتي كانت مخصصة لتربية الدواجن ، وربط اكباش العيد ، وحفظ الاشياء الزائدة على احتياجات المنزل ... من هذه الخربة كانوا يتسورون عليه المنزل ويعيثون فيه سرقة ونهبا ، وبذلك يقلقون راحة هذا المتجبر علينا . وارتأى الوجيه بعد مشاورات ان يكتري الخربة لعمنا عباس ، فانضاف الى حينا عنصر جديد ، ترى كيف يكون ؟

ان حينا في الواقع حافل بالحركة ، تبتدىء فيه منذ الصباح الباكر ، فيتردد اولا (القرابون) يحملون قربهم العامرة بالماء على ظهورهم ، منبهين سكان البيوت الى بضاعتهم بدق اجراس نحاسية رنانة ، ويمر في نفس الوقت (حامل الازبال) ناقرا بعصاه على الابواب . وقلما تبقى بعد دقات الاجراس ونقرات العصي اية امرأة نائمة في فراشها ، ولا يبقى سوى الغلمان من امثالنا الذين يودون البقاء في الفرش متدفئين متلذذين بمداعبات النوم ومستسلمين لاغراآت الشيطان عليه لعنة الله بالعناد . وعند الضحى يمر (الطراح) — رمز الولد الفاشل في الحياة عند امهاتنا وجداتنا — مروره الاول مناديا بنغمته يجتهد في أن تكون جميلة ،

مطالبا باخراج (وصلات) الخبز ليحملها الى الفرن . كما يمر اليهودي مناديا على حذاء بال ، أو تنبيهات فارغة ليشتريها من النساء بأثمان بخسة للغاية !

يا للحظ السعيد ، لقد وجدنا (عمنا علال) شخصية لطيفة ، بما حبانا به من البشاشة والمودة ، وبما ارانا من جوانب الحياة الجميلة ، وبما شملنا به من الحماية والرعاية !

اية حماية واية رعاية ؟

الم اذكر لكم ؟ .. لقد كان غلمان الحي المجاور وهو حي (الطالعة) يهاجموننا ، يصيحون في وجوهنا بالصفير والزعيق ، ثم يشرعون في رمي الاحجار ، احجار مدمية من مختلف الاحجام ، كنا نداغع ونراوغ لكن بعد أن تشج منا الرؤوس وتدمى الجباه فننقلب الى اهلينا جرحى متألمين ، فيضطرون الى تكميد جروحنا بالنار ، وبرماد الخرق المحروقة ، وبالزيت الحامية .. كان هذا قبل أن يحل بنا عمنا عباس ، فلما حل وقف في وجوههم ذات مساء منذرا متوعدا ، وتحايل على متزعمهم فقبض عليه بشدة وعنف حتى أبكاه ، وكان كل ذلك كافيا لتوبتهم وكف اذايتهم عنا . قبلة حارة على كفك يا عم عباس !

عرفنا أن ساكن حينا الجديد يشتغل بالحياكة ، ولكنه يشتغل حسب مزاجه ، فهو يستيقظ باكرا ويذهب الى معمله الموجود بحومة (باب سبتة) ثم يعود عند الزوال ، ولا يرجع بعد ذلك الى المعمل ، لانه يخصص نصف النهار الاخير للاشتغال في مسكنه ..

كنا نتتبع أعمال عمنا عباس من خلال شقوق الباب كان أول عمل قام به أن نظف الحجرة الوحيدة وجيرها ، فغدت كحمامة بيضاء وسط تلك الارض القاحلة ، والارض القاحلة نفسها عمد اليها فنقاها من الحشائش والاعشاب الجافة ، حتى اذا تكونت لديه كومة عظيمة أوقد فيها النار ، وما تخلف من الرماد ذراه في أنحاء الحديقة ، وراح يقلب الارض يوما بعد يوم ، وقسمها احواضا متناسقة ، وبكامل الذوق والعناية والدقة شرع يبذر ويغرس ويسقي دون كلل ولا ملل .. وحول البيت الابيض صنع سورا من القصب المتعامد (المأموني).

وبقينا نتابع أعمال عمنا عباس من خلال شقوق الباب !

يا للروعة ، انه ما مضت أسابيع معدودة حتى نبتت في أنحاء المسكن نباتات متعددة ، واطلت من بينها ازهار لطيفة الاشكال ساحرة الالوان ، وامست تفوح كل عشية هبات من عبير تلك الازهار .

ومن شدة حرص عمنا عباس على جنينته كنت لا تلاحظ اي اثر للازبال او الحصى او الفضلات ، ذلك لانه يتتبعها تتبعا لا تهاون فيه ، ومتى تجمع له شيء رماه في حفرة عميقة يغطيها بعد الاستعمال ، انه بذلك يهيأ السماد الجيد لما يستقبل من الايام .. ولم تقهره مشكلة السقي رغم انه يتحمل من اجلها مجهودا منهكا، ما اشد تحمله وصبره ! ان حمل الماء من (السقاية) البعيدة عن المسكن بنحو اربعمائة خطوة من خطواته الواسعة لشيء منهك حقا ، خصوصا وان اليد اليمنى تكون مثقلة بسطل ضخم واليد اليسرى محملة بما يشبه الابريق الكبير من معدن الزنك ..

سامحنا الله !

لقد كان عمنا عباس يأتمننا على مسكنه خلال تردده على السقاية ، فلربما كان المفتاح الحديدي الثقيل الذي لا يدور في القفل الصدىء الا بصعوبة يتطلب منه مجهودا آخر ولذلك استعان بنا لنحرس له المسكن فترة تغيبه ، ولكن الفضول دفعنا الى معرفة ما في الداخل فكنا نتسلل واحدا واحدا الى المسكن لنرى الحديقة اللطيفة عن قرب ، ولنمتع البصر بأزهارها الخلابة ...

دخلت بدوري ، وسرت متفسحا بين الاحواض المزدهرة ، واستظللت لحظات تحت السقيفة الوارفة الظل ، ثم انسللت بعد ذلك الى الحجرة التي يقطنها عمي عباس، وهي حقا حجرة لطيفة نظيفة نظافة تامة، على اليمين منها لحاف بسيط فوقه مخدة وغطاء صوفي متين ، اللحاف والغطاء لا يكفي الا لشخص واحد ، واحد فقط . وعلى مقربة من الفراش كانت اعداد مبعثرة من مجلة (اللطائف المصورة) واعداد من جريدة (المغرب) . ان عمي عباسا قارىء فهو لا يعيش وحده وانما مع الاخبار والصور .. مددت يدي لاتمعن بعض الصور اما عناوين الجرائد فكانت عندي طلاسم يصعب حلها . وعجلت الخروج وانا التي نظرة على الصينية والغلاي النحاسيين اللامعين ، وعلى المجمر الطيني الذي يستعمله الرجل بعناية فلكانه لم يمس مطلقا . خرجت وقطة العم عباس متمددة في الشمس لا يعنيها من الامر شيء ...

صار وجود عمنا عباس بيننا أمرا عاديا ، فنحن نحييه بأدب ، وهو من جهته يبش في وجوهنا ، وينهانا اذا ما لاحظ منا مخالفة ، ويمنحنا بين الحين والحين

شيئا من رياحينه وورده ، واذا ما أبطأ (الطراح عن حمل خبز الى الفرن فان عمنا يقوم بذلك عن طيب خاطر وبرقة متناهية متجاوزا عن تهربنا وكسلنا ...

لكم تمر الايام سريعة مع هؤلاء الناس الطيبين ، فالسنة معهم بحسبان شهر ، والشهر كالاسبوع ، والاسبوع كاليوم ، واليوم ما هو الا عبارة عن لحظات ... واسفاه !

لقد حزم العم عباس بعض امتعته ، وخرج مسافرا الى حيث لا ندري ، كل ما قال لنا هو ان نعتني بقطته (ياسمينة) وأن نرمي لها قطعا من الخبز واللحم ان تيسر ، وأن نصب شيئا من الماء في حفرة حفرها !

حقا لقد أصبحنا في غربة في دربنا ، رغمان الغراب والزبال والطراح واليهودي ما زالوا يؤدون دورهم اليومي ، الاول بجرسه والثاني بعصاه والآخران بندائهما الملح .. خشيتنا كانت ان يعود غلمان (الطالعة) ولكنهم لم يفعلوا ، ومن اين لهم ان يعرفوا أن حامينا العزيز غائب عن الحي ..؟ اطال الله غفلتهم !

كنا نلعب ونمرح ، ثم نعود فنتذكر عمنا عباسا وشخصيته المهيبة ، الطيبة — في نفس الوقت — بيننا ، كنا ننتظر طلعة قامته النحيفة المديدة التي تملأنا بالاعجاب ، ووجهه الشاحب الصارم الخفيف اللحية ، وايضا تلك الكف العريضة القوية التي لا تفتر عن حفر الارض ، وعن استنباتها ؟ وعن سقيها بمآت الدلاء دون كلل أو تهاون .

وباحاسيس مؤلمة لاحظنا واحدا بعد آخر ان نباتات (عمنا عباس) اخذت في الذبول ، وان الزهور والرياحين غدت باهتة الالوان مشوهة الاشكال ، حتى امطار الخريف لم تبكر بالنزول لتنقذ هذا الروض المحتضر.. وماذا في استطاعتنا أن نعمل ؟

(عمنا عباس) كان قد رجع من سفره .. وبقى منعزلا عنا ! ذاعت هذه الاشاعة بيننا فكان من الضروري ان نتأكد منها .. وفعلا وجدنا أن العم عباسا قد عاد من سفره ، وانه اصبح لا يخرج الا بالليل بينما يقضي النهار بطوله داخل مسكنه ؟ ما السبب ؟ ما السبب يا ترى ؟ هل هو غاضب علينا ؟ ام هو مريض ؟ ام تراه جاء بحزمة من الجرائد والمجلات من بلاده البعيدة فهو ما زال منكبا على تصفحها ومطالعتها؟

يظهر ان هذا الاحتجاب الطويل لم يفد عمنا عباسا بشيء فاضطر الى الخروج من اجل كسب قوته بمعمل النسج ، وهناك سنحت لنا الفرصة تحت الغلمان الذين لم يبق معنا عمنا عباس على علاقته الودية لنبحث بوسائلنا الشيطانية عسى أن نكتشف السر .. وفعلا اكتشفناه . لقد تزوج عمنا عباس !

استمررنا في التطلع الى الداخل ، من خلال الشقوق ، بفضول شديد ، فاذا بزوجة عمنا عباس تطل من باب الحجرة متهيبة متوحشة ، ثم تنفر وتعود الى الاختفاء بالبيت . لكن القطة التي كانت سلوتها ومؤنستها كانت تفر منها الى الخارج فتوقعها في الحيرة : هل تلازم البيت أم تتبعها ؟ واخيرا وبعد تردد طويل قررت ان تتبعها ، وهكذا رأينا زوجة (عمنا عباس) الصغيرة !

لقد كانت هذه الزوجة في مثل قامتي انا ابن العشر سنين ، ولكنها نحيفة جدا بدرجة أن عمنا عباسا يمكن أن يشد على محزمها بسبابتيه وابهاميه بسهولة ، وهي بيضاء ناصعة البياض ، شقراء الشعر ، مستديرة الوجه ، واسعة الفم ، حمراء الانف ، موردة الخدين ، دقيقة العنق بارزة الحنجرة ، ضيقة الاكتاف طويلة الذراعين ، يشف جلدها عن عظام اصابعها وكفها ، اما الساعدان والذراعان فيسترهما اللباس الفضفاض الذي ارتدته من يوم عرسها على ما يظهر .. وتسمرت عيوننا على عينيها العجيبتين ، تينك العينين الزرقاوين المستديرين المشحونتين باليقظة والذكاء كعيني قردة ، نعم كعيني قردة تماما !

وسمعت المراة الصغيرة بهمسنا من وراء شقوق الباب وبضحكاتنا المكتومة فاجفلت اجفالا كبيرا ثم توارت عن اعيننا لمدة ايام ... ولكن يظهر انها ملت من البقاء داخل البيت، ولذلك فضلت الخروج لتتجول في الحديقة المهجورة دائسة على الاعشاب الجافة والاغصان الميتة بـ (شيربيليها الجديدين باحثة عن زهرة او ريحانة من الرياحين في انحاء هذه الحديقة المهملة ، التي لم تمسها يدا العم عباس منذ رجع من سفرته متزوجا !

ووصل بالعروس طوافها حول المكان الى الاقتراب من الباب ، وهنا كنا نتشاغل عنها بالحديث متجاهلين ، وتضع هي اذنها على الباب وتروح تتصنت الى كلامنا — الذي نجتهد في أن يكون لطيفا — والى حكاياتنا التي نسرد بكيفية تبعث على الضحك العميق، ثم نخنق الضحكات في افواهنا خنقا شديدا لنستمع الى ضحكتها الرقيقة الجميلة . ثم نعمن في ايقائها بقربنا بتصوير ما يوجد في الحي من نساء ورجال وبذكر

اخبارهم واسرارهم ، وايضا بتقديم عرض عن اسواق المدينة وحوانيتها ومتاجرها الكبرى التي يباع فيها كل ما تشتهيه الانفس وتلذ به الاعين .. لقد كانت احاديثنا الوصفية تلهب خيالها وتولد فيه ثورة .. وبهذا الفت الاخت عشرتنا ومتابعة احاديثنا ، حتى انها بمجرد خروج عمنا عباس في الصباح كانت تبادر وتأخذ جلد الخروف الصوفي ، وتحتل مكانها خلف الباب ، منتظرة متشوقة في صمت ، صمت غريب من صبية مثلها ، مع أننا نحن ترناءها لا نكاد نكف عن الكلام !

واصطنعنا حيلة لنشركها في الحديث ذلك اننا كنا نطرح أحاجي معروفة ومتداولة ثم نظهر وكاننا نجهل الحل ونروح في صمت عميق مصطنع الى ان ياتينا الجواب من وراء الباب ممتعا ، من الذ ما يكون الامتاع، وهناك نهتز من الفرح مصفقين مشيدين بذكاء ابنة (الجبل) اختنا زوجة عمنا عباس ، ويظهر ان التنويه عمل عمله في نفس الفتاة ، فراحت تحكي لنا بصوتها الهامس حكايات الجبل ، وكان يعجبنا في هذه الحكايات غموضها ، وغرابة لهجة حكايتها ، والصراحة الخطيرة في بعض مواقفها .. الا ما اجرا الجبليات !

وذات ضحى ونحن منسجمون مع حكاية رفيقتنا، لا يهمنا من يمر بنا من زبالين او طراحين او يهود اذا بنا نفاجأ بعمنا عباس واقفا عند رؤوسنا، يخرج كل واحد من حلمه اللذيذ بركلة قاسية موجعة، وما كفاه ذلك بل اتبعنا بعبارات من السب المقذع ، وهددنا فوق ذلك انه سيسلط علينا صناديد (حي الطالعة المعتدين . وما مرت فترة حتى سمعنا — ويا للهول — العروس الصغيرة تصيح وتستغيث من ضربات زوجها العتي . لقد ظل الحي وامسى في حالة من الكآبة المريرة . وبات كل واحد منا يفكر في العلاقة التي سنصير عليها مع العم علال ! اننا في الواقع كنا نرتعب — قلوبا واجسادا — من تصور عمنا علال وقد صار عدوا لدودا لنا !

واصبح الصباح في اليوم التالي واذا الخبر المفاجىء يشيع بيننا . ان العم عباس قد ارتحل ، ارتحل الى جهة مجهولة ، وترك باب الخربة مفتوحا على مصراعيه . وقبل ان يستيقظ جارنا الوجيه الكسلان تسللنا الى الخربة رحنا نتجول في المسكن المهجور آسفين تكاد الحسرات تذيب قلوبنا الصغيرة، ربما على عمنا عباس حامي الحي ، وربما على زوجته الصغيرة الطيبة التي اسرت قلوبنا الفتية بأنسها ولطفها . ربنا كن في عونها واسعدها من بعدنا ، والهمنا يا ربنا نحن صبرك الجميل وسلوانك ..

شيء من السلوان وجدناه في حزم الجرائد والمجلات التي تركها عمنا عباس من ورائه . تركنا الجرائد واخذنا المجلات نتصفح الصور بامعان شديد ، مغالبين في نفس الوقت زفراتنا العميقة المتصاعدة .

الرباط — محمد احمد اشماعو



تأملات فلسفية على نتائج العلم :

المشكلة الأخلاقية لعمليات ابدال القلب واعادة الحياة

للأستاذ : مبارك ربيع

بدانا نعتاد الحديث عن عمليات القلب ، بعد ان زالت الدهشة الاولى والاستغراب . واذا كانت هذه العمليات ، من الوجهة العلمية الخالصة يجب الا تتميز عن غيرها من عمليات ابدال الاعضاء الاخر ، فانها من الناحية الانسانية تستدعي وقفات ، وتثير تأملات . حقا ان عملية ابدال القلب لم تصبح حقيقة علميـــة متداولة ، لان نسبة النجاح فيها ضئيلة جدا ، وبعض الجراحين يردون ذلك النجاح الى مجرد الصدفة ، وذلك لانهم يرون ان البشرية ممثلة فى علمائها ، لا تزال بعيدة عن ان تحيط بأسرار الجسم الحي ، ومن هنا تنجم بعض الصعوبات فى ميدان جراحة القلب اهمها على الاطلاق ، وحسب ما أعلنه العلماء : تلك الخاصية التي يتميز بها الجسم الحي وهي رخصة لكل ما هو غريب عنه ، ولو تم التغلب على هذه الصعوبة لتيسرت عملية ابدال القلب ، لان جراحة القلب ضاربة فى التقدم بالنسبة الى غيرها من العمليات الجراحية المعقـــدة .

ولكننا قد نتجاهل هذه الصعوبات البيولوجية التي من شأن الاطباء والعلماء وحدهم أن يتحدثـــوا عنها . وننتقل الى مجال التأمل النظري . وهنا نلمس مشاكل سيكولوجية واجتماعية واخلاقية تنجم عـن عمليات ابدال القلب وعمليات ابدال الاعضاء عموما . ومن هذه المشاكل : التعريف الطبي والقانوني للموت الاكلينيكي . وعلاقة الروح بالجسد . ومركز الحياة الانفعالية والعقلية فى الانسان . وتحديد الشخصية وابعاد الشخص الحقيقية .. الخ . هذه بعض المشاكل التي يثيرها اتجاه العلم نحو ابدال الاعضاء البشرية ، وكل واحدة منها تجر وراءها نتائج غاية فى الخطورة والاهمية. وقد كتب كثير من المفكرين فى هذا الموضوع. بيد ان كتابة Jean Rostand لها اهميتها خاصة وانه حاول أن يتتبع النتائج الاخلاقية لهذه العمليات فى بداية انتشارها بالاضافة الى مكانته العلمية كعضو فى الاكاديمية الفرنسية ، وقد نشر مقاله هذا فى نهاية سنة 1967 (1) . ونبه فى اول مقاله الى « ان عـــدة مئات من الخلائق توجد فى العالم ، وهي لا تستطيع ان تحيا ، تحمل فى هياكلها كليات من كائن غريب عنها . » والواقع ان عمليات ابدال الكلية كثرت ، واصبحـــت بفضل تقدم البيولوجيا عمليات عادية . وقد اهتـم العلماء بهذه الاعداد من الناس التي تحمل اعضاء غير اصيلة ، وبداوا فى وضع اسماء خاصة بها ، تميزها عن سائر الناس العاديين ، اسماء مركبة تركيبا علميـــا كتلك التي توضع للعقاقير الجديدة ، او الكائنـــات الغريبة . لكن العملية التي هـزت العالم هي عمليـة ابدال القلب . ويعلق جان روستان على العملية التي قام الدكتور « برنار » بقوله : « بالتأكيد ، فان المرحلة لا تزال بعيدة عن ان تتم ، اذ لا نستطيع ان نؤكد بان

(1 «Les Nouvelles Littéraires», du 21 décembre 1967.

الشخص الذي يحمل القلب البديل ، سيقبل العضو الجديد بصفة نهائية . » وهذه احدى المشكلات الاساسية التي تتردد في الاوساط العلمية . وهي لا تزال بعيدة عن ان تؤدي بنا الى المشاكل الاخلاقية ، فهي علمية صرفة . ونلاحظ بصددها . ان المدة اللازمة لتعطي صورة نهائية عن قبول العضو الجديد لم تقدر بعد . وهل تقدر بالشهور ام بالسنوات ام بالعقود من السنين ؟ .

ان القلب في الكائن البشري عضو مقدس وقد اسهم الادب في اضفاء هذه الصفة على القلب بنصيب كبير . فالشعراء تغنوا بالقلوب ، وجعلوا الناس يتخيلون انهم ــ كشعراء ــ يصدرون في هذه القلوب . بل ان الدراسات السيكولوجية الكلاسيكية اعتمدت بدورها على دور القلب كمجمع للحياة الوجدانية « او ليس القلب مستودع الحساسية ، والانفعالية ؟ ! » .

من هذا الدور الذي نسب الى القلب تنهض احدى المشكلات الاساسية من مشاكل الشخصية البشرية ، « اليس لنا ان نفترض باننا عندما نبدل قلب شخص ، بقلب شخص آخر فان نفسانية الشخص تتغير او ان مزاجه يتغير على الاقل ، وطبعه ، ودرجة حركته ؟ » ان لهذا التساؤل ما يبرره . ذلك ان بعض الاعضاء في البدن ، تأكد ان ازالتها تؤثر تأثيرا مباشرا في الشخصية البشرية في كل مقوماتها ، مثال ذلك الدماغ ، فهذا العضو لا يمكن الاستغناء عنه او ابداله دون المس بالشخص ككل . وهنا يورد جان روستان كلمة لبول شوشار Paul Chauchard يقول فيها : « اذا استطعنا ان نفصل الدماغ عن البدن ، فمن المؤكد ان الشخصية تتبع الدماغ ولا تتبع البدن . ذلك ان الدماغ وهو العضو الذي يحصل به الاكتمال والتشخص ، يحفظ في بنياته الذكريات التي هي اساس الانــــا » .

بالطبع ان هذا الراي الذي يورده جان روستان على لسان شوشار يعتمد على نظرية مادية تربط الحياة النفسية بالحياة الفزيولوجية . وقد ازهرت هذه النظريات على يد تشريحات « بروكا » وتحليلات « ريبو » وذلك ، فيما يتعلق باتصال الذكريات وعملية التذكر كلها بالدماغ خاصة . وبالرغم من النقد العنيف الذي وجه الى هذه النظريات الفزيولوجية ، فان التقدم المادي الذي يخطو بالانسان خطوات متتابعة متلاحقة ، وتقدم التقنية ، لا يجعل للانسان منصرفا عن هذا الراي . ومهما يكن فان الصعوبات التي تقف في وجه عملية ابدال القلب ليست تقنية على الاطلاق . لان هذه المشكلات يمكن دائما التغلب عليها ، بل المشكلة الاساسية من الناحية العلمية هي مشكلة بيولوجية . اي مشكلة طبيعية ، ناجمة عن خصائص نسيج الكائن البشري ، ولكن اذا امكن في يوم من الايام ان يتغلب العلماء حتى على الصعوبات البيولوجية ، فان الصعوبات الاخلاقية تستمر موضوعة للبحث وتثير الكثير ، من الاسئلــــة .

ان الصعوبات الاخلاقية تبدا من كون عملية ابدال القلب تمس طرفين : الشخص الذي ينزع قلبه . وهذا يجب ان يكون مات موتا اكلينكيا ، اي لم يبق له اي حظ في استرجاع حياته . والطرف الثاني هو الشخص الذي يركب له القلب الجديد . وهذا الموقف يتطلب كما يثبت ذلك جان روستان اتخاذ قرارين في مستوى واحد من اليقين الذي لا يخامره اي شك « ونعلم الى اي حد يصعب اتخاذ مثل ذلك اليقين . في الميدان الطبي . فالموت الاكلينكي « Mort clinique » يعتمد مفهومه طبيا على « الخمود الكهربي » « Silence électrique » للدماغ . ولكن هل يستطيع العلماء ان يحددوا هذا الموت بدقة ، دون خالجة من وسواس ؟ ! هذا السؤال بالضبط هو الذي يوجهه جان روستان الى الجراح الدكتور برنار . « او لا يحتمل في كثير من الظروف ، ان وصف الموت الاكلينكي يؤخذ بكثير من التسرع ؟ » هذا جوهر المشكلة الاخلاقية ، فالجراح سيتسرع غالبا لانجاز عمليته ، لان ظروف المريض المنتظر للقلب الجديد تدفعه ، كما يدفعه طموح العالم ودوافع اخرى ... فيقرر ان حالة الموت الاكلينكي قد تم وتحقق . كما يتم له نزع القلب وهو في حالة النبض ! .

ان الاخلاقي لا بد ان يتخوف وان يتردد .. » هذا الاحتمال الذي قد يجعل انقاذ حياة فرد يقع على حساب آخر امام الاغراء المادي والمعنوي . والاخلاقي لا يزعم دائما ان العالم مدفوع باغراء فحسب ، بل انه ليأخذ بعين الاعتبار ان العالم قد يقاوم كل اغراء . لكن الصعوبات الاخلاقية لا تمحى . انها كامنة في هذه السلطة المطلقة التي تجعل العالم في برهة معينة يحكم بأن هذا المريض يعد في حكم الميت بينما لا تزال بقية من حياة في القلب . اليس في هذه السلطة ما يرعب الضميـــر ؟ .

وتظهر المشكلة الفلسفية الكبرى التي هي اهم مشاكل الميتافزيقا قديما وحديثا ، عندما تثار قضية

العلاقة بين الروح والبدن بمناسبة عمليات ابـدال القلب او مشكلة التنفس والجسم . لقد ذهب الفلاسفة مذاهب شتى بهذا الصدد ، بل نقطة تفرقهم هي هذه بالـذات .

فما علاقة الجسم بالنفس ؟ وهل هما قابلان للاتصال ام غير منفصلين ؟ الواقع ان نجاح عمليات ابدال الاعضاء عامة تجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن الكائن البشري كائن روحي وان « الاعضاء انما تكون بدنيا جزءا منا ولكنها ليست نحن انفسنا » . ان هذا الراي يميل الكثير من الناس الى اعتناقه ، ومنهم كبار رجال القانون ، الذين تمسهم المشكلة مباشرة عند تطبيق النصوص التشريعية ، وعند صياغتها ، فلا مندوحة لهم عن اعتبار الاعضاء البدنية مجرد « اشياء » ، تنضاف الى الشخصية من خارج ، تماما بالمشكل الذي تنضاف به الينا الاشياء التي نستعملها في لبسنا من حذاء ونظارة او معطف ... والواقع ان هذه الروحانية الحديثة وحتى في صدورها رجال القانون ، تتشكل بنفس الثوب التقليدي للنزعات الروحانية الفلسفية الاصيلة . والتعريفات التي تحاول تقديمها للشخص باعتبارها كائنا روحيا لا تخلو من الغموض المالوف في النزعات المتافزيقية . وقد اورد جان روسطان تعريف « الشخص » كما يراه انصار هذا الاتجاه فاذا هو : « ليس روحا ، او نفسا ، او كيانا متافزيقيا ؛ بل هو حقيقة مادية ، جعلت من مادة نقصر عن معرفتها » .

ان كل المشكلة التي تضعها الروحانية هي في تصور مادة من هذا النوع الذي لا تدركه . فكيف نحكم بان ما لا نعرفه هو مادة . وما مفهوم المادة اذن ؟ .

هكذا نجد اننا قطعنا شوطا يصل بنا الى القرن الاخر ، حيث نواجه النظرية المعارضة للروحانيين والتي يلخصها جان روسطان بموقفه هو بالذات بقوله:

« اتراني بحاجة الى ان اقول بأن الامر بالنسبة لي ، انا الذي لست رجل قانون ولا فيلسوفا ثانيا ، بكل بساطة هو ان بدننا ــ بكليتيه وقلبه ودماغه الخ ــ هو الذي يكون شخصنا الحقيقي ؟ » وحسب هذه الوجهة من النظر فان الشخص يصبح قابلا للتجزئة . وللقانون بعد ذلك أن يسوي المشاكل بالنظر الى الحقيقة البيولوجية . ويؤكد جان روسطان موقفه في نهاية مقاله وكأنه يجهز على آخر محاولة روحانية بقوله : « ان البيولوجيا وهي تتعمق في الواقع المجسد الشخص من جديد وبدون توقف ، ما تنفك تعيق اولئك الذين يريدون ان ينقذوا التجريدات المتولدة عن عقلنا » .

بالطبع ليس هناك ما يلزم الزاما نهائيا احد الطرفين بموقف الاخر . فالمسالة مسالة اقتناع بل مسالة اطمئنان شخصي قد يعجز العلم عن حلها الى الابد ، ما دام منهج الروح ليس هو منهج المادة . لكنها تستمر مشاكل مباشرة في حياة الانسان المعاصر الذي هو موضوع عمليات ابدال القلب او الدماغ ، وعليه أن يتخذوا موقفا منها . لانه مهدد بالاقبال عليها والمشاركة فيها كل يوم .

على ان عمليات ابدال القلب ليست وحدها التي تثير هذه المشاكل ، بل هناك في الميدان البيولوجي والفزيولوجي دائما ما يثيرها . وأعني بذلك جهود العلماء في علم جديد يهتم ببعث الاجساد والانتصار على الموت . افليست عمليات ابدال الاعضاء تهدف الى الاحتفاظ بالحياة اطول مدة ممكنة ؟

اذن فلنتامل بعض ما كتب حول هذه المجهودات، ولناخذ المثال في هذه المرة من عالم آخر ، من الاتحاد السوفييتي .

* * *

« علم اعادة الحياة » وما يترتب عليه من مشاكل:

لا جدال في ان العلم في خدمة الانسان ، وانه الطريق الوحيد لتحقيق سيادة الانسان على الطبيعة ، كما اراد ديكارت ، ولا جدال ايضا في ان العلم ، يواجه مشاكل مستعصية ، في ميادين الفلك والطب والاختراع ... الا ان التطور والتقدم المتلازمين ، في الوسائل التي يستخدمها العلم ، تبعث على الاعتقاد بأن كثيرا من تلك المشاكل ستجد حلها الاخير عن طريق العلم . ولكن هل ثمة مجالات يمكن ان تبقى خارج سلطة العلم ؟ اي انها « بطبيعتها » غير قابلة للسيطرة العلمية ؟ ولناخذ مشكلة الموت كمثال . فما زالت هذه الظاهرة ، بغض النظر عن الرؤية الوجدانية لدى الافراد ، مبعث تساؤل حق . وهنا نود ان نلقي نظرة على احدث ما يقوله العلم بهذا الصدد . ونشير الى ان فرعا من الدراسات الفزيولوجية ، اصبح قائما بذاته ، تحت اسم « La réanimatologie » يهتم بالحالات التي يموت عليها الانسان ، والطرق التي يمكن بها انقاذه من الموت . ونشاهد ذلك حولنا ، على

مستوى مبسط : في الطرق التي يقوم ، رجال الانقاذ ، في حالات الغرق او صعقة التيار الكهربائي . وقد طلعت « اخبار موسكو » بتاريخ 28 يناير 1967 بمقال كتبه البرفسور فلاديمير نكوفسكي V. Negovski مدير المخبر الفزيولوجي المختص بهذا الموضوع ، والذي يدير هذا المخبر ، منذ تأسيسه منذ اكثر من عشرين سنة .

جاء في تقديم المقال « منذ خمسة وعشرين عاما، نجح ثلة من العلماء الروس ينتسبون الى هذا المخبر ، في اعادة الحياة ، الى جندي جريح ، هو ف. تشيرباتوف ، الذي لا يزال على قيد الحياة . وتلا ذلك انقاذ العديد ، بفضل الطرق التي توصل اليها المخبر الذي يديره البرفسور نكوفسكي منذ تأسيسه » ويلاحظ هذا العالم ، ان كثيرا من المفاهيم التي كانت تتعلق بالموت ، قد طرا عليها تغير اساسي . فلم يعد توقف القلب ، ولا لفظ آخر نفس ، يعني الموت النهائي بالضرورة . وقد اصبحت كثير من المؤسسات اليوم ، تهتم بطرق اعادة الحياة (La réanimation) وتقول الاحصائيات ، ان المصالح المختصة بذلك قد تلقت في السنوات الاربع الاخيرة ، حوالي ثلاثة الاف مصاب ، امكن انقاذ اكثر من 40 ٪ منهم . والواقع ان النظر في طرق استرجاع الحياة ، هو اقدم مما ذكر في بداية هذا الحديث ، وربما يرجع بالضبط الى سنة 1901 عندما نشر عالم فزيولوجي ، هو بخميتيف P. Bakhmetiev كتابا بعنوان : « ما يجب عمله للحياة الى القرن الحادي والعشرين » وقد اهتم هذا العالم بدراسة حالات عجيبة ، تثير الدهشة ، وهي حالات l'anabiose التي تستعاد فيها الحياة ، بالرغم من تحقق بعض الظواهر ، التي توقف الوظائف الحيوية كانخفاض الحرارة مثلا ، على نحو يبدو وكأن الموت قد تحقق بالفعل . وقد اجرى العالم المذكور بعض التجارب على الخفافيش ، تتخلص في تخفيض درجات الحرارة ، الى مستويات ، لا تتحملها تلك الكائنات في العادة وحيث يفرض ان العمليات الحيوية ، قد توقفت نتيجة انخفاض الحرارة ؛ ثم بعد ذلك ، عاد العالم الى تسخينها تدريجيا الى المستوى العادي ، لاستعادة حياتها . فهل يمكن في ضوء المعطيات الحالية للعلم ، ان يعمم ذلك ، ويطبق على الانسان خاصة ؟ ، ان النجاح الذي احرزته تجارب من هذا النوع ، في مستوى الحيوان ، لا تزال ابعد ما تكون عن النجاح في مستوى الانسان ، ففي تجارب كتخفيض الحرارة ، الى الحد الذي تتوقف معه الوظائف الحيوية ، لا يزال من المتعذر اخراج الكائن البشري من حالة التجمد الكلي الى حالة الكائن الحي . فمجز الطب المعاصر هو في اعادة تشكيل الوظائف الحيوية بعد توقفها النهائي . الا ان هذا ليس بكاف مطلقا لاغلاق باب الامل ، ومـا زال باستطاعة الطب الحالي ، بناء على التجارب ، ان يقول : « ... القلب قد توقف ، وانقطع التنفس ، ولم يعد المرء حيا ؛ الا انه لم يمت بعد » .

الامل اذن ، قائم في هذا الفارق ، بين توقف العمليات الحيوية الكبرى كنبض القلب ، والتنفس ، وهو ما يعبر عنه بالموت الاكلينكي ، وبين الموت الفزيولوجي ، الذي يعني توقف جميع الوظائف الحيوية ؛ وهو الموت النهائي ، الذي يعقب الموت الاكلينكي بدقائق خمس او ست . فمن مصلحة الطب اذن ان يطول الفارق الزمني بين الموتين ، حتى تتاح له فرصة التدخل ، قصد تمديدها ، وربما توصل الى انقاذ الانسان . ويقول البرفسور نكوفسكي بأن هذا الفارق الزمني ، بين الموت الاكلينكي ، والموت الفزيولوجي ، قد امكن تمديده الى ثلاثين دقيقة بالنسبة للقرود ، والى ساعة او ساعتين احيانا بالنسبة للكلاب . لكن اهم مشكل يواجه القائمين بهذه التجارب، هو الاحتفاظ بحيوية الكائن المتعضي ، بعد انتشاله من براثن الموت : « وقد اظهرت التجارب ان احياء المتعضي ، اسهل بكثير من الاحتفاظ له ، بجميع وظائفه الحيوية » . فاستعادة الحياة في مثل هذه الاحوال ، انما هو بارقة امل ، تشرق فيها الحياة ، بفضل الطرق الخاصة المتبعة ، لمدة دقائق ، ثم تخبو لصعوبة الاحتفاظ بها ، نظرا الى ان الحياة ، ولو تعدت هذه الدقائق ، انما تستمر في اغلب الاحيان ، تحت تلك الطرق ذاتها ، وليست تلك بالحياة التي يسعى وراءها العلم . أما حالات معروفة ، كتلك التي تنجم عن صعق التيار الكهربائي لشخص او بعض ارتجاجات في العروق الدموية بالقلب ، فان آلة خاصة، تتدخل لاعادة تنظيم العمليات الحيوية .

يبقى سؤال هام : ما الذي يحدث في حالة الموت الاكلينيكي ، وكيف يتم الانتقال منه الى الموت الفزيولوجي ؟ او لنقل في اي شيء تتركز جهود العلم ، للخروج بالمرء من حالة الموت الاكلينكي ، الى استعادة الحياة ؟ ، يقول البرفسور نكوفسكي : « ان العلماء توصلوا الى ان عناصر سامة تتجمع في البلازما الدموية وتمنع اعادة الحياة ، ولاستخلاص هذه العناصر

« يعمل » الدم : فتفرغ البلازما من جسم الانسان ، بينما تطلق مادة دموية (erythrocytes) مغسولة بمحلول فزيولوجي ، في الدورة الدموية » .

وينتهي البرفسور نيكوفسكي ، الى ان الهدف صعب ، وهو يدعو الى تضافر الجهود ، واقتسام المسؤوليات بين الاطباء والجراحين والفزيولوجيين.. لتحقيق ذلك الهدف .

وبالرغم من أن الكلمة الاخيرة هي للمختصين وحدهم ، وان كل استباق لاستخلاص النتائج النهائية، في موضوع كهذا ، ينطوي على كثير من الغفلة ؛ لكن بما اننا اموات بطبيعتنا ، فان الموضوع يدعونا الى ان نحلل معطيات العلم ، في ضوء امكانياتنا الراهنة . وهنا نلاحظ ان عملية استفراغ الكائن من البلازما ، لاستخلاص العناصر السامة ، يجب أن تتم في الفترة الزمنية ، التي تفصل بين الموت الاكلينكي والموت الفزيولوجي ، اي دقائق معدودات ، وهذا لا يقدر صعوبته الا المختصون . فلنفرض ان العملية نجحت وامكن انقاذ الشخص ، فهل يكتسب المناعة التامة ضد تعرضه لمثل تلك الحالة من جديد ؟ ليس هناك ما يشير بالايجاب . ومعنى ذلك ان جهود العلم في هذا الصدد تنحصر في الانتصار على الموت الاكلينكي ، اذا تحقق هذا الانتصار ؛ وهذا يقارن بانتصاره في حالات الاصابات البالغة الخطورة ، والتي ينجو منها المصاب باعاجيب العلم . وهنا نشير ، الى ما جاء في جواب لاحد الخبراء ، (في التجمع السنوي ، لجامعات دول البحر الابيض المتوسط يوليوز 1966 والمنعقد بجامعة اكس ـ ان ـ بروفانس بفرنسا) عن سؤال يتعلق بنفس الموضوع : اي هل ثمة امل في انتصار العلم على الموت ؟ فكان الجواب :

ان انتصارات العلم ، في هذا المجال ، وحتى ما يمكن ان ينتظر من انتصارات مقبلة ، في ضوء المعطيات الحالية للعلم ، انما تتم في حالات الموت المفاجيء ، الناتج عن اصابات او صدمات تؤدي بالمرء في الحال . فتدخل العلم هنا ، اذا تم على احسن وجه ، قد يؤدي، الى الخروج من حالة الموت الى حالة الحياة . اما الموت فمعناه العميق ، كتلاش تدريجي للوظائف الحيوية ، فليس ما يدعو الى التفكير في الانتصار عليه، وهو يبدو كنهاية اصيلة للجسم الحي .

ما نظن صاحب هذا الراي متشائما ولكن في ضوء المعطيات الراهنة ربما كان الانسان اميل الى اعتبار عملية الموت الفزيولوجي اي الموت النهائي ، لآخر وظيفة يؤديها الكائن الحي ، كما يؤدي اية وظيفة حيوية اخرى .

الرباط : م. ربيع

أنباء ثقافية

* تصدر قريبا عن مطبعة الرسالة بالرباط ، مجموعة قصصية للاستاذ الحاج احمد بناني .

* زار المغرب فى الايام الاخيرة وفد يتكون من ثلاثين طالبا من المدرسة الوطنية للفلاحة بتولوز . وتدخل هذه الزيارة فى نطاق التبادل الدولي بين الشباب . وقد اعرب الوفد عن اعجابه بعمارة المدن ، وبالاخص مدينة فاس .

* دشن الاستاذ محمد الفاسي ، رئيس جامعة محمد الخامس معرض مدارس محمد الخامس بالرباط . وقد حضر حفلة الافتتاح عدد كبير من رجال الفكر والادب الى جانب طلاب المدرسة واساتذتها .

* يعكف السيد هاشم المهدي الشريف من ليبيا على تحرير رسالة جامعة من مجلة « البحث العلمي » الذي يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط .

* اقامت جمعية الشباب الفلاحي بالمغرب مهرجانا كبيرا بفندق هيلتون برعاية سمو الامير مولاي عبد الله .

* زار المغرب مؤخرا الصحفي المصري الاستاذ رضا ممدوح مدير ورئيس تحرير جريدة «الجمهورية» القاهرية . وقد قام خلال زيارته للمغرب بجولات في كبريات المدن المغربية .

* كما زار المغرب وفد من الصحفيات الليبيات يضم السيدة خديجة الجاهمي ، والسيدة فاطمة اكرازة ، والانسة سعاد فتح الله .

* صدر العدد الخامس عشر من مجلة «الوحدة» التي تصدرها وزارة شؤون موريطانيا والصحراء المغربية . وقد جاء هذا العدد حافلا بالموضوعات والابحاث حول صحرائنا وتاريخها .

* اصدرت وزارة الشبيبة والرياضة كتابا بعنوان : « من تراث المغرب » يتضمن مجموعة من المحاضرات التي القيت خلال الموسم الثقافي فى جميع انحاء المغرب .

* بمناسبة مرور 35 سنة على تاسيس ثانوية « النهضة » بسلا ، اقامت الثانوية مهرجانا حافلا ، تخليدا لهذه الذكرى .

* اقام الشاعر الفنان كمال الزبدي معرضا للوحاته بقاعة فندق « اقربت » بشاطيء الصخيرات ، كان له صدى طيب فى نفوس الزائرين .

* عين صاحب الجلالة الملك المعظم ، ثلاثة وزراء للتعليم : الاستاذ حددو الشيكر للتعليم الابتدائي ، والاستاذ قاسم الزهيري للتعليم الثانوي ، والاستاذ عبد اللطيف الفيلالي للتعليم العالي .

* نظمت وزارة الشبيبة والرياضة رحلة الى فرنسا ابتداء من 4 يوليو الى فاتح غشت من هذه السنة للراغبين من الشباب فى القيام بهذه الرحلة .

* ترأست صاحبة السمو الاميرة للا امينة حفلة توزيع الجوائز على تلامذة مؤسسة الاميرة للا امينة بالدار البيضاء .

* اقامت مديرية المعهد الوطني للموسيقى ، والرقص ، والفنون الجميلة ، مهرجانا فنيا بمسرح محمد الخامس بالرباط ، بمناسبة انتهاء السنة الدراسية . وفى هذا الحفل قدم تلاميذ المعهد نماذج

رائعة من الرقص الكلاسيكي ، كما عزف جوق المعهد مقطوعات نالت الاعجاب .

※ اقام سفير المغرب فى تونس حفلة سلم خلالها السيد السفير لوفد عن مدينة القيروان ثلاثة اعمدة من حجر المرمر التي اهداها جلالة الملك لمسجد عقبة ابن نافع اثناء زيارة جلالته لهذه المدينة .

※ نظمت فى جميع الاقاليم المغربية حفلات تخلد ذكرى عيد ميلاد صاحب الجلالة الملك المعظم .

※ وفد على المغرب مجموعة من الشباب الكندي فى زيارة دراسية وسياحية نظمتها وزارة الشبيبة والرياضة ، وتدخل هذه الزيارة فى نطاق تبادل وفود الشباب بين المغرب والاقطار الصديقة .

※ منحت جامعة مدريد الدكتور طه حسين درجة الدكتوراه الفخرية تقديرا للدور الكبير الذي لعبه فى النهضة الادبية العربية الحديثة .

※ اقام نادي القصة ورابطة القلم الجديد بتونس حفلة تكريم على شرف الاديب الليبي القاص عبد الله القويري بمناسبة صدور مجموعته القصصية «الزيت والتمر » ، كما اقيمت حفلة تكريم للاستاذ محمد العروسي المطوي بمناسبة صدور قصته الجديدة « التوت المر » .

※ صدرت لحسن نصر من تونس مجموعة قصصية باسم « ليالي المطر» ، وهي الحلقة الاولى من السلسلة القصصية التي شرعت فى اصدارها الدار التونسية للنشر باشراف « نادي القصة » .

※ صدر عن الدار التونسية للنشر العدد السابع من مجلة « قصص » التي تصدر عن كل ثلاثة اشهر .

※ صدر فى تونس عن مطبعة « المنار » كتاب « جيش التوشيح » للسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة 776 هـ . وهو اوسع مجموعة من الموشحات الاندلسية عرفت حتى اليوم تضم 165 موشحا جلها غير معروف سابقا . وقد حققه وقدم له وترجم لوشاحيه البحاثة العراقي هلال ناجي . واعد اصلا من اصليه الشيخ محمد ماضور الاندلسي .

※ سيبدأ العمل فى انشاء المدينة الجامعية الليبية فى اوائل هذا الشهر .

※ يجري الدكتور سهيل ادريس ، رئيس تحرير مجلة « الآداب » اللبنانية اتصالا مع الكتاب اللبنانيين لانشاء « اتحاد الكتاب اللبنانيين » .

※ يصدر فى هذه الايام عن دار « الآداب » ببيروت كتاب « تشريح جثة الاستعمار » للكاتب الفرنسي دوبشير ، الذي قام بترجمته ادوار خراط .

※ وسيصدر كذلك عن نفس الدار كتاب «ريجس دوبري » بعنوان : « دفاعا عن الثورة » ، قام بترجمته الى العربية الاستاذ نزيه الحكيم .

※ نعت لبنان الشاعر المعروف الاستاذ بولس غانم عن 85 سنة .

※ اصدرت الباحثة مهى المقدم كتابا عن المشكلات الاجتماعية وتفكك الاسرة وانحراف الاحداث . والكتاب صدر عن مركز تدريب العاملين مع الاطفال في بيروت .

※ اصدر الاستاذ باسيل دقاق من لبنان كتابا بعنوان : « الباب الذهبي » يشتمل على انطباعاته عن الرحلات التي قام بها الى عدد من بلدان آسيا .

※ « الحية فى حياتنا وتراثنا » عنوان الكتاب الذي صدر للاستاذ عبد القادر عياش ، عضو لجنة الفنون الشعبية بسوريا .

※ دعت ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي فى سوريا الى مسابقة بين الكتاب المسرحيين في جميع الاقطار العربية لانتقاء مسرحيات جديدة لصالح المسرح العسكري .

※ اصدر الشاعر السوري الياس طعمة مجموعة شعرية بعنوان : « رؤيا فى الطريق » .

※ صدر فى بغداد كتاب « تاريخ واسط » وهو من تأليف اسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف ببحشل المتوفى سنة 292 هـ . وقد قام بتحقيقه الاستاذ كوركيس عواد ، كما اصدر نفس المحقق كتاب

« رسالة فى الاحجار الكريمة » وهو من تاليف ابا فنيوس المتوفى سنة 402 ميلادية .

* اقيم فى طنطا احتفال كبير ، تخليدا لذكرى مرور ثلاثين سنة ، على وفاة الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي . بعثت لجنة الاحتفال الى مجلس الفنون والآداب بالقاهرة تطالب باعادة طبع ونشر كتب الرافعي . وقد اقامت اللجنة المذكورة تمثالا نصفيا للرافعي فى مدخل دار الكتب بالمدينة ، واطلق اسمه على احد شوارعها الكبرى واحدى مدارسها الثانوية.

* احدثت وفاة الاديب المصري الكبير احمد حسن الزيات حزنا عميقا فى جميع الاوساط الثقافية فى البلدان العربية ، وغير العربية . رحم الله الفقيد الكبير ، فقد كان رائدا من رواد الادب الذي قامت على يدها النهضة الفكرية العربية الحديثة . والاستاذ المرحوم احمد حسن الزيات توفى عن 83 عاما ، قضى الجزء الاكبر منها فى خدمة الادب العربي بمؤلفاته الى 15 فى النقد والادب وعن طريق مجلة « الرسالة » التي ظلت تصدر 20 عاما . وقد كرمته الدولة فأهدته عام 1962 جائزتها التقديرية فى الادب مع ميدالية ذهبية . وكان عضوا فى المجلس الاعلى للفنون وفى المجمع اللغوي.

* مؤلفات الاديب الكبير احمد حسن الزيات يعاد طبعها الان . فقد نشر « عالم الكتب » طبعة جديدة من هذه الكتب منها . دفاع عن البلاغة ، مع مقدمة للدكتورة نعمات فؤاد .. و « آلام فرتر » للشاعر الالماني جيته مترجمة عن الفرنسية . وكان الزيات قد ترجمها منذ 48 سنة .. و « رفائيل » للشاعر الفرنسي لامرتين ، وهي مترجمة من 32 سنة !

* أصدرت دار « عالم الكتب » بالقاهرة ، طبعة جديدة لبعض كتب المرحوم احمد حسن الزيات .

* ازيح الستار فى مدخل الجامعة الامريكية بالقاهرة عن لوحة تذكارية تحمل اسم الدكتور امير بقطر عميد جماعة التربية المصرية الذي توفي منذ عامين . وقد عمل الفقيد اربعين سنة فى الجامعة المذكورة ، وانشا مجلة « التربية » ، وهو العربي الوحيد الذي منحته جامعة كولومبيا وسامها الذهبي الممنوح الى عشرة اشخاص فقط فى العالم منذ افتتاحها من 150 سنة.

* «المملكة العربية السعودية وتطورها الاقتصادي» عنوان الكتاب الذي صدر للاستاذ الفيصل عبد الرحمن السويري فى المملكة العربية السعودية .

* اكتشفت دائرة الآثار الاردنية عن مقبرة نبطية بالقرب من ذات الراس جنوبي الكرك ، وهي تضم 7 قبور منحوتة فى الصخر على عمق 5 امتار من سطح الاردن ، وظهرت بداخلها كتابة نبطية نقشت على حجر وقطعة نقد ذهبية باسم الامبراطور طيباريوس وقوارير فخارية واسرجة .

وتعود هذه المقبرة الى القرن الاول للميلاد .

* « صور من البطولة »عنوان الكتاب الذي صدر للاديب الاردني سليمان موسى ، استعرض فيه بعض الابطال المسلمين .

* فازت الشاعرة نازك الملائكة فى المباراة التي نظمتها وزارة الثقافة والاعلام بالعراق لاختيار نشيد وطني فى موضوع كفاح الامة العربية .

* منع مجلس الطباعة والنشر فى جنوب افريقيا كتاب « القوة السوداء » الذي الفه الزنجي الامريكي ستوكلى كارمايكل ، ودعا فيه الى نضال السود ضد البيض فى جميع انحاء العالم .

* اكتشف علماء الآثار كنزا من الذهب والحجارة الكريمة بمدينة بايتزا بالمكسيك ، يعود الى الف سنة مضت وتقدر قيمة هذا الكنز بملايين من الجنيهات الاسترلينية .

* أصدر الشاعر اللبناني الكبير بولس سلامة كتابا بعنوان « من شرفتي » يعد رائعة من روائع الادب العربي الحديث .

* أصدرت وزارة الثقافة والارشاد فى العراق ضمن سلسلة الكتب الحديثة كتابها الثاني والعشرين بعنوان « مع الكتب وعليها » وهو من تاليف الاستاذ عبد الوهاب الامين .

* « مسجد جامع البصرة الكبير » عنوان لكتاب صدر للشيخ عبد القادر باش اعيان العباسي .

* « بيت الذكريات » رواية جديدة صدرت حديثا للاستاذ حازم مراد .

* اصدرت السيدة شرقية الراوي كتاب « الاوديسة العربية » يشتمل على منتخبات شعرية للشاعر المرحوم عدنان الراوي .

* الاستاذ عبد الرحمن علي عضو رابطة الادب الحديث في القاهرة ، صدر له كتاب عن « شوقي وامارة الشعر » .

وقد سبق للمؤلف ان اصدر اربعة كتب عن الشاعر المرحوم « الكاظمي » .

* « نداء القمم » اول ديوان شعر يصدره د. يوسف خليف استاذ الادب العربي في آداب جامعة القاهرة . الديوان في 300 صفحة تتضمن مقدمة عن اتجاهات شعرنا المعاصر مع موقف الديوان من هذه الاتجاهات .

* كتاب جديد للفريق عبد الرحمن أمين عن سيد الشهداء الامام الحسين رضى الله عنه باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ، سيقدم للسياح والزائرين لمسجد الامام الحسن .

* ابحر عميد الادب العربي د. طه حسين الى ايطاليا في رحلته السنوية (4 اشهر) تصحبه قرينته .

* صدرت الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة ومعدلة من كتاب (الغفران) لابي العلاء المعري للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) .

* سيصدر قريبا من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق المطبوعات التالية :

1 ـ تراجم الاعيان من ابناء الزمان للبوريني (المجلد الثاني) تحقيق الدكتور صلاح المنجد .

2 ـ ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي تحقيق الدكتور صلاح المنجد .

3 ـ غريب الحديث لابن قتيبة (الجزء الاول) تحقيق الانسة ملك هنانو .

4 ـ التلخيص في معرفة اسماء الاشياء لابي هلال العسكري تحقيق الدكتور عزة حسن .

5 ـ التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الاصفهاني تحقيق الدكتور اسعد طلس (صدر) .

6 ـ الدلائل في غريب الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي تحقيق المرحوم عز الدين التنوخي .

7 ـ خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني (قسم بلاد العجم) و (ملحق شعراء الشام) تحقيق الدكتور شكري فيصل .

* ترجم فؤاد كامل رواية « الامل » للكاتب الفرنسي اندريه مالرو . وهي عن الحرب الاهلية في اسبانيا . وقد ترجم فؤاد كامل قبل ذلك لنفس المؤلف رواية « قدر الانسان » . والترجمة دقيقة امينة .

* حافظ ابراهيم ، شاعر النيل تقرر اعادة طبع ديوانه في مشروع المكتبة العربية الذي يشرف عليه ، المجلس الاعلى للفنون والاداب .

* المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب قرر ان يصدر كتابا دوريا كل شهرين عن الشعر والقصة ، سيخصص جزء كبير من الكتاب لانتاج الناشئين .

* معهد البحوث والدراسات العربية ، قرر اصدار مجلة وسوف يكون من الموضوعات الهامة في عددها الاول ، البحث الذي القاه محمد خلف الله احمد مدير المعهد في المؤتمر الدولي السابع والثلاثين للمستشرقين في امريكا في اغسطس الماضي ، والبحث عن دور الفصحى ومستقبلها في حياة العالم العربي .

* يصدر قريبا للاستاذ خالد محمد خالد كتاب بعنوان : (الحسين ومعركة كربلا) .

* تصدر قريبا للاستاذ محمد عبد الله عنان دراسة وافية عن الوزير لسان الدين ابن الخطيب . وقد ناقش فيها جميع آثاره المخطوطة والمطبوعة .

* جاء من تونس انه سيقام في كل مركز ولاية (لواء) مهرجان لعلم من اعلام الفكر التونسي . وخصصت دار الثقافة في العاصمة تونس الاسبوع الاخير من الشهر الماضي للاديب والناقد ابي الحسن ابن رشيق ، فعرضت مؤلفاته مع المؤلفات التي تحدثت عنه . وختم الاسبوع الاستاذ عثمان الكعاك مدير دار الكتب الوطنية بمحاضرة عن ابن رشيق فتحدث عن مولده ثم عن ادبه ثم عن نقدهواخيرا تحدث عن مؤلفاته الذي لم يكن كتاب (العمدة) هو مؤلفه الوحيد بل له تاليف عدة هي (1) قراضة الذهب ، (2) نموذج الزمان في شعر القيروان ، (3) الروضة الموشية في شعراء المهدية ، (4) قراضة الذهب في نقد اشعار العرب ،

5) المساوىء فى السرقات الشعرية ، 6) ميزان العمل فى التاريخ ، 7) رفع الاشكال ودفع المحال .

✻ طلب اتحاد الجاليات الاسرائيلية فى سويسرا من محكمة لوزان ان تقضي بمصادرة كتاب فى 700 صفحة صدر فى سويسرا بعنوان : « الماضي والحاضر والمسالة اليهودية » من تاليف الدكتور جيمس البرت ماتير الذي اثبت ببراهين دامغة ان الاسرائيليين عنصريون شانهم فى ذلك شان النازيين .

✻ الممثل عبد الوارث عسر ، يكتب الان مذكراته الفنية خلال 50 عاما قضاها مشتغلا بالفن .

✻ استعاد الممثل الكبير حسن فايق صحته بعد ان عاش 3 سنوات بعيدا عن الاضواء على اثر اصابته بشلل نصفي .. سيشترك لاول مرة فى مسرحية « 30 يوما فى السجن » التي يقدمها مسرح الريحاني خلال موسم الصيف .

✻ انتخب المجمع العلمي المصري الدكتور حسين فوزي رئيسا بعد استقالة الدكتور كامل حسين . كما انتخب الدكاترة : محمد رضا مدور نائبا للرئيس ومحمود حافظ امينا عاما ومحمد مصطفى امينا للصندوق والاب جورج قنواتي امينا عاما مساعدا والاب هنري عيروط عضوا منتسبا وميشيل فرح عضوا مراسلا .

✻ يوم 10 مايو صادف مرور 31 عاما على وفاة الاديب مصطفى صادق الرافعي .. وقد احتفلت مدينة طنطا باديبها الكبير فى هذا اليوم . اما « اذاعة الشعب » فستمضي فى تقليدها الجديد فى الاحتفال بذكرى الادباء الكبار ، كما فعلت فى ذكرى العقاد .

✻ جمعية الادباء بالقاهرة ستصدر مجلة باسم (الكلمة الجديدة) .

✻ رات فرنسا ان تعيد عرض 80 فيلما من اشهر افلامها الطويلة على الجماهير العربية بعد ان تطبع عليها الترجمة العربية .

من بين الافلام التي ستعرضها فرنسا البؤساء « فيكتور هوجو » ، زواج فيجارو « بومارشيه » ، اللاعب والابلة « دستويفسكي » . كذلك الافلام التي انتجتها فرنسا عن الاحتلال الالماني : الافلام الاستعراضية الغنائية التي فازت بجوائز فى مهرجانات عالميـــة .

✻ صدر فى الاتحاد السوفييتي كتاب جديد عن المفكر المصري رفاعة الطهطاوي بقلم الكاتبة السوفياتية ترينا كحاروفا المتخصصة فى الدراسات الشرقية . قالت الكاتبة فى تقديمها لشخصية رفاعة الطهطاوي : « ان الرجل الذي كرس جانبا كبيرا من حياته للدعوة للتقارب بين الشرق والغرب فى جو يسوده الفهم المتبادل .. يستحق ان تخلد ذكراه فى اذهان مختلف الشعوب » .. والجدير بالذكر ان الكاتبة السوفياتية من جمهورية آسيا الوسطى السوفياتية ، وقد زارت الجمهورية العربية المتحدة فى الفترة الاخيرة ، زارت ايضا قرية طهطا التي ولد فيها رفاعة الطهطاوي ، واجتمعت باهله وبعدد كبير من الادباء والكتاب .

✻ جرى فى قاعة الاجتماعات بجامعة بغداد احتفال بمنح شهادة الدكتوراه الفخرية فى الفلسفة من جامعة مارتن لوثر فى – هالابتنبرك – بالمانيا الديمقراطية للدكتور عبد العزيز الدوري رئيس جامعة بغداد ، حضره اعضاء مجلس جامعة بغداد وكبار موظفي الجامعة وعمداء الكتاب .

✻ قدم الدكتور شوقي ضيف بدعوة من جامعة بغداد ، والقى محاضرة فى كلية الشريعة عن تطور الشعر العربي الحديث . وكان حضرته موضع احتفاء وتقدير جميع الاوساط الثقافية .

✻ سيتم قريبا تاسيس مؤسسة عامة للترجمة تخلف مؤسسة فرانكلين تتولى ترجمة مختلف جوانب التراث العالمي فى مجالات الثقافة والفن والعلوم للقراء العراقيين .

✻ قررت وزارة الثقافة بالقاهرة شراء مكتبة عباس محمود العقاد وضمها الى دار الكتب بحيث تكون وحدة مستقلة كفرع من فروع الدار . وتضم المكتبة اكثر من 8 الاف كتاب فى مختلف العلوم والفنون باللغتين العربية والانجليزية بالاضافة الى مجموعة نادرة من المراجع العلمية الهامة .

* صدر للدكتور محمد فاضل الجمالي كتاب بعنوان: (آفاق التربية الحديثة فى البلاد النامية) طبع الدار التونسية فى 210 ص، وبه ملحقان احدهما عن مستقبل التربية والتعليم فى العراق، والاخر عن صلاح اللغة العربية للتدريس الجامعي.

* صدر عن مكتبة الانجلو فى القاهرة كتاب جديد بعنوان: (صفحات من حياتهم) تأليف الاستاذ محمد نصر؛ يتناول فيه بالدراسة احمد شوقي، احمد كمال زكي، امين يوسف غراب، انيس منصور، توفيق الحكيم، ثروت اباظة، جاذبية صدقي، الشيخ حسن مأمون، حسين مؤنس، طه حسين، عاتكة الخزرجي، عباس العقاد، غادة السمان، محمود تيمور، مراد كامل، نازك الملائكة، نجيب محفوظ، وغيرهم من الاديبات والادباء، والكاتب يكشف الستار لاول مرة عن حقيقة علاقة العقاد بالفتاة التي انتحرت يوم وفاته.

* « الطبيعة فى الشعر العربي الحديث » عنوان الرسالة التي سيناقشها بكلية دار العلوم الدكاترة عبد القادر القط وعمر الدسوقي واحمد هيكل .. وقد اعد الرسالة الاستاذ محمد صادق الكاشف خريج الكلية.

* صدرت الطبعة الثانية من الجزء الاول من « تاريخ الطبري » ومن تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.

* كتاب جديد للدكتور مصطفى الشكعة في دراسة الادب العربي شعرا ونثرا وخطابة بعنوان « الادب ــ موكب الحضارة الاسلامية » فى 870 صفحة .. وقد حرص الدكتور الشكعة على ان يلتقط خيطا حضاريا بارزا فى الحضارة الاسلامية، وسار به وراءه فى كل مجالات الادب العربي، واستطاع ان يمس الكثير من جوانبه بوضوح وبساطة.

* « القيم الاسلامية للفكر الاسلامي والثقافة العربية » هو اسم الكتاب الجديد الذي يقوم انور الجندي فى القاهرة باعداده فى موسوعته الجديدة « معالم الفكر المعاصر » باعتبارها استكمالا لموسوعة « معالم الادب العربي المعاصر » . ويصدر فى موسوعة الفكر خلال الشهر الجاري « الاسلام وحركة التاريخ ».

* حصل الدكتور محمد محمود حجازي على الدكتوراه مع مرتبه الشرف الاولى من كلية اصول الدين بجامعة الازهر، وكان موضوع الرسالة عن « الوحدة الموضوعية فى القرءان الكريم » والدكتور حجازي مؤلف من ثلاثين جزءا عن التفسير الواضح القرءان بطريقة سهلة تفيد الشباب المثقف ثقافة مدنية.

* محاولة فى تفسير العداوة .. اسم الكتاب الذي ظهر فى السوق من تأليف الدكتور سيد عويس، وهو يتضمن دراسة عامة للسلوك الانساني وتفسير بالعداوة تفسيرا علميا يهدف الى العلاج وتنمية الشعور بالمحبة.

* صدر المجلد الثاني من كتاب (الحجة على اهل المدينة) للامام محمد بن الحسن الشيباني تحقيق مهدي حسن الكيلاني باشراف ابو الوفاء الافغاني (حيدر آباد ــ الدكن سنة 968) وثمنه ثلاثة دنانير.

* ذكر الاستاذ صالح جودت المحرر بمجلة (المصور) ان دار الشاعر الكبير احمد شوقي المعروفة بـ (كرمة ابن هاني) القائمة على شاطىء النيل بالجيزة ستؤجر او تباع قريبا، وهو يستصرخ ضمائر المسؤولين بعدم الاقدام على التفريط فى هذه الدار التي آوت اعظم شاعر فى تاريخ الادب العربي الحديث بل تحويلها الى متحف.

* كما ذكر الاستاذ صالح جودت ان دار الشاعر اللبناني الكبير بشارة الخوري قد هدمتها الحكومة اللبنانية فاضطر للسكنى فى شقة متواضعة فى الطابق الرابع فى حي (الدورة) ...

* افتتح فى اكرا مؤخرا مؤتمر حول تنمية الكتاب فى افريقيا، وشارك فى هذا المؤتمر الذي عقد تحت اشراف منظمة اليونسكو اربعون خبيرا افريقيا وملاحظون عن عدد كبير من الدول من بينها المغرب والعراق والولايات المتحدة ودول اوربية اخرى.

وعقبت وكالة الانباء الغانية على اشغال هذا المؤتمر فلاحظت ان هذه اول مرة يعقد فيها مؤتمر من هذا النوع لدراسة مسائل مختلفة تتعلق بميدان الكتاب ودوره فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتاليف الكتب عن افريقيا.

وقد صرح المدير العام المساعد لمنظمة اليونسكو الذي يشارك فى هذا المؤتمر ان افريقيا تعاني ازمة في ميدان انتاج الكتب ، واوضح ان انتاج الكتب فى القارة الافريقية لا يتعدى حاليا 6 كتب فى السنة لكل مليون شخص ، فى حين تنتج اوربا 2918 كتابا لكل مليون شخص .

* نشرت جمهورية المانيا الديمقراطية اول ترجمة المانية للقرءان الكريم ، وتقوم بنشره « يونيفرسال بيبليوتيك » اقدم دار نشر صحيفة فى العالم يعود تاريخها لمائة عام خلت . اما الطبعة الواسعة نسبيا والبالغة 20 الف نسخة فستؤمن توزيعا واسعا بسعر منخفض قدره حوالي 3 ماركات .

* « امرؤ القيس .. امير شعراء الجاهلية » احدث دراسة عن اقدم شاعر صدرت عن دار المعارف للدكتور الطاهر مكي مدرس الادب العربي بكلية دار العلوم . الكتاب يناقش اهم القضايا اللغوية والادبية فى العصر الجاهلي .

* قررت نقابة المهندسين اعادة طبع خريطة الادريسي المشهورة التي كان المجمع العلمي العراقي قد قام بطبعها قبل اكثر من عشر سنوات بتحقيق محمد بهجت الاثري والدكتور سوسة . والطبعة الجديدة ستكون بتحقيق الدكتور صالح احمد العلي والدكتور ابراهيم شوكت .

* سيصدر المجلد الثاني من كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الاصفهاني الكاتب (قسم شعراء المغرب) تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى .

* ستصدر قريبا عن الدار التونسية للنشر المطبوعات التالية :

— الواضح فى مشكل المتنبى للصاجي ، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور .

— طبقات علماء افريقية وتونس ، لابي العرب ، تحقيق الدكتور علي الشابي والدكتور نعيم حسن اليافي .

— الفارسية فى اخبار الدولة الحفصية لابن قنبقد تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي .

— « معجز احمد » لابي الطيب المتنبي تحقيق محمد الفاضل ابن عاشور ومحمد الحبيب ابن الخوجة

— الحلل السندسية للوزير السراج ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة .

— الادب الفارسي فى العصر الغزنوي للدكتور علي الشابي .

— اضواء على الاثار الاسلامية لمحمد الشابي .

— دور القيروان فى المغرب الاسلامي لمحمد العروسي المطوي .

— دراسة عن الادب التونسي لمحمد الحليوي .

— وثائق تونسية (النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

* استطاع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية فى القاهرةان ينشر فى فترة وجيزة مئات الكتب الاسلامية القيمة وجعلها فى متناول جميع الباحثين .

والكتب الكثيرة التي اصدرها المجلس كلها عن التاريخ الاسلامي والعلوم القرءانية والحديث وتحقيق الاحاديث واختيارها وشرحها والمذاهب الدينية والفرق الدينية ايضا ، بل ان المجلس قد نشر كتابا قيما هو كتاب الخطابة للفيلسوف اليوناني ارسطو .

ومما يدل على تنوع الكتب والمجلات التي يرتادها المجلس انه نشر كتبا مثل : «محمد .. وبنو اسرائيل» للدكتور مصطفى كمال وصفي .. وكتابا عن « اليهود والجريمة » للواء عبد المنصف محمود .. غير هذين الكتابين ايضا عن العلاقة بين اليهود والتآمر على الاسلام والمسلمين ..

ومن الكتب الجليلة التي اصدرها المجلس اخيرا كتاب (المنتخب فى تفسير القرءان الكريم) فى اكثر من 930 صفحة من الورق الكبير . وفى هذا الكتاب نجد اسهل التفسيرات لكلام الله ، وبذلك يصبح فهم القرءان الكريم فى متناول المتخصص وغير المتخصص.

كما ان المجلس عكف على القيام بعمل ضخم شاق هو انتخاب 600 صفحة من كتاب « التلمود »

وهو كتاب المعاملات والحياة اليومية لليهود منذ انهدم عليهم الهيكل سنة 70 ميلادية حتى اليوم . وكتاب « التلمود » مليء بالتفاصيل والعبارات النابية والقصص الشاذة . ولذلك سوف تختار لجنة متخصصة اهم ما جاء في التلمود واكثرها دلالة على الروح الشريرة المتعصبة المجرمة التي يتسم بها اليهود في العصور .

واكثر مشروعات « المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية » طموحا هو اصدر « موسوعة جمال عبد الناصر في الفقه الاسلامي » . وسوف تصدر هذه الموسوعة في 55 مجلدا. وقد صدر منها ثلاثة اجزاء هذه الموسوعة مثل كل دوائر المعارف المتخصصة تضم كل ما يحتاج اليه الباحثون .. والموسوعة بهذا المضمون وبهذا الشكل قد جاءت على نسق دوائر المعارف العالمية ذات الموضوع الواحد .. وربما اختلفت عنها في شيء هام وهي انه في نهاية كل مجلد قد اضافت معجما باسماء الاعلام مع الشرح والتعليق ..

ولا شك ان هذا العمل العظيم الذي يقوم به صفوة من العلماء العرب يستحق التقدير ..

* « من عيون الشعر » كتاب صدر في العراق لمؤلفه الاستاذ محمد ناجي القسطني

* اصدرت وزارة الاوقاف العراقية مجلة بعنوان « الرسالة الاسلامية » .

* « شعر المقاومة في فلسطين المحتلة » كتاب بالانجليزية صدر عن وزارة الثقافة والارشاد العراقية يتضمن ترجمة لقصائد عدد من الشعراء الفلسطينيين.

* انتهى الاستاذ يوسف يعقوب مسكوني ، والدكتور مصطفى جواد من العراق ، من تحقيق كتاب « رسائل في اللغة » ويشتمل على ثلاث رسائل في اللغة ، الاولى « في تمام فصيح الكلام » لاحمد بن زكريا ابن فارس من علماء القرن الرابع . والثانية « الحدود في النحو » . والثالثة « منازل الحروف » وهما من تاليف علي بن عيسى الرماني من علماء القرن الرابع الهجري المتوفى سنة 376 .

* اصدر الاستاذ عبد الجبار داود البصري كتابه الرابع تحت عنوان « شيء من التراث »

* « مهاجر بريسبان » اسم مسرحية للشاعر اللبناني جورج شحادة ، ستعرض في القاهرة .

* سيصدر للشاعر السوداني احمد سيد الحردلو ديوانا عن دار الكتاب العربي في القاهرة .

* تشكلت لجنة ادبية مؤلفةمن الادباء السودانيين وهم : الدكتور عبد الله الطيب ، والاستاذ محمد الامين حامد ، والاستاذ جبلي عبد الرحمان ، مهمتها اختيار الكتب الجديدة ونشرها باسم وزارة الثقافة والارشاد السوداني . وقد اختارت اللجنة من الان مجموعة قصص وخمسة دواوين تنشرها على التوالي بحيث يصدر كتاب : كل شهر .

* الشاعر السوداني مهدى المجذوب يصدر له في هذه الايام ديوان جديد هو باكورة انتاجه ، رغم انه شاعر ذائع الصيت .

* المؤلف اللغوي جورجي سليم ابى اسبر ، اصدر كتابا عنوانه « مجموعة الحروف العربية وظروفها » ، وهو دراسة هامة جدا ، لكل من يهتم باللغة وفقهها .

* ستصدر في لندن في هذه الايام ترجمة انجليزية لرسالة حول « الرماية بالسهام » كتبت بالعربية قبل 500 سنة .

* « المراة العراقية المعاصرة » اسم لكتاب صدر للاستاذ عبد الرحمان سليمان الدرنبدي .

* صدرت الطبعة الجديدة المزيدة من الجزء السابع من كتاب « تاريخ الوزارات العراقية » وهو من تاليف الاستاذ عبد الرزاق الحسني .

* اصدر مكتب الشرق كتابا تحت عنوان : « ما هو البحث وكيف تكتبه » من تاليف الاستاذ ميخائيل مروكسي .

* « تحفة اولي الالباب في صناعة الخط والكتاب» و « شرح ابن الوحيد على رائية ابن البواب » هذان الكتابان صدرا مؤخرا بتونس .

* « شعر خفاف بن ندمة السلمي » ـ الشاعر المخضرم ، جمع شعره وحققه الدكتور نوري حمودى القيسي . وصدر هذا الكتاب في العراق .

* صدر حديثا الجزء الاول من كتاب « مسالة العروج في الكتابات الصوفية » . الف هذا الكتاب باللغة الانجليزية الدكتور قاسم السمرائي ، وصدر في العراق .

* انتهى المستشرق السوفييتي بيتر غرباز نيفتيس من تصوير نصوص كتب تاريخية قديمة ذات محتوى ديني تعود الى السابين والحمريين كتبت فيما بين القرن الخامس الميلادي ، والقرن السادس ، تمهيدا لنشرها في الاتحاد السوفياتي .

* صدر بالعراق حديثا ديوان « الشاب الظريف » لشمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني الملقب بالشاب الظريف ، وقد قام بتحقيقه ، وتفسير الفاظه الاستاذ شاكر هادي شكر .

* اصدر الدكتور حسام محي الدين الالوسي كتابا مهما بعنوان « حوار بين الفلاسفة والمتكلمين » .

* احتفلت الصحافة اللبنانية بالذكرى السابعة لمبايعة الاخطل الصغير بشارة الخوري بامارة الشعر . والاخطل من مؤسسي الصحافة اللبنانية يوم كان صاحب جريدة « البرق » وهو ما يزال حتى اليوم عميد نقباء الصحافة اذ انه اكبر النقباء الاحياء سنا . وهو القائل :

أنا في شمال الحب قلب خافق
وعلى يمين الحق طير شاد
غنيت للشرق الجريح وفي يدي
ما في سماء الشرق من امجاد

وقد توفي في الايام الاخيرة فرحمة الله عليه .

* الدكتور فخر الدين قباوة في حلب ، يحقق كتاب « شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي » نقلا عن نسخة عليها سماع لابن السمين قراءته الكتاب على استاذه المؤلف . ويعارض الدكتور قباوة الكتاب بشرح ابن الانباري المطبوع وشرح ابن النحاس الذي لم ينشر بعد .

* احدثت محاضرة محمد سيرجية رئيس محكمة الاستئناف بحلب التي القاها في المركز الثقافي بحلب بعنوان « مقارنة بين القصد الاحتمالي والخطا والفصل بينهما » ضجة بين رجال الادب والقانون . فهي اول عمل فكري شهدته الشهباء يشتمل على التفسير القانوني في اسلوب ادبي رائع .

* الباحث والشاعر السوري الدكتور زكي المحاسني صدر له في القاهرة كتاب جديد عنوانه «عبد الوهاب عزام في حياته واثاره الادبية » .

* الدكتور محمود محمد الحبيب مساعد رئيس جامعة البصرة في العلاقات الثقافية ومدرس العلوم الاقتصادية في جامعة البصرة اصدر بحثا عنوانه « نظريات الاجور في الفكر الاقتصادي » ويقع في 52 صفحة .

* « الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية » عنوان رسالة الدكتوراه التي اعدها الباحث العراقي صالح داود القزاز وجرت مناقشتها بكلية اداب جامعة عين شمس .

* صدرت في بغداد الكتب التالية : « الشاب الظريف » لشمس الدين محمد بن عفيف سليمان التلمساني الملقب بالشاب الظريف تحقيق وتفسير شاكر هادي شكر ويقع في 304 صفحات . « حوار بين الفلاسفة والمتكلمين » للدكتور حسام محيي الدين الالوسي في 296 صفحة . « الامراض النفسية الشائعة» للدكتور معمر خالد الشابندر في 172 صفحة. « الحضر » دراسة لمدينة الحضر التاريخية لماجد عبد الله الشمس في 110 صفحات . « شعر خفاف بن ندبه السلمي » جمع وتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي في 204 صفحات . « صالح بن قدوس البصري » جمع وتحقيق عبد الله الخطيب في 210 صفحات . « تاريخ الوزارات العراقية » طبعة جديدة مزيدة من الجزء السابع لعبد الرازق الحسني في 328 صفحة . « المراة العراقية المعاصرة » لعبد الرحمن سليمان الدربندي الجز الاول في 340 صفحة.

* يصدر قريبا ديوان الشاعر الكويتي المعروف عبد الله عبد العزيز الدرويش وعنوانه «طلائع الفجر» .

* « العهد المخضرم في سوريا ولبنان 1918 – 1922 » كتاب جديد للعلامة محمد جميل بيهم صدر عن دار الطليعة في بيروت ، ويقع في 224 صفحة .

* القى الدكتور وليد الخالدي محاضرة موضوعها « فلسطين 1968 » في نادي متخرجي المقاصد الاسلامية ببيروت .

* « المرأة العربية والروح النضالية » كراسة من 32 صفحة صدر في بيروت لثريا ملحس . طبع منه 1500 نسخة ، وقدم ريعه الى الفدائيين واصدقاء القدس .

* اقامت الرابطة الادبية الشمالية في طرابلس حفلة تذكارية كبرى لفقيد الادب رئيف خوري برعاية محافظ الشمال الشيخ قاسم العماد ، وقد تكلم فيها : الشيخ قاسم العماد ، رياض طه ، الدكتور شكري فيصل ، بلند الحيدري ، يوسف يونس ، «ابو سلمى» عبد الكريم الكرمي ، يوسف السباعي ، المهندس حبيب غالب . وقد كان عريف الحفلة عبد الهادي شلق .

* صدرت في بيروت مجلة شهرية موسوعية باسم « برق ورعود » صاحبها ايليا حجار ، ومديرها المسؤول محيي الدين الميداني .

* يصدر خلال هذا الشهر عن منشورات عويدات ببيروت « معجم الادب المعاصر » تأليف بيار دي بواديفر ترجمة بهيج شعبان ، ويقع الكتاب في نحو 700 صفحة حجم كبير . ويجدر التنويه الى ان المؤلف قد كتب مقدمة للطبعة العربية ، بموجب الاتفاق الذي عقد بين الناشر العربي والناشر الفرنسي .

* « خيانا الصواريخ في الهياكل » ديوان جديد لثريا ملحس صدر في بيروت ، ويقع في 548 صفحة حجم كبير وهو يمثل عند الشاعرة المرحلة الثانية . وقد قدمت اربعمائة نسخة من الكتاب الى الفدائيين وثمن النسخة عشر ليرات لبنانية .

* صدر في منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت : « ديوان الجواهري » الجزآن الاول والثاني في مجلد واحد يقع في 645 صفحة مع تجليد فني أنيق . و « المصطلح في الادب الغربي » تأليف الدكتور ناصر الحاني . و « دراسات في الشعر العربي الحديث » تأليف امطانيوس ميخائيل ، ويقع في 300 صفحة . و « وجهان عاريان » قصة طويلة تأليف باسم سرحان ، وتقع في 270 صفحة .

* توفي الدكتور سيف الدين الكيلاني الاستاذ في جامعة الرباط . وكان قبل ذلك سفيرا للاردن في المغرب ، كما سبق وتولى المناصب الوزارية . وكان مربيا فاضلا واديبا وشاعرا مجيدا . وقد نقل جثمانه الى عمان حيث وري التراب .

* وافقت الحكومة الاردنية على استضافة الاديبة المصرية جاذبية صدقي لدى زيارتها القريبة للاردن للاطلاع على اوضاع النازحين .

* القاضي والاديب الاردني اللامع مصطفى درويش الدباغ توفي في القاهرة على اثر جراحة اجريت له .

* صرحت دائرة الاثار الاردنية انه تم اكتشاف قبر اثري في جبل التاج بعمان يرجع الى العصر البرونزي القديم 2500 ــ 1600 ق . م. كما عثر على قبر اثري آخر في بلدة سحاب على بعد 12 كم في الجنوب الشرقي من عمان ، وظهر فيه آثار لها اهميتها في تاريخ الحضارة في الاردن خلال المدة 1400 ــ 600 ق . م.

* افتتحت الاميرة منى الحسين معرضا للرسم الكلاسيكي في المعهد الفرنسي بعمان . ضم المعرض 46 لوحة زيتية تصور البيئة الاردنية من رسم الاخوين جان وجورج كابلنيان .

* يزور الولايات المتحدة الدكتور محمود السمرة وكيل كلية الاداب في الجامعة الاردنية لحضور مؤتمر « الدراسات الانسانية » الذي تقيمه جامعة هارفرد ، وسيلقي بحثا عنوانه « الحياة الفكرية المعاصرة في الشرق العربي » ولقد دعي 20 استاذا من اشهر جامعات العالم لحضور هذا المؤتمر .

* اصدر وزير المعارف السعودي الشيخ حسين آل الشيخ قرارا بافتتاح اربع مدارس متوسطة حديثة في كل من الرياض والمدينة المنورة والهفوف .

* صرح وزير العمل والشؤون الاجتماعية السعودي الشيخ عبد الرحمن ابا الخيل ان مجلس الوزراء وافق على ارسال 25 شخصا ممن يعملون بمركز التدريب المهني الى المانيا الغربية للتدريب على مهنة الطباعة بموجب منحة من حكومة المانيا الغربية.

※ قال عبد الله بغدادي عميد كلية الشريعة بمكة المكرمة انه تقرر احداث قسم للدراسات العليا بكلية الشريعة لتحضير الماجستير والدكتوراه اعتبارا من اول العام الدراسي المقبل . وقد انتهت اللجنة التي شكلت لهذا الغرض من وضع اللوائح والخطط والمناهج المتعلقة بهذا القسم .

※ وصل الى الرياض خبير في الاحصاءات التعليمية اوفدته منظمة اليونسكو لتقديم المشورة الفنية للقيام بجمع وتنظيم الاحصاءات التعليمية والعمل بالادارة المختصة في وزارة المعارف . كما وصل خبير الامم المتحدة الاقليمي لشؤون التنمية الصناعية للقيام بمتابعة ودراسة مشروعات التنمية الصناعية . ووصل ايضا خبير منظمة اليونسكو في حقل تعليم الصم والبكم لتقديم المشورة لتطوير الدراسة في هذا الحقل .

※ قررت اللجنة الوطنية لليونسكو في السعودية وضع كتاب ثقافي عن المملكة يتيح للعالم الوقوف على امكانيات الدولة والتعريف بما يجري داخل البلاد من اداب وفنون وحضارات تليدة تمتد جذورها الى القديم .

※ اتخذت وزارة المعارف السعودية الخطوات اللازمة لافتتاح المعهد المهني الملكي وذلك بعد ان هيأت المباني والاجهزة بشكل علمي وتربوي هو الاول من نوعه في منطقة الشرق الاوسط .

※ صدر حديثا في منشورات دار اليمامة بالرياض « بلاد العرب » تأليف الحسن بن عبد الله الاصفهاني تحقيق الشيخ حمد الجاسر والدكتور صالح العلي وقد ساعد المجمع العلمي العراقي على نشر هذا الكتاب. كما صدر عن الدار « غزوات الجراكسة والاتراك في جنوب الجزيرة » تأليف قطب الدين محمد بن احمد النهروالي المكي (917 – 998 هـ) تحقيق الشيخ حمد الجاسر . ويصدر قريبا عن دار اليمامة كتاب «المغانم المطابة من معالم طابة » لمجد الدين الفيروز ابادي (729 – 817 هـ) تحقيق الشيخ حمد الجاسر .

※ صرح احمد الصالحين وزير الاعلام والثقافة في ليبيا بان التلفزيون الليبي سيبدا بارسال برامجه من محطتي طرابلس وبنغازي في عيد الاستقلال في 24 ديسمبر المقبل .

※ صدر عن الدار التونسية للنشر في تونس « التوت المر » وهي قصة طويلة لمحمد العروسي المطوي ، فازت بجائزة بلدية العاصمة عام 1963 وتقع القصة في 216 صفحة .

※ صدرت في تونس الطبعة الثالثة من كتاب « مجمل تاريخ الادب التونسي من فجر الفتح العربي لافريقية الى العصر الحاضر » للعلامة التونسي حسن حسني عبد الوهاب .

※ حضر الى الجزائر الدكتور علي شامي النشار استاذ الفلسفة بجامعة الاسكندرية لالقاء محاضرات في تاريخ الفلسفة الاسلامية بكلية الاداب بالجامعة الجزائرية .

※ كلفت جامعة الجزائر الدكتور جمال مرسي بدر مستشار وزارة العدل الجزائرية بتدريس مادة الشريعة الاسلامية لطلبة كلية الحقوق .

※ قررت الجامعة الجزائرية انشاء قسم بكلية الحقوق يجري التدريس فيه باللغة العربية ابتداء من العام الجامعي المقبل .

※ اصدرت « جمعية الفلسفة بالمغرب » مجلة جديدة بعنوان « دراسات فلسفية وادبية » .

※ تصدر قريبا عن دار النهضة العربية بالقاهرة الطبعة الثانية من كتاب « النيابة في التصرفات القانونية » للدكتور جمال مرسي بدر وهو دراسة مقارنة بين القوانين ذات الاصل الفرنسي والالماني والانجليزي وبين الفقه الاسلامي في موضوع عقد الوكالة وما يشابهه من نظم النيابة عن الغير في التصرفات والعقود .

※ صدر بالقاهرة لمصطفى عبد الواحد كتابان قام بتحقيقهما هما « الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة خلفاء » للكلاعي الاندلسي في منشورات الخانجي و « قصص الانبياء » لابن كثير في منشورات دار الكتب الحديثة . كما قررت لجنة النشر بالمجلس الاعلى للفنون نشر رسالته التي نال بها الماجستير وعنوانها « الدراسات الادبية للعاطفة في تراثنا العربي»

* صدر بالقاهرة عن دار الفكر العربي « ديوان الماحي » لمحمد مصطفى الماحي وهو كتابان في مجلد واحد ضخم يقع في 764 صفحة حجم كبير . ويتضمن الكتاب الاول شعر الديوان وصداه في ميدان الادب ، ويتضمن الثاني صفحات من قصص الحياة في ضوء شعر الديوان .

* « الاسلام وحركة التاريخ » كتاب جديد لانور الجندي صدر بالقاهرة وتناول بالعرض تاريخ الاسلام منذ فجره الى اليوم وفق منهج جديد يختلف عن المنهج المدرسي التقليدي ويرسم تطور التاريخ الاسلامي من خلال الخمس مراحل : توسع ، انصار وبلورة ، غزو ومقاومة ، وحدة اسلامية عثمانية ، يقظة عربية .

* توفي بمصر فجاة محمد خليل قاسم اول كاتب روائي نوبي،مؤلف القصة المعروفة «الشمندورة» .

* المجمع اللغوي في القاهرة يقيم مسابقة موضوعها « الاسرة في الادب العربي » آخر موعد للاشتراك بها 31 مارس من العام المقبل . المسابقة مفتوحة امام جميع الدول العربية .

* توفي الدكتور حسنين عبد القادر استاذ الصحافة بكلية الاداب بجامعة القاهرة .

* « اثر التلفزيون في الاطفال وتلامذة مدارسنا الابتدائية » عنوان رسالة الماجستير التي قدمتها نادية شكري المدرسة بكلية رمسيس ، وجرى مناقشتها في كلية بنات جامعة عين شمس .

* احيت جمعية الادباء في القاهرة الذكرى الثانية لوفاة الاديب محمد فريد ابو حديد ، وتحدث عنه في الحفل محمد عبد الحليم عبد الله وشكري عياد وفاروق خورشيد وصافيناز كاظم .

* توفي في القاهرة عبد العزيز وصفي وكيل وزارة الثقافة .

* نوقشت بكلية اداب جامعة عين شمس رسالة الماجستير المقدمة من الانسة عربية توفيق لازم وموضوعها « التطور والتجديد في الشعر العراقي الحديث » .

* توفي بالقاهرة الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة اسيوط السابق .

* حصلت السيدة آمنة اللوه اخيرا على شهادة دكتوراة الدولة من جامعة مدريد المركزية من كلية الفلسفة والآداب ــ قسم التربية ــ بدرجة امتياز وذلك بعد مناقشة رسالتها حول المدرسة المغربية الاولى بشمال المغرب من خلال التاريخ والعصر الحاضر .